أنا أحيا

ليلى بعلبكي

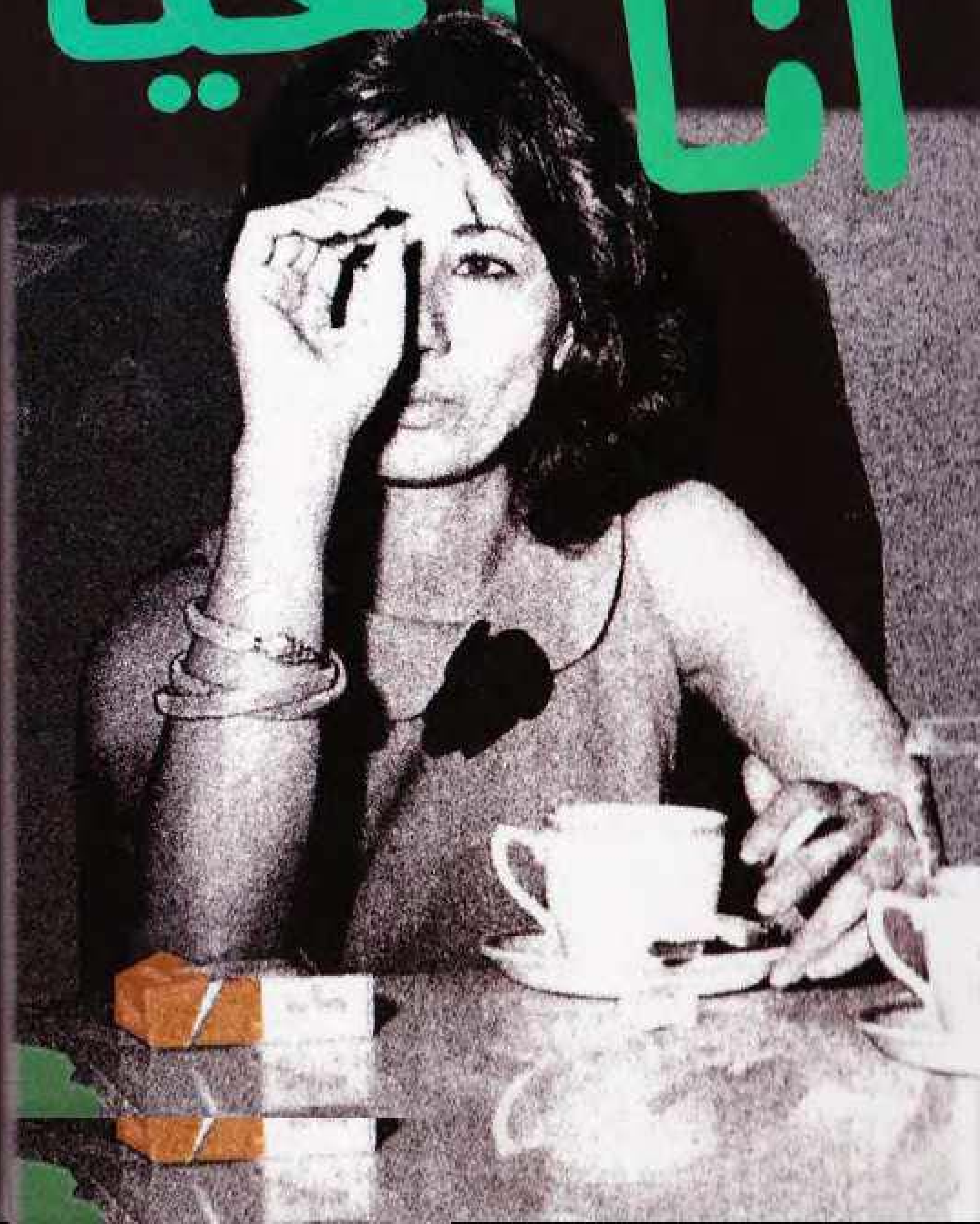

ليلى بعلبكي

أنا أحيا

دار الآداب - بيروت

ـ ١ ـ

فكَّرت، وأنا أجتاز الرصيف، بين بيتنا ومحطَّة الترام:

لمن الشعر الدافئ، المنثور على كتفيّ؟ أليس هو لي، كما لكلّ حيّ شعره يتصرَّف به على هواه؟ ألست حرَّة في أن أسخط على هذا الشعر، الذي يلفت إليه الأنظار حتى أمسى وجودي سبباً من وجوده؟

ألست حرَّة في أن أمنح حامل الموسى لذَّة تقطيع خصلاته وبعثرتها بين قدميه، ليرميها حامل المكنسة، في تنكة صدئة؟

ثمّ ألست حرَّة في أن أتردَّد أكثر من مرَّة لزيارة حامل الموسى، فأشبع عينيّ من رؤية الأداة الحادَّة، وهي تتكتك وهي تأكل، وهي تقتل؟

في المساء، وبعد أن أرجع من عملي، سأسحب رجلين ثقيلتين إلى حيث الأداة الحادَّة. فأنا أحسّ برغبة جامحة: لسماع دمار، لمشاهدة أشلاء، التحديق بأصابع قاسية، جبَّارة، لا ترحم.

لكن،

سيكون ذلك في المساء... في المساء، والصبح يتربَّع على عرش هذا اليوم، والمطر يسكب في جسدي برودة لذيذة تنام على أطراف الأصابع، وفي الركبتين.

سيكون ذلك في المساء... كأنَّ المساء قريب!

ماذا؟ ساعات معدودة، ويكون المساء؟

نحن نقول دائمًا ببساطة: في المساء مواعيدها. كأنَّ هذه الملايين الغزيرة من الدقائق، والثواني... كأنَّها لا شيء!

أما أنا، فمن الآن حتى المساء، سأبني مستقبلاً لحياتي:

سأستقلّ هذا الترام، مع أنَّ سيّارتنا الحمراء الجديدة تربض على مدخل بنايتنا. سأنزل في ساحة المدينة الهائجة. سأسير تائهة في الشارع المزدحم. سأنعطف إلى اليسار في الزقاق الضيّق، الوسخ. سترتجف حتمًا ركبتاي قليلاً حين أصل. سينكمش قلبي مختبئًا في الزاوية. وسيضرب الدم صدغيّ بقساوة تعمي عينيّ.

قلت،

سأستقلّ هذا الترام، لكن كيف سيُتاح لي الصعود إليه، ورصيف المحطّة يكاد أن يتزلزل بهذه العشرات المنتظرة؟

أنا أنتظر. أنتظر. والوقت يزحف. ويزحف.

أتمنّى لو كان الوقت شيئًا ملموسًا، لتجاهلت وجود الناس حولي، وانقضضت عليه أنهشه بأظافري، وأمضغ أشلاءه بأسناني.

ثم ألفظه على الأرض لينزوي بين قدميّ خائفًا، صاغرًا. إن قلت له قف: جمد! وإن أمرته بالتحليق، غاب عن الحياة وأنا ممسكة زمامه، مستلقية بين جناحيه!

أنا أنتظر.

ولن أتحمّل الانتظار أكثر من ذلك. سأذهب في سيّارة.

ما أغباني!

كيف لم ألمح هذه السيّارات الرائعة الألوان، الناعمة الصوت، المغرية؟

وما دمت سأعمل، والعمل سيكون فاخرًا؛ وما دمت سأدفع من تعبي الأجرة، فسأجلس هكذا في مقعد السيّارة. وهكذا، أعني، بعظمة! وأدير رأسي ملصقة خدّي الملتهب بالزجاج البارد. وسأمسك ربع الليرة بأطراف أصابعي وأرميها إلى السائق، دون أن التفت محدّقة بوجهه، ووجوه سائر الركّاب.

ولن أفعل هذا، اليوم، فقط. إنّما سأهزأ بوالدي، وسيّارته، ودراهمه. سأريه هذا الاستخفاف به كلّ يوم، كلّ يوم.

والآن، عليّ أن أختار لونًا ينسجم مع لون معطفي الرماديّ القاتم، ماذا أختار: أحمر؟ أخضر؟ أزرق وأبيض؟

أكاد أن أزعق إعجابًا، يا لهذه السيّارة الأنيقة!

سأمدّ يدي مشيرةً إلى السائق: قف!

تنبَّهت:

لأمدَّها، لأمدَّ يدي إلى حقيبتي مفتِّشة عن ثروتي فيها.

خمسة وعشرون قرشًا ثروتي!

خمسة وعشرون قرشًا للذهاب إلى العمل، في سيّارة؟ ولكن كيف أعود؟ لو كانت الحكومة قد حدَّدت أجرة الراكب في السرفيس بخمسة عشر قرشًا، لبقي معي عشرة قروش للإياب في الترام. ثم تمرّ لحظة في حياتي، لا أملك فيها قرشًا واحدًا. لأعدّ بعدها ثروتي التي أجمعها بعرقي: بالليرات.

ليت والدي يسمعني وأنا أجاهد في حلّ هذه المشكلة الماليَّة المستعصية! أتمنَّى لو كان يسمعني، فأرى انفعالات نفسه على وجهه المصفرّ!

خمسة وعشرون قرشًا.

وسحبتها من حقيبة يدي، فإذا رائحة التنباك تنبعث من ورقة العشرة قروش، بينما تنزوي قطع الألومينيوم البيضاء الثلاث، في القعر. تضايقني رائحة الدراهم، ويسعدني منظرها. لكنَّني لن أتحمَّل ارتماء هذه النفايا الوسخة على راحة يدي. إنَّها تنهش يدي، تأكل من يدي. سألقيها في مياه المطر الوسخة الراكدة، تحت الرصيف. وسأتسلَّى برؤية الورقة، وهي تتفتَّت، بينما ينام المعدن في القعر متلألئًا!

أنا بلهاء. كيف سأصل إلى مقرّ عملي، إذا رميتها؟

وبحركة عجلى رميت القروش في الحقيبة، وأقفلتها وسرت تحت المطر.

أعشق السير تحت المطر. الحياة اليوم كلّها لي، أحسّ بنشوة، وبانتصار، وبحيرة!

يا للأفكار المضطربة! وقفت:

هذا الزاروب وسخ. وهؤلاء الناس المبعثرون فيه، لهم وجوه صفراء، وأنوف حمراء متجلِّدة. ثم هذه هي اللافتة الكبيرة: هنا سأعمل.

للبناية بوّابتان، إحداهما صغيرة، في الزاوية، والثانية كبيرة، رائعة، تتصدَّر المدخل.

ولجت البوَّابة الكبيرة على عجل، دون أن ألتفت حولي لأجيب عن أسئلة البوَّاب المسكين. وابتلعت الدرجات العديدة بخطوات سريعة، فتلقَّاني الحاجب في الطابق الثاني متسائلاً ببرود:

ـ نعم؟

ونقل نظراته بين وجهي المنفعل، وثيابي المبتلّة، وتبسَّم. فتبسَّمت بدوري مجيبة:

ـ الرئيس!

وقبل أن يتحرَّك، قرعت بابًا صغيرًا فخمًا وحاولت فتحه، فإذا هو مقفل. بذلت جهدًا جبَّارًا لأدير رأسي، وأرى تأثير حركتي، ونتائجها

في عيني الحاجب. فإذا الابتسامة الباهتة لا زالت تتأرجح على شفتيه، وهو يشير إلي بمفتاح أصفر صغير!

تمتمت دهشة، وأنا أمدّ يدي بأصابعها الخمس، إلى الباب:

«أليس.. هو.. هنا؟»

فلم يجب، وتقدَّم يسألني:

«اسم الآنسة الكريم؟»

أعجبتني صفة كريم لاسمي، كما أعجبني ارتخاء أسارير وجهه، حين سمع اسمي. وأعجبتني هذه النظرات: نظرات ذعر. تهيُّب. خوف. استغراب. ثمَّ الخضوع، وحركة التلبية المرغمة، وهو يدير المفتاح في قفل الباب الأنيق، وينحني لي قبل دخولي.

دخلت المكتب الشاسع وأسندت ظهري إلى الباب، وسرَّحت نظري في أرجاء هذا العالم الغريب. واستقرَّت عيناي على يدي، فإذا هي حمراء، كأنَّها تقطِّر دمًا. خفت، واعترتني رغبة بكاء عاصفة، وانتزعت عينيّ فوراً عن يدي، ورميتها على ساقيّ، فإذا هما أيضًا تكادان أن تقطِّرا دمًا! رفعت عينيّ عنهما، ورحت أفتِّش في القاعة عن اللون الأحمر، فتعلَّقت عيناي بالسقف، وبجوانب الغرفة: تعلَّقتا بالأضواء الحمراء التي تنزّ دمًا!

هذه الأضواء مثيرة. الدفء في جوانب المكتب مثير. المقاعد الجلديَّة بأخشابها اللمَّاعة مثيرة. الزهور البيضاء، ووجودها في مؤسَّسة أعمال، وفي الشتاء مثيرة. وهذا الصوت الذي يرحِّب بقدومي، هو أيضًا مثير.

وخطرت في رأسي فكرة جنونيَّة، هي أن أعود. أعود. وتتابعت دقّات حروفها الأربعة في رأسي بانتظام: أعود.. أ.. عـ.. و.. د..

هل أعود؟

وسلخت نظري عن الأضواء، وحدَّقت في صدر القاعة، فإذا عيناي، كعيني الهرّ، تبرقان في هذا الجوّ الأحمر، الساخن، وتراقبان حركاتي.

أحسست باطمئنان حين وجدت العينين، لأنَّهما كانتا ساخرتين فشجَّعتني سخريتهما على استجماع وعيي، فزحفت زحفًا على السجّادة صوب رئيس المؤسَّسة.

واقتربت، اقتربت إلى أن لامس جسدي كلّه المنضدة الكبيرة، ومددت يدي أصافح «المقعد الجلديّ» ثم جلست.

أأنا مخطئة إذا دعوت هذا الرجل، المقعد الجلدي؟

تعوّدت ألاّ أعرّف الأشخاص بأسمائهم، لأنَّني أعتقد أنَّ أكثر الأسماء لا تنسجم مع نفسيَّات أصحابها، ولأنَّ الشخص الواحد أحيانًا يدلّ على فئة معيَّنة من الناس: فالبعض أطفال، والبعض هررة، أو ثعالب، أو خنازير، أو روائح، أو جمادات، أو آلهة.

أمّا هذا الرجل الذي يقف أمامي، فهو يكمِّل أثاث هذه القاعة الغريبة: إنَّه المقعد الحيّ فيها. وتتربَّع على هذا المقعد، كما استنتجت، دولتان هامّتان، تسيطران على سياسة العالم ـ أو بالأحرى تحاولان

السيطرة على هذه السياسة العالميَّة ـ من عندنا: من الشرق الأوسط، من قلب الدول العربيَّة.

وبدأ المقعد كلامه. فلم أتأثَّر بصوته الدافئ، بعد أن رأيت عينيه الساخرتين. قال:

«لا أستطيع أن أصدِّق، أنَّك أنت هي التي أعلن الحاجب عن قدومها. هل أنت لينا فيَّاض؟».

وصمت. ينقِّب في وجهي عن الحقيقة... ثم همس:

«والدك صديقي».

فكَّرت: «والدي صديق كلّ مستغلّ للحوادث السياسيَّة» وانفجرت بضحكة غيظ.

فعادت نظرات الحاجب تأخذ مكانها في عيني المقعد الجلدي البرَّاقتين. نظرات تهيّب. واستغراب. وإذا حركة تفيق في رأسه: حركة التلبية، والتصديق، والاحترام.

كففت عن الضحك، وتكلَّمت:

«اطّلعت على إعلانكم في النشرة الإخباريَّة اليوميَّة التي تصدرها مؤسَّستكم. ولمست في نفسي الكفاءة المطلوبة في الموظَّفة التي تحتاجون إليها».

نهض منتصبًا، يرتكز على جبينه الأيسر، وصاح:

«أنت! أنت ستعملين؟ أنت طفلة... لا، عفوًا، أعني أنت إبنة هذا الثري؟».

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

بأيّ مقياس يقيسني هذا الأحمق؟ أيعتبرني طفلة وأنا في التاسعة عشرة من عمري؟ ألا يحقّ لي أن أعمل، إذا كان والدي، لا أنا، يملك الملايين؟

أنا أحتقر والدي، وأحتقر ملايينه، وأحتقر هذا المقعد الذي لا تعجبه انطلاقتي!

ألا يعلم هذا أنّني لو خُيِّرت باختيار والدي، لما كان والدي هو والدي، ولا كان هذا المقعد القذر؟

هببت واقفة، ورددّت على مهل:

« جئت لأعمل هنا، لا ليؤخذ استجوابي. إذا كان هنالك مجال للعمل، فأرجوك أن تطلعني على تفاصيله وشروطه، وإلاّ ... ».

استوقفني بلين:

« تمهّلي ... تمهّلي ... عودي في التاسعة من صباح الغد، للشروع في عملك، وليس هناك شروط ».

بحركة لاشعوريّة، صافحته، وتركت البناية ركضاً.

وحين تهادت حبّات المطر على وجهي، وعاد الصقيع لينام في أطرافي، وعلى رأس الأنف، فركت عينيّ، وسرت تحت المطر...

كنت أتمخطر في سيري نشوى، كأنَّني في حقل مزهر تنام الشمس بين أعشابه ويغرِّد الطير على شجيراته. وكان كلّ من يراني يشكّ في أنّني مصابة بمرض عقلي. وكأنَّ المياه تتغلغلت إلى فكري،

فعطَّلته عن العمل. ورحت أتلفَّت حولي متفرِّجة على واجهات المخازن.

لم تقلقني غرابة مقابلتي للمقعد الجلديّ، ورهبتها. لم يقلقني رجوعي إلى البيت، أجل إلى البيت.

تربطني بالبيت حاجة واهية، تعيدني إليه دومًا، لآكل فيه وأنام وأشترك في بعض المناقشات، والمخاصمات، والمشاكل. الآن، وأنا بعيدة عنه في هذا الشارع الممطر، الضاجّ، أعجز عن تجسيم صورة له.

أنا هنا في الشارع، يتوزَّع انتباهي بين قارورة العطر في واجهة «عماطوري» وفساتين الجوخ في واجهة «أ. ب. ث»، وزمامير السيّارات المزدحمة عند الكوع، وحركات شرطي السير العصبيَّة، الماهرة، وقدمي الرجل المرفوعتين على كرسي، في معمل «نيويورك» للأحذية، يلمّع له رجل أشيب حذائيه الموحلين...

أذكر هنا، في الشارع، أنَّني أسكن في عمارة عملاقة، فخمة، صفراء، تربض على شاطئ هادئ من شواطئ بيروت... ثم،

ثم انجرف وعيي يراقب زخّات المطر التي داهمت الذين أقفلوا مظلاّتهم، فغمرتني لذّة ساخنة. وتلهَّيت حينًا بخطواتي، فضيّقتها، ثمَّ تسربَّت اللَّذّة الساخنة إلى رأسي تداعبه، وتنزرع في أنحائه نمنمة ملتهبة، لتبعده أخيراً عن الضجيج، وتدفنه، تحت الغطاء الصوفي الأزرق الناعم في البيت.

•

في خاطري من البيت نتف صور مبعثرة، ترهقني، تشدّني إليه وتبعدني عنه في آن واحد.

تزداد حاجتي إلى البيت في الليالي العاصفة، فأغلق شبابيكه، وأسدل الستائر، واحتمي في الفراش مغمضة الأجفان، أسدّ أذنيّ بأصابعي... أقتل خوفي من الرعد الزاعق، والعتمة الرهيبة، والهمسات الغامضة، الخطيرة، تحت الأثاث!

المطر ينهمر، والبرد يقسو، وأنا عمود رمادي يتنقل بإعياء على الرصيف، يعيق اندفاع المارة إلى مدخل البنايات... فراحوا يزيحونني بضجر عن طريقهم. تمتمت:

إنَهم يخافون المطر في النهار. وأنا أخافه في الليل. وهذا الخوف يشلّني! هم يخافون أن تتوسَّخ ثيابهم بالأوحال وتتلفَ بالمياه، وأنا أخاف الرعد، والرياح، والظلمة، والبرق!

أسرعت إلى بوّابة صغيرة، في الجانب الخلفيّ لمطعم «طانيوس» ووقفت مع رجلين وامرأة، ننتظر انحجاب المطر.

رميت نظرة متفحِّصة على كلّ من الرجلين والمرأة، فإذا أنا لا أعرفهم. انحنيت على الحائط بارتياح، وفتحت حقيبة يدي وانتشلت منديلي أمسح عن قدميّ الوحل. فأسرع أحد الرجلين وتلقّاني بذراعه، فاستقمت شامخة الرأس، استجوبته بنظرة غضبي... فاحمرَّت أذناه، واعتذر بالفرنسيَّة، ومدَّ رأسه إلى خارج البوَّابة، يتفقَّد حالة الطقس. وغرقت المرأة والرجل الآخر بهمهمة حلوة، تمنَّيت حين لفحت سمعي

وارهبه، لو كان بجانبي رجل أستلطفه، فأقضي بقربه على خوفي من ليالي الشتاء بأكثر من همهمة حلوة!

تمنّيت، وأنا أستعرض مشهداً دنيئًا لوالدي، كان يتلصّص فيه على جارتنا المترهِّلة، الساكنة في بناية تطلّ شبابيكها على شبابيكنا:

كنّا في بداية صيف هذه السنة، حين أرّقني ألم عنيف، في ضرسي المنخور. فتقلّبت في فراشي تتجاذبني سكينة إغفاءة، وقرقعة أطلقها الضرس اللعين في رأسي. رفعت المخدّة، وخبّأت الرأس تحتها، فكدت أختنق. تربّعت على السرير فكاد رأسي ينفجر، كلّ قطعة منه على جدار... فهبطت على أرض الغرفة وانتشلت قطعة قماش كانت مطروحة على المقعد ولففت بها رأسي... ثمّ فتحت شدقيّ لأطلق ضحكة هازئة وأنا أرسم وجهًا مستنكرًا لأختي الكبرى، وهي تلمح تنّورتها الجديدة، تلتفّ حول ذقني ورأسي. آخ! لمع الضرس، فأطبقت شدقيّ وهرولت إلى غرفة الطعام لأبتلع قرص «الأسبرو»، فلمحت خيالاً على الشرفة.

إنّه والدي، بكلسونه وقميصه «البروتيل»، القطنيّين، مصلوب على الجدار، يرسل من فمه الدخان بعصبيّة، وقد برزت كرشه ونحفت ساقاه، فإذا هو كبقايا إنسان، سوّدت إحدى الحرائق هيكله وتركت ثيابه بيضاء تلمع.

تمهّلت في ركضي، أزحف على أصابع قدميّ حتى لا أعكّر على والدي جلسة حالمة في الظلام، غارقة في نسيم البحر الغافي تحت أقدام

الصخور.. لكنَّني مططتُ رقبتي، والألم يتمدَّد، يتمدَّد، متشعِّبًا فيها، فضرب عيني نور يهرب من نافذة البناية المجاورة.

تراجعت، وكدت أرتطم بالطاولة الرابضة في وسط الغرفة، لو لم أتدارك وأتشبَّث بكرسي أبعد عن صفّ الكراسي، وحبست أنفاسي براحتي، وأغمضت عينيّ لحظة. وفي اللّحظات التالية شاهدت امرأة غارقة في نور غرفتها، تنزع ببطء الثياب عن جسدها قطعة، قطعة. تنزعها باطمئنان، وهدوء، وحرّيّة كاملة، كأنَّها واثقة من أنَّ الجيران نيام في هذه الساعة المتأخِّرة من الليل. أو كأنَّها مؤمنة بأنَّ والدي ينتظرها، ليبتلعها بعينيه!

كدت أذوب خجلاً. أهذه صدفة؟ أو هو ميعاد مدروس بين هذه المترهّلة، والوالد؟

جمدت، فجمد الألم في حنكي الأيسر، وتسلَّلت إلى فراشي تتداعى أمامي تماثيل احترام وتقدير وخوف لوالدي، كانت تجثم على عينيّ!

علّمنا أن نحفظ فضله علينا، لأنَّه هو سبب وجودنا. هو سبب رفاهيَّتنا. هو مشيّد صروح مستقبلنا.

لو يعلم أنَّه يثير سخريتي، وأنَّ أمّي تنتزع منِّي الشفقة عليها، والاشمئزاز منها!

المطر ينهمر، وينهمر، فملّ الرجل الوحيد مثلي الانتظار، وضرب العتبة برأس حذائه، وقلب ياقة معطفه وقذف بنفسه في الشارع وضاع

بين الأرجل الهاربة على الأرصفة... والتصقت المرأة بالرجل الآخر، وكفّ عن الهمس لتناجيه بعينيها الفتّانتين. وامتصصت أنا شفتيّ بعصبية أهدهد رجفة حيرة فيهما:

أنا كائن تافه، تافه، ملفوظ على هذه الطرقات. أنا كائن تافه... تافه...

وارتميت تحت الرذاذ من جديد، وخطر لي أن أعدّ النساء في الشارع:

واحدة. ثلاث. أربع. ستّ. تسع. وأنا، عشر نساء.

لكن، لا!

لا يحقّ لي جمع نفسي مع بقيّة النساء، فأنا واحدة من عشر، من مئة، من مليون. أمّا أن أكون واحدة مع عشر، مع مئة، مع... فهذا خطأ أرتكبه. ومع أنّ شعور التفاهة يقبع في خاطري، فقد بدّدته أمّي على باب بيتنا مؤنِّبة:

«أين كنت تسرحين كالبزّاقة على الطرقات؟ أين أفنيت كلّ ساعات قبل الظهر؟».

فكّرت، وصمت شفقتي عليها يغلّفني:

بل أين سأفني كلّ ساعات حياتي؟

وكانت هي تعصف في تهديدها:

«احذري! إذا كنت مصمِّمة على الإفلات، والمشاكسة، فسأتركك لوالدك، يرغمك هو على تنفيذ واجباتك!».

ضحكتُ.

هي جبانة. لماذا لا تجرؤ على الوقوف في طريق غاياتها؟ ألأنّها تتحسَّس طغيان قدرة الشخص الواحد، حين يبدأ يتذوَّق قمة فرديّته وحريَّتها؟

أغضبتها ضحكتي، فازداد صراخها قساوة، لإرهابي:

«ألا يهمّك والدك، قولي إنَّك لا تخافينه... هيا، قولي!».

واقتربت منّي، فابتعدت حانقة. ثم لمست الحائط البارد، وضحكتُ بحشرجة:

لماذا تتدخَّل هذه بأموري؟ لماذا يجب أن أرتعد خوفًا منها ومن والدي؟ لماذا لا تهتمّ بمشاكلها، فتمضي الليل حذرة، ساهرة، تحافظ على زوجها بقربها بدل أن تستسلم للنوم، فيغافلها هو ليسلب في الظلام موعدًا... للقاء في سرير وفي عمق بياض النهار!

أمرتني:

«كفِّي عن الضحك!».

فكّرت:

ذنبها أنَّها نحيلة، وزوجها يشتهي النساء المترهّلات! لماذا لا تعتني بصحّتها؟ لماذا لا تحشو جسدها بمآكل الأرض، لتحارب الأرملة المنافسة؟ وضحكتُ...

فلمست كتفي تهزّني بعنف، وإذا يدها تغوص في بركة المياه الغائرة في ثيابي. عندها غمغمت، يهزمها حنوّ الأمومة فيها:

« أسرعي، وانزعي هذه الثياب المبلّلة عن جسدك! أسرعي . . . »

فاغتنمت فرصة ضعفها أستفهمها:

« هل تسلَفينني خمسين ليرة، أعيدها لك آخر الشهر؟ »

يبست مكانها. وثقلت يدها على كتفي، تنوي تحطيمه، ولم تجب، إنَّما دفعتني بسخرية إلى غرفتي، وهربت . . . لتتلقَّاني نظرات واسعة تطلقها أختي الكبرى من خلال زجاج نظّارتيها. وتتبعها نظرات برَّاقة، تسلِّطها على وجهي فقط، أختي الشقراء الصغرى. أما بسَّام الصغير، المدلَّل، فكان يتلهَّى ببندقيَّة حمراء جديدة.

قفزت الشقراء عن الكرسي، وزقزقت تحاول انتشالي عن الباب:

« ستتحقَّق كلّ أحلامنا. هيّا اذكري فقط أسماء ما تنوين شراءه من ثياب لهذا الشتاء. الأسماء فقط ».

ومدَّت يدها في الفضاء بحركة تمثيليَّة، وأحنت رأسها مرَّات عديدة، تتصنَّع ضجراً في انتظار تساقط الكلمات من بين شفتيّ. وأسرعت السمراء تفسِّر:

« سنرفع اللائحة بمشترياتنا إلى الوالد الغنيّ، السخيّ، العطوف ».

وتبادلنا نظرة ماكرة. فكّرت، وعبارات هذه الأخت الكبرى ترتدّ عن أذني، كأنَّها آتية من جوف علبة زجاجيَّة مغلقة:

هذه شقراء، وتلك سمراء. هذه البنت الصغرى، وتلك البنت الكبرى. هدف الشقراء أن تتزوَّج، وهمّ السمراء أن تجمع أكبر عدد ممكن من الشهادات.

وأنا لست سمراء، ولست شقراء. لا يهمّني كلّ الرجال. ولا تغريني أيّة درجة ثقافيّة. وعبثًا أنقّب في نفسي عن صلة بهؤلاء الأشخاص. فأنا اعتدت وجودهم حولي، أحتكّ بهم ولا أحسّهم. أنظر إليهم ولا أراهم. إنّهم عندي تمامًا كالأشجار، والأنهار، والنجوم، والحجارة. أشياء لا تناقش، لأنّها من صنع غيرنا، ولأنّها معدومة الحركة لن تؤثّر على الخفقان المتجدّد فينا.

نبّهني صوت الصغرى يلحّ بميوعة:

«انطقي الأسماء... الأسماء... الأسماء... فقط».

أخرستها بشدّة:

«لن أحتاج إلى كيس الوالد هذه السنة، ورعايته، وكرمه. حصلت على وظيفة».

فصرختا معًا:

«كيف؟ أين؟ ماذا؟».

وخيّل إليّ أنّ الزجاج يذوب، ويذوب على عيني الأخت الكبرى، وأنّ في عيني الصغرى رجالاً أقزامًا، حاصرتهم العين وهم في مكاتبهم يدخّنون، ويصفّرون، ويغازلون. وانقضّت الشقراء عليّ تتحسّس كتفي وعنقي بأصابعها الجامدة، كأنّني استحلت كائنًا خطيرًا، مزاحمًا لها. فدفعتها بعيدًا، أزمجر:

«سأقطع يدك إن لمست عنقي مرّة أخرى!».

فأخرجت لي لسانها، وهربت. وسألتني الكبرى، بوجل:

«هل جننت؟ كيف ستعملين...؟».

قاطعتها:

«اهتمّي بشؤونك!».

فلملمت هيكلها الدقيق، وركّزت النظّارتين على أنفها تنوي الانسحاب، فاستوقفتها أوشوشها عند الباب:

«أعطيني خمسين ليرة، أعيدها إليك آخر الشهر».

فضحكت بحزن:

«سأقرضك الخمسين ليرة».

ـ ٢ ـ

تعمَّدت وصولي في التاسعة والنصف إلى المؤسّسة. فأدخلني الرئيس صالونًا صغيراً فُرش على الطراز الأميركيّ. وبعد أن جلست، جلس هو على مقعد أحمر وبدأ كلامه:

«أنت جريئة. أنت شابَّة. أنت مثقَّفة. سأعهد إليك بمهمَّة بسيطة» وصمت.

رحت أمضغ كلماته في فكري:

جريئة. شابَّة. مثقَّفة. جريئة...

وخطر لي أن أمدّ، أنا أيضًا، رجلي على مقعد آخر، كالرئيس. لكنَّني لم أتحرَّك. وكانت أمامي قدّاحة غريبة الشكل تلهّيت بإشعالها، وإطفائها... فنبَّهني صوته:

«سيجارة؟».

ومدّ يده بعلبة معدنيَّة كانت مركَّزة قرب القدَّاحة. فارتبكت وأنا أجيب:

«لا. شكرًا... شكرًا».

وفكَّرت:

أعتقد أنَّه لا يدخِّن، فهو لا يحمل في جيبه علبة سجاير.

وقف فجأة، فوقفت. وأشار إلى الباب ضاحكًا: تفضَّلي. فتبعته. اخترق مكتبه إلى مكتب صغير أنيق. وانتصب على العتبة يغمر بكفِّه الشاسعة قبضة الباب الناعمة، وقال:

«هذا مكتبك. ألا يعجبك؟ سأطلبك بنفسي متى احتجت إلى خدمة. لا داعي لانزعاجك».

وأقفل الباب خلفه، ورماني بين أثاث هذه الغرفة الضيِّقة.

لم أفهم حرفًا واحدًا ممّا قاله. ولم أتحرَّك حين سمَّرت نظري على خشب الباب اللمَّاع. ثم بحذر، بحذر، انتزعت انتباهي عن الباب وألقيته على الحائط الحشيشي، فغاصت عيناي في عينيْ قرد فتّان على الروزنامة. تبسَّمت، إذ منحتني صورة هذا المخلوق إيناسًا في رهبة سكون هذه الغرفة. وجرجرت قدميّ أقترب من الصورة، ومددت أصابعي ألمسه براحتيّ. ودبّت حثيثًا في جسدي شجاعة على الحركة فالتفتُّ أتفحَّص الأشياء حولي: المقعدين الأخضرين، ولوح البلّور النائم على المنضدة، والمكتبة الصغيرة القاحلة، والشبّاك الذي بلع الجدار كلّه من الزاوية إلى الزاوية. عندها، تلاشى شعوري بالغربة والارتباك.

فالحياة تجري هنا في الاتّجاه الذي تجري فيه عندنا.

أوَليس والدي صديق الرئيس؟

صورة القرد الفتّان وحدها علقت في رأسي بعد يومي الأوّل في المؤسَّسة. وفيما والدي يتجبَّر على كرسيّه، وأنا أنتصب على قدميّ مهزومة في حضرته، راضخة، مشلولة، يستجوبني:

«ألا تعترفين بي مرجعًا أوحد لكلّ خطوة تنفّذينها أنت وإخوتك؟ ثمَّ من أذن لك بالتفتيش عن وظيفة؟».

هبَّت رواسب خوفي منه تقطَع الكلمات في حلقي. وكبرت في حذائي شهوة طاغية لمرمغة أنفه، وسحقه.

ولكنَّني لبثت ذليلة أمامه، أودّ لو أشعل أذنه ببغضي له واحتقاري واستخفافي. أودّ لو أرميه من الشرفة إلى غرفة الجارة المترهِّلة، ليتعرَّى هو، ويمزِّق لها ثيابها، ولأقهقه أنا قاذفة في وجهه معرفتي لحقيقته، فأطفئ بوهجها عينيه!

وصرخ ينبِّهني:

«ألم تسجّلي اسمك في الجامعة الأميركيَّة؟ ألم أسدِّد قسطك؟».

أنعشتني فكرة الكذب عليه، فشرحت بهدوء:

«التقيت صدفة برئيس المؤسَّسة في نادي النسور، فعرفني لأوّل وهلة أنَّني ابنة صديق حميم له. وأبدى إعجابه بتفكيري العميق، وشخصيَّتي المتينة. واقترح أن أنزل إلى المجتمع أعرّفه على قيمتنا ومواهبنا!».

نجحت،

فقد تبدَّد اللون الأصفر عن رأس أنفه الدقيق، واتَّسعت حدقتا «...»، وقطَّب جبينه يخمِّن اسم هذا الصديق.

فتجاهلت فضوله، وتماديت في إثارة اهتمامه:

«وما لاحظ الأستاذ سعيد بدر تردُّدي، حتى صفّق بيديه، متأسِّفًا: أريدك كوالدك مندفعة. لماذا أنت متخاذلة؟ أنا مؤمن بأنَّ والدك ينتظر منك التفوُّق في عملك هذا. لا، لن يعارض... يعارض».

أحدثت كلمة «يعارض» نزاعا في نفسه. فتبسَّم باعتزاز، يبدي:

«أوه، سعيد، إنَّه دائمًا هكذا: متحمِّس أهوج. لكنَّه صديق وفيّ، قضيت معه ساعات عصيبة في إيران. ألمانيا. شمال أفريقيا...».

ماذا أصابه؟

ولاحت على عينيه غلالة حزن دفين، وهول قاسٍ، فشرح:

كنت أنجز صفقة تجاريَّة، وكان هو في إجازة...».

والدي، مثلي، يكذب: أيعتقد أنَّني لا أعرف ماضيه؟ وأنَّني غير قادرة على استنتاج ماضي رئيس المؤسَّسة من صداقته له؟

وانتشلنا ظهور والدتي على الباب من بحر الكذب الذي غرقت فيه، ودفعته إليه.

مسكينة أمّي، إنَّها تثير استهزائي بضحكتها المتقطِّعة، وتثير خيال المرأة المترهّلة في حدقتي الوالد، لكنّ وقع ضحكتي العنيفة هذه ساعد على شلّ تصلّب الوالد المتحكّم، فصرفني مؤنّبًا:

«إذا كنت ستصرّين على العمل، فأنا أنبّهك إلى أنّني لست هيّنًا، مغفّلاً. إنّني لست أعمى».

فكّرت:

الناس عنده صفقات تجاريّة لا يخسرها أبدًا... وهزّني نقمةً شهيقُ أمّي وهي تدنو لتغرز أصابع يدها اليمنى في شعري المشذّب:

«متى؟ متى قصصت شعرك الجميل؟ لماذا مسخت هيئتك الرقيقة البريئة كرأس صبيّ شرس؟ ألا يكفيني عناد الغلمان من إخوتك؟».

لم أرفع نظري عن شفتيها، تدفع من بينهما تأنيبًا شعريًّا، مؤثّرًا. فهي تندب خصلات ناعمة أتاحت لها أن تترعرع وتنمو وتتهدّل على كتفيّ. فسهرت على نظافتها، وتفنّنت في تسريحها وغنّت لها حكايات، ساذجة، حفظتها: شعر لينا أضواء نجوم. شعر لينا يفوح بأريجه، كالياسمين الأبيض المرشوش على أغصان شجرتنا الممدّدة على سور الحديقة. شعر لينا أروع شعر بين الصغار.

كانت عنايتها بشعري تلقّنني فنّ الغرور والتعجرف، فأصبحت صفة الكبرياء تلاحقني أينما توجّهت. وكان أن ازدادت سيطرتها عليّ.

ومنذ أشهر، وفي حفلة تخرُّجي من الكلية، انسكب في سمعي حوار بين شابّين:

«من هي ذات الشعر الرقراق، المشتَّت على كتفيها؟».

«إحدى زميلات أختي، يجب أن تكون إحدى زميلاتها».

«أتوسَّل إليك أن تقدِّمني إليها، فشعرها مدهش. مدهش». عندها، انسحبت من الحفلة، أصمِّم على التخلُّص من حواجز تخنق قيمتي الإنسانيَّة. وصمَّمت أيضًا على سحق إرادة والدتي التي تتلهَّى بنحتي صنمًا يسبِّح لها.

وأرسلت اليوم إرادة الوالدة وسيطرتها، مع إعجاب الشابّ ودهشته، إلى سلَة زبالة، إلى البحر، إلى قعر البحر، إلى الشيطان.

ولم أجرؤ على الالتفات ومواجهة استنكار الوالد المصرّ على الصمت. فما زلت أخافه، وأنا أصارع عنيدة لاستكمال قدرتي على مواجهة العالم كلَه.

ثم تلاطمت حولي تهديدات الوالد، وتكدَّست عند قدميّ حين نجحت في ردّها عن مسمعي:

«يا بنت، رأي من استشرت؟».

فكّرت:

هذه تهديدات بالية. لو أوجدا فقط أسلوبًا جديدًا للتوبيخ لأعجبت بهما، وتسلَّيت بسماعه.

•

واندفع الوالد على الفور يبتدع عقاباً مستحبًّا:

«ابتعدي. اغربي عن وجهي. لا تدعيني أراك قبل أن يطول شعرك...».

والدي أحمق.

كان عليه أن يتلمَّس سأمي من رؤيته كلّ يوم... كلّ يوم... وكان عليه أن يعذّبني بإجباري على مصاحبته من بزوغ الشمس إلى منتصف الليل.

ملأت حلقي بابتسامة فرحة، أخفيتها وراء شفتيّ المنكمشتين. واستدرت لأبتعد. أحسست بلسع نظراتها المتوعِّدة على رقبتي، فحككت رقبتي بأصابعي. ورماني سعال الوالد في ماضيه:

شبَّ في أسرة متوسّطة الحال. ومع أنَّ هواية والده الوحيدة كانت الإنجاب، فقد اشترى قطعة أرض قام عليها بيت قديم، وفتح دكّاناً لبيع الخردوات في سوق أبو النصر.

ويكتفي والدي بهذا التفصيل السطحي عن أسرته، في حديثه عن ماضيه، ليمسي هو بعد ذلك المحور الأهمّ في تشييد أمجاده وأمجادنا.

تنازل عن حقّه في استكمال دراسته، ليعاون والده في تصريف البضاعة المكدَّسة في زوايا الدكّان، بينما هذا الوالد البسيط يمجّ التنباك طوال النهار عن رأس نارجيلته. وأكبّ على العمل لا يكلّ، كدولاب الطاحون، ليزداد، بعد كلّ مساء، رأس مال الأسرة في الأدراج.

وتوفّي الوالد، وأصرّ هو أن ينجز أخوه دراسة الطبّ في المعهد العلمي الفرنسيّ، وأن يستقلّ أخوه الآخر بمحلّ له وحده وقد جهّز أخواته، وزوّجهنّ.

وتزوّج هو . . .

واشتعلت الأرض بنيران الحرب العالميَّة الثانية، فإذا الحياة تتبدّل وتنطلق بسرعة جنونيَّة، وإذا نحن أثرياء: نحن أغنياء حرب.

هل هو الحظّ، أو الصداقة، أو تدبير من اللَّه . . أو . . أو . . يقظة والدي، هي التي رفعتنا إلى مرتبة وجهاء المدينة؟ إنَّهم يطلقون على أسرتنا تعبير «من كرام وجوه البلد». بضعة أكياس خيش من القمح كان يطرحها والدي في الزاوية قبل الحرب، منحتنا أسهمًا عديدة في أكثر الشركات، وأبدلت البيت القديم بشارع تربض على جانبيه بنايات فخمة، وهي ملك لنا.

كان كيلو الطحين بقروش قليلة، قبل الحرب.

وإذا كيلو الطحين الصافي بأكثر من ليرة بعد الحرب.

فإذا نحن بومضة عين، كما يحدث في الأساطير، أثرياء.

بكلّ وقاحة: يتباهى والدي بجهاده في جمع الثروة، وبصداقته للفرنسيِّين في عهد الانتداب. كأنَّ هذه النعمة التي يضيع فيها ليست من حرمان ألوف الأسر التي أطعمها الفرنسيُّون طحين الترمس والشعير والذرة البيضاء، على شكل إعاشات.

ـ ٣ ـ

تلهّيت في المؤسَّسة، طيلة الأسبوع الأوّل، بالتفرُّج على الغرفة الحشيشيّة اللمّاعة الصغيرة، فتمرّنت ساعات على اتِّخاذ جلسة مناسبة على الكرسيّ المتحرِّك. وأفرغت الأوراق الباهتة التي كانت تحشو أدراج المكتب، وأطعمتها لسلّة المهملات المعدنيَّة، المتخفِّية في الزاوية. ونفخت، بفمي، الغبار المتكدِّس على مجلدات كتب تاريخيَّة قيِّمة، كانت مطروحة بإهمال في المكتبة.

ولم أجد مجالاً للتفكير بهذه الوظيفة العجيبة.

واليوم، وبعد أن ألقيت نظرة فاحصة أنقِّب عن عمل إصلاحي في الغرفة، وبعد أن تأكَّدت من أنَّني لم أكلَف بعد أيَّة مهمَّة جدِّيَّة، فتحت الباب واندفعت إلى البهو الضيِّق، فاستجوبني الحاجب بعينيه الوقحتين، وتبسَّم... فعبست، وأزحت ستاراً كان يتهدَّل على أحد المداخل، في الجهة اليسرى، ودخلت... فإذا أنا في ممرّ واسع مضاء.

ا ، مت فوراً، فإذا الابتسامة تتفجَّر ضحكة سخرية على فم الحاجب: «... الجهة خاصّة بالمراحيض».

تصنَّعت عدم المبالاة، والغيظ يدير رأسي، وفتحت بابًا يلي الممتار، ودخلت.

ترى، ألم أحدث صوتًا؟ أكان ينتظر من في الغرفة قدومي؟ الموات هؤلاء؟

تقدَّمت،

فلم ترفع الفتاتان رأسيهما عن الأوراق، ولم يتوقَّف قلم الحبر عن الجري بل لم يخفِّف سرعته على الأقلّ. فحيَّرني تصرُّفهما. واقتربت من الفتاة النحيلة، وحدَّقت في وجهها فإذا جفناها ترتعشان. وتحرَّكت شفتاها آليًّا بتحيّة سريعة، وتابعت الكتابة...

أهي تخافني؟ وهل أنا أخيف الناس؟

ويحها. على كلّ، سألاطفها. سألتها:

«ما هي وظيفتك هنا؟».

أجابت بصوت رزين، عميق:

«أنا المشرفة على الأعمال التحريريَّة في المؤسَّسة، وهذه معاونتي».

التفتُّ لأشاهد «هذه»...

هذه، قالتها دون أن تحوّل نظرها عن الورقة، دون أن يخفّف القلم أيضًا من سرعته، دون أن تتحرّك يدها الأخرى المرتمية على الخشب.

هذه، أحسن اسم يلائم الفتاة الثانية. هذه، مثل هاتيك، وتلك، وأولئك... مثل معظم الفتيات اللواتي تصادفهنّ في كلّ مكان.

هذه، فتاة عاديّة تافهة، لا يميّزها عن غيرها من الفتيات إلاّ استخدامها في المؤسّسة.

تركتهما ودخلت المكتب المجاور، فإذا فيه أربعة رجال:

كان أحدهما يقف وسط الغرفة، تحت الضوء، يقرأ جريدة الصباح. فمددت رأسي لأنقّب عن نظّارتيه، فإذا عيناه سليمتان فتّانتان، تحوّلتا عن السطور وتبسّمتا لي، كأنّهما تعرفانني وكأنّني شيء عادي في هذه الغرفة المستطيلة، كبقيّة الأشياء!

وإذا الرجل الثاني، معلّقًا بحديث تلفوني، يغمغم:

«نعم. لا. سأسأله. هكذا قال الرئيس.. نعم.. لا.. إنّه أمر..».

ووضع السمّاعة بهدوء، وفتح درجًا وسحب منه أوراقًا أطال التحديق في حروفها.

والثالث منهمك بنسخ نشرة إخباريّة أجنبيّة مسجّلة على شريط خاصّ.

أمّا الرابع فكان يعرب النشرة.

لبثت حوالى نصف ساعة، مسندة ظهري إلى الحائط أبحلق فيهم، فلم تتوقّف أدوات أجسامهم عن الحركة والسعي.

كانوا يبرحون الغرفة، ويعودون إليها. يشعلون سجايرهم ويمتصّونها بصمت، ثمّ يعصرونها في المنفضة. ولما طلب أحدهم «سندوتش» استبشرت خيراً... ومرّت دقائق بطيئة وإذا بصبيّ في العاشرة من عمره يرتدي مريولاً يخترق الغرفة كالسهم ويصطدم بي ولا يعتذر. ولم يرتمِ الرغيف الإفرنجيّ من يده... رمى الصبيّ الرغيف في زاوية المكتب، وارتدّ مسرعًا كما دخل. وقضم الرجل طرف الرغيف دون أن يرفع نظره عن السطور، دون أن يرى بماذا حشوا له الخبز.

صارعتني أفكار عنيفة متباينة قبل أن أغادر المكان:

ففي المدّة القصيرة اللامتنامية التي قضيتها في المكتب مع هذه الأدوات، خُيِّل إليّ أنّني تجمّدت!

وقبل أن أترك المكان حرّكت أصابع يديّ، فتحرّكت. حرّكت رأسي، فإذا هو ثقيل. حرّكت رجليّ، فإذا هما مسمّرتان في البلاط.

وعدت مرّة ثالثة، ورابعة إلى تحريك يديّ، ثمّ رأسي، ثمّ رجليّ.. إلى أن تمكّنت أخيراً من مغادرة المكان إلى مكتبي.

ألا يكفي ما رأيته، لأعرف مع من أعمل؟

يكفي أن أراقب هؤلاء. يكفيني أن أراقبهم لأتوصّل إلى استنتاج فكرة عن نوع العمل، عن الأجرة، عن الدوام، عن السلوك... فصمّمت ألا أتعب نفسي بالاحتكاك بسائر الموظّفين في المؤسّسة.

عن الكرسيّ المتحرِّك تسرَّب الخوف إلى عينيّ، تسرَّب إليهما من الشبّاك، من المكتبة الصغيرة، من المقعدين الأخضرين. أنا خائفة!

أسدلت الستائر. أحكمت إغلاق الباب بالمفتاح. زرّرت معطفي.

عبثًا، لا زلت خائفة! هذا السكون يخيفني، هذه الأدوات الإنسانيَّة التي تعمل بصمت وبسرعة، تخيفني!

نهضت عن الكرسيّ ووقفت أمامه، وضربته بقدمي فارتطم بالحائط وانطرح على الأرض فاقداً رجله بعد أن كسر زجاج المكتبة الصغيرة الوديعة القابعة في الزاوية،

فتبدَّد خوفي.

وضحكت منتصرة أحبس أنفاسي بكفّي. هيا. ليدخل أحدهم مستطلعًا، منقذاً. وانتظرت. لكنَّ الباب ظلَّ مقفلاً. وعاد السكون من جديد، يخيفني!

لتنصبّ اللعنة عليهم! فهل أصيبوا بالطرش؟

أنا أرتعش!

كان عليّ، لأستأصل الرعشة من جسدي، أن أقابل إنسانًا، أيّ إنسان، أحارب بهدوئه خوفي: سأرى الرئيس. يجب أن أراه. يجب. يجب.

بادرني الرئيس مبتسماً بفتور: «ألا زلت هنا؟».

فكَّرت:

ماذا؟ عليه أن يستفسرني عمّا حدث في غرفتي منذ حين، ولا يفصل مكتبي عن مكتبه إلاّ باب واحد؟ ألا زلت هنا! ألا زلت هنا، كأنَّ وجودي في المؤسَّسة لا يعني أكثر من تصلُّبي على الكرسيّ المتحرِّك، أو عدم تصلُّبي على الكرسيّ المتحرِّك.

تصنَّعت مثله ابتسامة، وقلت بوضوح واتّزان وبساطة:

«أنوي دخول الجامعة. جئتك أطلب وقتاً كافياً. ممكن؟».

فقاطعني ساخراً:

«ألا تعرفين أنَّ الجامعة باشرت إعطاء دروسها منذ أكثر من شهر ونصف الشهر؟».

هذا الغبي! لا يدري أنَّ والدي هو الذي سجَّل اسمي، وهو الذي دفع القسط، وأنَّ غايتي من دخول الجامعة هي إضاعة ساعات غزيرة... غزيرة... غزيرة...

في سكوتي سألني:

«هل أنت متأكِّدة من ضرورة التحصيل الجامعي لخلق الشخصيَّة المثلى؟».

إنَّه محقّ، لماذا سأتمّم تحصيلي الجامعيّ؟

نسيت، في غمرة انهماكي بالوظيفة، أنَّني مرتبطة بالجامعة، وأنَّني مسؤولة عن تغيُّبي المستمرّ عن المحاضرات!

سأكون من أوائل الناجحين، أليس كذلك؟

عضضت شفتي السفلى أقطع ابتسامة تفجَّرت فيها، فسألني الرئيس رزينًا:

«هل تثقين بي؟».

تساءلت: ما معنى الثقة؟ ثقة. محبّة. صداقة... هذه الكلمات حروف فارغة.

وبدا على وجه الرئيس اهتمامه الصادق بي، فجازف متطوِّعًا يعلّمني أصول الثقة والمحبَّة والصداقة... قال بلين:

«أنا، وبكلّ تواضع، أعترف لك: لم أكمل دراستي الجامعيَّة حتى ولا العالية، ومع هذا نجحت في الحياة وذلّلت صعابًا سوداء كانت تبدو لغيري مستحيلة التذليل. اسألي والدك، فهو يخبرك كيف كنت وحيداً مناضلاً عصاميًّا...».

هززت رأسي ضيقًا، وحاولت أن أبدو لطيفة، وأنا أجيبه:

«أمّا أنا فأترفَّع عن الاستعانة بمثل أعلى، أجبل حياتي داخل الإطار الذي صيغت فيه حياته...».

فخفَّف قساوة إجابتي بضحكة صاخبة، وقاطعني قائلاً:

«لا بأس. لا بأس. هذه أفكار صبيانيَّة. تنقصك الخبرة. سجِّلي مواعيد غيابك عن المؤسَّسة، وارفعيها لي غداً. مع السلامة..».

أنا مدينة لهذه السلامة بوصولي إلى الجامعة، إذ كانت تدفعني إلى الجامعة قوَّة سحريَّة لاواعية. وتلاشت من رأسي كلّ صورة وكلّ

فكرة وكلّ حركة. ولم يعد يتحرّك في جسدي إلا يدي اليمنى تضغط على دفتر هزيل وقلم حبر.

قفزت من الترام واجتزت البوّابة الحديديّة الشاسعة، ومشيت معتزّة، نشوى، أعبّ في صدري هواء باردا، يطير لتوّه عن رؤوس الأشجار المحتفظة بخضرتها.

وفجأة نبّهني صوت ناعم:

«هذه كلّيّة الهندسة، بناية كلّيّة الآداب والعلوم في منتصف الطريق الأسفل. أجل، من هنا..».

وقفت متعجّبة، فأشارت بيدها تحدّد لي موقع البناية، مرحّبة مستبشرة. فاندفعت أركض..

أظنّها تمهّلت تتبعني بنظرات مستغربة ساخطة: فأنا لم أشكرها ولم أهزّ لها برأسي ممتنّة، ولم أبادلها ابتسامتها المطمئنّة. كان عليّ أن أشكرها... لكنّني كيف أشكرها وأنا متأخّرة عن موعد المحاضرة الأولى في الأدب الإنكليزيّ، وكلمة شكرًا ممزوجة بابتسامة ثقيلة، مذيّلة بنظرة فاحصة، تتطلّب منّي وقتا ثمينا، فلهذا لم أشكرها.

وعلى مدخل البناية،

خطر لي أن أسجد على العتبة، الساكنة، الفوّاحة بروائح الكتب والمقاعد والأقلام والجفاف. وجررت قدميّ متهيّبة. ثمّ تسمّرت، أتلفّت خلفي، أفتّش عن عين تتفحّصني فإذا حولي أبواب مغلقة، لمّاعة، صامتة، يعكّر صفاءها وقع أقدام تقترب ثمّ تبتعد. ولمست قبضة باب

معدنيَّة باردة، ثمَّ أدرتها، فانفرج الباب عن قاعة تعجّ بالرؤوس المتحرِّكة.

هنيهات خاطفة، أبدتها على العتبة، والأستاذ يتجاهل ظهوري وأنا أعكِّر انتباه الطلاّب، وأحوِّل مجرى انسياب أفكاره. ثمَّ نقلت قدميّ بحذر، لأحتلّ مقعداً فارغًا في مؤخّرة صفوف المقاعد.

لا أسمع صوت الأستاذ. إنَّني أراه فقط. أرى حركة شفتيه، ويده النحيلة المحلَّقة في فضاء هذه العلبة المضاءة، والتاريخ المبهم على اللّوح، ورؤوس الزملاء.

أكاد أختنق!

لماذا أقفلوا شبابيك هذه العلبة المصبوغة جوانبها بالكلس الأبيض؟ هل يعتقد عميد الجامعة أنّ في كلام الأستاذ سحراً يمنح الحياة، وإن كنّا في معزل عن الهواء؟

سأختنق، فهل لأنَّني لا أسمع حرفًا من كلمات الأستاذ؟

إذن، رأس الزميل هو الحاجز الذي يمنع انسياب العبارات إلى أذنيّ. الزميل أمامي يلهث في تنشُّقه لأنَّه يأخذ حصّتي وحصّته من المعرفة الخالدة، المتفجِّرة من فم الأستاذ...

مددت يدي لأطلب منه الانحناء قليلاً، فآخذ نصيبي الذي دفعت ثمنه، من المعلومات القيِّمة عن الأدب الإنكليزيّ... حرَّكت يدي لأمدّها فنامت نظراتي على رقبته العارية فارتعشت! كانت رقبته كالطريق الأسود العاصف في الخارج. وشعر هو بضيقي على المقعد،

فأدار رأسه... فأصبت بدوار وأنا أراقب التفاف رقبته في الفضاء، كزوغان طريق أسود لامتناهٍ يشقّ أديم السماء!

انتشلت معطفي عن يد المقعد بعد أن يبس الزميل أمامي، وبعد أن دوّت في أذنيّ كلمة هاربة من صدر القاعة «الرومنطيقيَّة». وبعد هنيهة وجدت نفسي في الشارع. وكان الشارع يتنهّد بعد عاصفة جبّارة.

واشتريت مجلَّة فنّيَّة أميركيَّة، من زاوية مطعم فيصل، وتسلَّقت الترام إلى البيت.

- ٤ -

تمرّ في فكري تشبيهات طريفة للحالات النفسيَّة التي أتخبَّط فيها منذ باشرت العمل:

فأنا قصر فخم، كأروع قصور أباطرة روما. ولهذا القصر عبيده ودكاكينه وحيواناته. فيه كلّ ما يلزم لتوليد الحياة، لا يحتاج إلى معونة من خارجه، مع الأسوار العالية تحاصره. ومع أنَّ بين الأسوار والطوابق خنادق تتدفَّق بالماء، لا تجفّ ولا تتيح لأحد الولوج إلى المملكة الكبرى.

هكذا أنا، عالم مستقلّ لا يمكن أن يتأثَّر مجرى الحياة فيه بأيّ حدث خارجي لا ينطلق من ذاتي، من مشكلة الإنسان في ذاتي.

وصحيح أنَّني أسكن مع أمّي وأبي وأختيّ، السمراء والشقراء، وأخي الدلّوع بسّام، لكنَّني لا أحسّهم: إنَّهم تمامًا خارج السور في عالمي. إنَّهم حتّى خارج قنوات المياه الطافحة.

لكنّ هذا الغموض الذي يلفّ الحركة في بيتنا بعد الاعتداء المسلّح على مصر، إثر تأميم قناة السويس، أصبح يعكّر صفو اندماجي الكلّيّ في تفهُّم تشابك قضايانا الجديدة.

أنا أصرِّح، وبكلّ بساطة، أنّني لا أملك عقلاً متينًا يقدر على حلّ العمليّات الحسابيّة، ومطالعة رواية لشكسبير ونقدها، وإيجاد حلّ لقضيّة فلسطين، أو لقضيّة كشمير، أو لقضيّة الجزائر.

ما يشغلني هو كيف سأمرِّن أعصابي على تحمُّل الإصغاء للمحاضرات إلى نهايتها، وكيف سأناقش الرئيس بالوظيفة التي لم أتسلّمها إلى الآن، وكيف سأمشي بحذائي الذي يرفعني للمرَّة الأولى سبعة سنتمترات عن الأرض: هل سينكسر وأنا أهرول في الشارع؟

وتسرَّب حوار الشقراء والسمراء إلى أذنيّ تحت اللحاف والشرشف الأبيض مع دقات الساعة معلنة السابعة صباحًا:

«جنّنت جاكيتي الجلديَّة كلّ الزميلات. وتمزَّقت لمياء الرفاعي غيرة، وقلبت شفتيها تتصنَّع عدم الاكتراث وهي تسألني: «بكم اشتريتها؟ هل عنده اللّون الأحمر؟» كلّهنّ ينتظرنني على المدخل، يتفرَّجن على ما تكرَّم به الوالد من ثياب رائعة لهذا العالم. أوه ما أكرم والدي، أنا أعبده».

«... هل رأيت بنت السفير؟ إنّها موضوع مضحك. تُميت ضحكًا، تصبغ شعرها بألوان عجيبة، برّاقة، كلاعبات البهلوان في السيرك، وتنتف حاجبيها لترسمهما بألوان مختلفة. إنّها شيء يثير القرف».

وأخرس الهمس دبيكٌ على الباب، ثم لهجة الوالد الجافّة المرتجفة:

«صباح الخير يا صغار...».

فكَّرت، وأنا أتصنَّع الاستغراق في النوم: سنظلّ عنده صغاراً، ولو ملأ الشيب رؤوسنا.

«ألا تزال لينا نائمة؟ أوه هذا الكسل الوسخ».

واقترب من سريري وهو يتابع:

«وأنتما ألم تتأخَّرا عن موعد درسكما؟ هيّا اقتربا وقبِّلاني، سأسافر بعد ساعة إلى القاهرة...».

انتفضت تحت اللحاف: إلى القاهرة؟ لماذا، والقاهرة تستمرّ بنضالها، بدفاعها، بإصلاح خرائبها وأخطاء المستعمرين؟

أظنّه رآني أتحرَّك، فرفع اللحاف عن رأسي، وقال هازئًا:

«أراهن أنَّ شعرك سيتدلَّى عند قدميك وأنت تودِّعين بابا قبل رحيله، هيّا...».

وسحبني من الفراش، فوقفت على رؤوس أصابع قدميّ ليقبِّلني في جبهتي، ولأتفّ على خدّه قبلة عجلى.

وتوجّه بعد دقائق إلى المطار وحده، وفي سيّارة تاكسي. وفسّرت أمِّي تصرُّفه هذا، بأنَّنا يجب أن نكتم سرّ رحيله عن كلّ الناس.

هكذا أمرتنا بإصرار: يجب... فلم يقنعني إيضاحها المقتضب، فتبعتها إلى المطبخ أنتزع منها أسباب سفر الوالد:

«لماذا سافر زوجك إلى القاهرة؟».

فارتعدت شفتاها، وسألتني:

«أوليس زوجي والدك؟».

ضحكت، أمسح لطخات حياء قانية طبعها سؤالها في بياض عينيّ، واستفزّيتها بوقاحة:

«نحن استغلاليُّون، قولي إنَّه راح يجني ثروة حرب جديدة! قولي الصدق، لأنَّني معجبة بك وبه! قولي...».

فانقضّت على عنادي تنهشه باعترافها:

«كيف تفهمين كفاح والدك وأنت لا تطالعين إلاّ أخبار الممثّلين: صورهم الإباحيَّة، أخبارهم الشاذّة، طرائفهم البايخة؟ هل أمسكت يومًا جريدة، أو مجلّة محترمة، واهتممت بما يجري حولك، وفي العالم؟ ادخلي إلى غرفتي تجدي على المخدّة جريدة الصباح، وطالعي فيها الأنباء... ثمَّ توقّفي عند نبأ هامّ: «اختفى الثوم من الأسواق، وارتفع سعر البصل». خبر صغير في سطور، لا يقرأه أكثر الناس، إنَّما...».

فكّرت،

إنَّما هو نبع ملايين لنا!

وهزَّ اعتراف أمّي عقلي الخامل:

«نحن الذين اشترينا كمّيَّة الثوم من الأسواق، وقسم كبير من محصول البصل. وسيشتري والدك البصل المصري ليسفّره إلى ميناء بيروت. ومن ميناء بيروت، إلى موانئ فرنسا، وإنكلترا!».

•

كدت أختنق برائحة الاستغلال. برائحة الملايين من الفرنكات والدولارات، برائحة الثوم الكريهة، برائحة البصل.

وشدّتني بكتفي: «اقتربي منّي. لا أودّ أن تسمعنا الخادمة. اقتربي».

ببطء، ببطء، وكأنّني بطلة جبانة، في قصّة بوليسيّة رخيصة، التصقت بها، فأفرغت في أذني قولها:

«إذا نجحت الصفقة سيفتح والدك لكنّ، لكلّ واحدة منكنّ، حسابًا في البنك بمبلغ خمسة وعشرين ألف ليرة لبنانيّة!».

هذا رائع حقًّا!

لقد أصلح الكرسي في مكتبي. وكُسيت المكتبة الصغيرة زجاجًا فاخرًا. وتمدّد على الملفّ أمامي جدول يبيّن تكاليف التخريب الذي أحدثته، وإنذارًا من مدير المؤسّسة بعدم التكرار، وإلا حسم المبلغ من راتبي. هذا رائع حقًّا.

وأروع منه أن يستدعيني الرئيس إلى مكتبه: سيعهد إليّ أخيرًا بالمهمّة.

فمدّ يده بمفتاح، صوّبه إلى وجهي، وبابتسامة متحفّظة تتمطّى بين عينيه وبين رأس المفتاح الصدئ. ومددت يدي، وقشعريرة تهيّب تسري في ركبتيّ وأجفاني. ثمّ تراجعت فورًا، أبدّل اتّجاه اليد المنطلقة بمفتاحها إلى صدري. ودفع الرئيس المعدن البنّيّ على راحة يدي، وتنهّد مرتاحًا، كأنّه يربط بيدي أثقال أجسام كلّ من يعملون في المؤسّسة: الأثقال التي أنهكت قواه زمنًا. وأمرني:

«تفقَّدي الصندوق كلّ صباح. هذا هو مفتاح الصندوق. في الطابق المحفور تحت الأرض».

الصندوق... الصندوق... وانسحبت أغمغم: سأتفقَّده.

وما إن احتواني مكتبي مع المفتاح الصغير، حتى زحلقت يداً على الحائط أتحسَّس زرّ النور، ونحن في قلب نهار صحو، ورفعت اليد الأخرى إلى فمي أبارك المهمَّة الجديدة في المفتاح الصدئ، وغلّفته بقبلات اطمئنان.

ثمَّ انطلقت إلى الجامعة تغمرني فرحة دافئة. لهذا خلعت معطفي على باب قاعة الدرس. وتنشَّقت الهواء الصقع نشوانة. وغطَّست الصدر، والساقين، والخصر في النور الباهت المحبوس في القاعة... فإذا على صدري، وساقيّ، وخصري وخز عيون شابّة، حادّة، يؤلم انسيابها الهادئ مواضع الجمال في جسدي!

فكَّرت:

ربَّما تحبك هذه الرؤوس الفتيّة، العطشى، عبارات غزل تقطرها في أذنيّ دعوة بريئة إلى السينما. أو لعلّها تصقل نظرات تجرِّدني بها، ولفترة قصيرة، من جلباب صمتي الساخر. أو لعلّها مارست من قبل مهامّ الرجال، وتعتقد الآن أنَّها قادرة على إرغامي على لفّ الحرائر على القدّ وسكب العطر على الكتفين وجرع كأس بعد كأس، فنمزّق معاً تحفُّظي المستهتر ونذيبه بين الأقدام في رقصة مجنونة!

اخترت مقعداً منفرداً وفتحت قلم الحبر، بعد أن بسطت الأوراق أمامي. وانتصب الأستاذ على المقعد يملي علينا أسماء بعض المراجع،

فانحنت الرؤوس تتبع قفز الأيدي في تصوير الكلمات. واستحال الزملاء حولي قطيع ماعز أسود الشعر وأشقره، يقضم الأوراق البيضاء. هل الأوراق بيضاء؟ لا، الأوراق تلوح لي ملوّنة، بينما أكملت عملية المسخ عطسات أحدهم المتتابعة، ثمَّ حركة غيره المزعجة.

فصررت أسناني، وأنا أهمّ بفتح حقيبتي لانتشال منديل أنشره على وجهي. واصطدمت نظراتي بالسقف، ثمَّ انحدرت هابطة على وجه الأستاذ الذي يراقبني بانتباه.

الأستاذ يراقبني، وفي الوقت نفسه، يدفع من بين شفتيه الذاويتين جملاً منتظمة، معبّرة، ناضجة. فتمهّلت على شفتيه أتساءل: ترى، كيف يتمكّن هذا من القيام بمهمّتين دقيقتين: تفحّصي، وتركيب المعاني؟

وأهملني الأستاذ لحظة وهو يردِّد:

«هذا مرجع بالفرنسيَّة، باهظ الثمن، لكنَّه مفيد وهامّ. وفي مكتبة الجامعة مؤلّفات قيّمة تعالج موضوع الفلسفة».

ثمَّ عاد إلى مراقبتي ينبّهني بصوته المعبّر: «هيا، سجِّلي كلّ حرف أبعث فيه وهداية لك، للأجيال من بعدك! أنتِ رأس فارغ. لا. أنتِ ورقة نشّاف تمتصّ مداد معرفتي!».

تبسَّمت هزءاً، فحسب الأستاذ أنّني أتعمَّد إغراءه، فخبَّأ نظراته بين وجوه سائر الطلاب، وضاع في القطيع الجائع يطعمه، ويسقيه، ويحميه.

ورميت نظراتي على حقيبة يدي: هذا هو، إذن، أستاذ الفلسفة؟ ولماذا يحاصر معظم أساتذة الجامعة أعينهم بتلك الزجاجات الوهّاجة؟

ولملمت الرؤوس أجزاءها، ثمَّ عادت تتدلّى على فم الأستاذ تجرع المعرفة. وتحسَّست بأصابعي المفتاح الصدئ، ثمَّ دوَّنت اسم الكتاب الهامّ، وانتشلت معطفي، وانسحبت من القاعة كما ننسحب من دار للسينما، مللنا فيه مشاهدة فيلم بطيء الحركة.

ورويداً.. رويداً.. رويداً... هدَّد إيقاع الرذاذ على الطريق اضطراب أفكاري التي عكَّرها صوت الأستاذ الحارّ:

ففي الهنيهات القليلة ما بين المقعد الذي تركته والباب، سكب أستاذ الفلسفة في نبراته رجاءه أن أعود إلى مقعدي... أعود إلى الإصغاء، فالذوبان، فالاضمحلال في حبكة الجملة المنمَّقة، الساعية في أثر الجمال، والحقّ، والإله الواحد، عند أرسطو، أفلاطون، سارتر، هيدجر... وغيرهم من الفلاسفة والمتفلسفين!

واتّخذت في الهنيهات القليلة، ما بين مقعدي الذي تركته والباب، الحلّ الصائب:

لن أعود إلى مقعدي ولا يهمّني ماذا يفرض أفلاطون، ولا ماذا يثرثر الأستاذ. الأهمّ عندي: المفتاح الصدئ في الزاوية، والوظيفة المتجمِّدة فوق الصدأ فيه، ومبلغ الخمسة والعشرين ألف ليرة.

ورفعت رأسي أجني من شجرة السماء الغائمة في الشارع مياهاً ناعمة منعشة، وفكَّرت:

أمامي بضع ساعات كانت مخصَّصة للجامعة، باستطاعتي الآن الرجوع إلى المؤسَّسة لتفقّد الصندوق، فرجعت إلى المؤسَّسة.

قفزت الدرجات القليلة وشققت بعينيّ طريقًا مضاءً في عتمة البهو، تحت الأرض، أفتِّش عن صندوق ركزه الرئيس على الجدار، ليدفع الموظّفون ما بين طرفي الشقّ المحفور في رأسه شكواهم كتابةً، وبظرف مختوم.

رأيت الصندوق!

رأيته، في مجاهل هذا البهو، يجاور بيت العنكبوت، فأسرعت أهدم مأوى الحشرة البنّاءة، وأرتفع على رأس حذائي رافعةً يدي في الفضاء لأتمكَّن من الوصول بالمفتاح إلى قفله. وأدرت المفتاح فدوّت في رأسي أصوات متنافرة تنطلق إلى أذنيَّ. وخيِّل إليَّ أنَّني أسمع تنهُّدات استغاثة آتية من جوف الصندوق. فارتبكت، وجاهدت بعناد لأستمرّ واقفة على رؤوس أصابع قدميّ، ففشلت للمرَّة الأولى في فتح الصندوق، وفي الاحتفاظ بتوازني، وفي تحطيم بيت آخر للعنكبوت!

وعدت من جديد إلى الارتفاع على رؤوس أصابع قدميّ، وإلى إدخال المفتاح في قفله. وهدمت حائطًا للعنكبوت، فخيِّل إليَّ هذه المرَّة أنَّ الأصوات قد فترت. وتريَّثت مطمئنّة إلى قرب لحظة النجاة.

وفتحت الباب، باب الصندوق... ووقع أقدام توشوش في أذنيّ، مهدِّدة بخيبة مرَّة. مددت يدي إلى جوف الصندوق والأقدام تتقدَّم في العتمة. وتلفّتّ خلفي فإذا أحد الموظفين ينحدر على

الدرجات بانتظام. ثمَّ رماني بنظرة ساخرة. وكتم ضحكة غيظ. وغاب في الممرّ المتفرِّع من البهو المعتّم.

الصندوق فارغ.

فارغ؟ والموظّفون أداة تعمل بصمت.

فارغ؟ وأنا المكلّفة بتلبية أيَّة أمنيَّة لهم، وتحقيق أيَّة مطاليب لرفع مستواهم...

أقفلته، وارتفعت إلى الطابق الأعلى، حيث البهو السابح بالنور، حيث الرسوم الزيتيَّة الفنّيَّة على الحيطان، حيث المقاعد الجلديَّة الأنيقة، حيث قضبان الزنبق.

ـ ٥ ـ

تطايرت أمّي، من ركن في البيت إلى ركن، لتغمر كلّ واحد منّا بذراعها الهزيلة، ولتقرأ له برقية الوالد: «الرحلة موفّقة. أقبّلكم».

فكّرت: ماذا ستكون هديّة الجارة المترهّلة؟

لا، لن أرهق فكري بتوافه الوالد وكلّ الناس. فالصندوق في المؤسّسة يحيرني، حتى أنّني لم أعد أستوعب الحركة في الشوارع، وأنا أعيش من صباح لصباح كي أتفقّده. وهذا الصباح وجدت الصندوق فارغًا.

فهذا الصندوق الضائع تحت الأرض، في الظلام، يحرّك في نفسي مقتًا ونقمة على هؤلاء الموظّفين. فهم لا يكتفون بالخرس. إنّما هم يمرّون بي كأنّهم يمرّون بجماد لا يحرّك في وجوههم خلجة استحسان، أو لفتة اكتراث، أو بريق اهتمام. أرى في عيونهم، حين أصادفهم على

الدرجات في انحداري إلى البهو المظلم، وصعودي إلى البهو المضاء، إخفاقي في أنّني لن أدرك غايتي: امتلاك ظرف مختوم.

أكرههم.

أما الرئيس فهو، دون شكّ، يضحك منّي خلف هذا الباب الذي يفصل مكتبي عن مكتبه. فنهضت عن الكرسيّ المتحرِّك، وأدرت قبضة الباب بحركة ثائرة، وبادرني الرئيس بكبرياء:

«لا أدري إذا كان عندك ما يوجب إضاعة وقتي، نعم، تكلَّمي. وتكلّمي باختصار. ماذا تطلبين؟».

فتلعثمت غضبى:

«لم تسألني عن الصندوق».

فقطّب جبينه يفكِّر: «أيّ صندوق؟»

ثم شرح بهدوء:

«آه، لا حاجة بي إلى سؤالك عن أيّ أمر، وأنا أعلم الناس بما يجري في المؤسَّسة، وفي طول البلاد وعرضها».

هيه. أ... هـ...

حاولت أن أتكلّم، لكنّني آثرت مراقبة هذا الرئيس المخيف، فإذا وجهه يفيض ثقة بنفسه.

فاستفهمته:

«وما الغاية من وجودي هنا؟».

فأجاب:

«سؤال وجيه. أنت هنا تتمرّنين على المهمّة التي ستقومين بها في المستقبل».

أيّ مستقبل؟ أيّة مهمّة؟

وأجبته:

«لكن... لكنّني لا أقوم بأيّ عمل هنا. فهل هذه طريقة حديثة ابتكرتها أنت في التدريب؟ سنبحث ذلك غداً، لأنّني مضطرّة إلى زيارة إحدى المكتبات لشراء مرجع فلسفي هامّ...».

فاستوقفني ناصحًا:

«لا تستعملي ضمير الجمع، حين تتكلّمين عن نفسك، لا يحقّ استعمال «نحن» إلاّ للملك، ولربّ الأسرة. وبما أنّك واحدة من الشعب، وبما أنّك آنسة، فابدئي منذ اللّحظة بالتدرُّب على عدم استعماله».

تقدّمت خطوة... ثمّ تراجعت. أرجعني وجهه الدنيء، المقنع. وتابع قائلاً:

«أنت مغرورة. ومهمّتك هنا قتل الغرور في نفسك، وبيدك هذه».

ودلّ على يدي اليمنى، فحرّكتها... ونزلت إلى الشارع الكبير أتساءل:

أيطمع هذا الرئيس بتبديل نفسيَّتي؟ أتصوَّر له ثقته بنفسه أنّه سيتغلَّب عليّ، لأنَّني مجبرة على طاعته، ما دمت مجبرة على نيل استقلالي وحريَّتي؟

ليتني قادرة على ترك المؤسَّسة. ليتني... لكن، أين سأبعثر وقتي؟

وعلى مدخل المكتبة هبّ البائع عن كرسيّه وفرك أصابعه السمراء النحيلة، بعضها ببعض، بحركة مصطنعة. وانحنى قليلاً يرحِّب بقدومي. فضايقتني ابتسامته السقيمة الجافّة المتأرجحة بين عينيه وشفتيه. ولأخفي ضيقي، ابتلعت بنظراتي أكداس الكتب المصفَّفة في كلّ شبر من زوايا المكتبة وجدرانها، والشابّ الأسمر يقفز أمامي مردِّدًا:

«أهلاً بك، آنستي. أهلاً... ماذا تأمرين؟».

وانتزع بعينيه، عن شفتيّ، اسم كتاب «فلسفة ما وراء الطبيعة» لمؤلِّف فرنسي. وانفجر معي في ضحكة مرحة، وأنا أتعثَّر بتهجئة اسم المؤلِّف على الورقة. وقال:

«أنت لا تحسنين اللُّغة الفرنسيَّة، وتودِّين شراء كتاب بالفرنسيَّة؟».

وتفحص وجهي متابعًا:

«لا أستغرب تلبية كلّ الفتيات مطاليب أساتذتهنّ. فالأساتذة كممثّلي هوليود: حلم كلّ العذارى، ونعيش، نحن الشباب، عمرنا في الحرمان!».

•

ماذا؟ هل هذا الشابّ معتوه؟

حرقت ملاحظته كلّ أثر للرئيس، والموظَّفين، والصندوق، والمنزل من خاطري... ولم يبق فيه غير صورة أستاذ الفلسفة، ويده المحلّقة في الفضاء كيد الحاوي تسلب كلّ انتباه، وكلّ قوّة، وكلّ شخصيّة فرديَّة.

ونبَّهني قوله:

«ثمن الكتاب أربعون ليرة... مهلاً! مهلاً... كلِّميني!».

لم أتمهَّل، فقد أغضبني أن يسيء بائع مبتذل إلى أستاذي. ألا يعلم هذا أنَّه يحقِّرني أنا بتحقيره؟

وتوقَّفت في سينما «الكابيتول» أشاهد صور فيلم الأسبوع المعروضة على لوحتين كبيرتين من الخشب. هذا «كيرك دوغلاس» في فيلم «فان كوخ». ثمن تذكرة السينما ليرة واحدة وعشرة قروش، وثمن الكتاب أربعون ليرة، فلماذا لا أفني ساعات بعد الظهر في السينما، بدل أن تفنيني هي في الجامعة؟

استدرت، فتعمَّد شابّ دفعي، ثمَّ تلقّاني بيده معتذراً... وحملني قاطع التذاكر على ابتسامته إلى شبّاكه، ورسم على التذكرة نمرة الكرسيّ، دون أن يطلب رأيي في اختيار المكان، ودون أن يتيح لي فرصة الاعتراض. طمأنني:

«أحسن مكان في القاعة. كرسيّ على الطرف. في الصفّ السادس. ألا يرضيك ذوقي؟».

فاصطبغ وجهي بندم أصفر، لاقتحامي هذه التجربة الخطرة: مشاهدة فيلم وحدي!

آلمني قاطع التذاكر، وهو يتأكَّد من أنَّني سأغامر:

« تذكرة واحدة، أليس كذلك؟ واحدة... واحدة... ».

الوقح.

جابهته: « أجل، تذكرة واحدة... ».

وأفرغت كلّ نبرات التحدّي في كلمة واحدة، وطويت التذكرة الحمراء، وأخفيتها في المفكّرة الصغيرة وسحبت رجلي إلى البيت: لإملاء مكاني حول مائدة الطعام...

انشغلت، والأهل يمضغون طعامهم بتأنٍّ، ومرح، بمراقبة اللوحة الزيتيَّة التي اشتراها والدي في حفلة افتتاح معرض التصوير والنحت الخريفي، في قصر الأونيسكو، وعلّقها في غرفة الطعام. فأثارت اللوحة قرفي: امرأة وسخة، مبعثرة الشعر، ممزّقة الثياب، تجرّ خلفها طفلاً، كأنَّه جرو مريض يمدّ يده للمارّة.

وقفت، فتمهّلت الأفواه في مضغ طعامها، وغيَّرت مكاني حول المائدة، بحيث أمست اللوحة خلفي، أراها في المرآة أكثر حيويَّة، وأكثر إثارة للقرف. أردت بذلك مجابهة البؤس في اللوحة والاستخفاف بصاحبها!

لكنَّ والدتي كانت تتفحَّص وجهي: أتراها اكتشفت أثر المغامرة الخطيرة؟

قفزت عن الكرسيّ واندفعت إلى غرفتي أتفقّد بطاقة السينما... إنَّها هنا، تختبئ في المفكّرة الصغيرة. عدت إلى المائدة أدحرج ضحكة على شفتيّ. وضحكت والدتي تسألني:

«كيف تسير أمورك في الجامعة؟».

أفرغت في فمي ملعقة شورباء تهرُّبًا من الإجابة.

لو علمت أنَّني سأكون وحدي... وحدي، بدونها، وبدون أختي، وبدون والدي، في دار السينما!

لو علمت للطمت خدّيها، ولمزّقت ثيابي أنا تمنعني من تنفيذ هذه الفضيحة العظمى!

انسحبت من غرفة الطعام هادئة، تتبعني نظراتها المستغربة وداعتي، وقد عوّدتها صدًّا عنيفًا بعد كلّ ملاحظة تبديها لي هي، أو والدي، أو أختي. وفتحت شبّاك غرفتي أتفقّد حالة الطقس العاصف، فإذا الشارع يغرق بالسيول الموحلة، والسماء مشدودة إلى الأرض بأسلاك حبّات المطر الكبيرة، والمارّة ينكمشون في مداخل البنايات، يرتجفون بردًا. وإذا السيّارات تعوم فوق السيول، كأنَّها صفائح من التنك المدهون، لفظتها الأمواج على الشاطئ، وراحت تغسلها. وإذا البحر يعوي...

رفعت رأسي، أحاول رؤية البحر الذي أخفاه والدي خلف البناية الشاهقة، فحرمني من أنس الحالم صيفًا. الشاكي، المنتحب، الغضبان شتاءً...

علّمني البحر المستلقي على بضعة أمتار من بيتنا نسج الأماني وابتداع الأفكار. فحينًا تمنّيت لو كانت الأرض مسطّحة لأرى البلدان القائمة في الجهة الثانية من العالم، وحينًا تساءلت لماذا لا أمشي في اليقظة على صفحة الماء كما مشيت في حلم البارحة؟ وأحيانًا كنت أسدّ أذنيّ بالقطن، أبعد أنغام عروس البحر المتفجّرة من أعماق المياه الزرقاء، المتلألئة في ضوء القمر، أو أرهف السمع، مستنشقةً النسيم الرطب المتسلّل من الشاطئ الرمليّ إلى سريري...

البحر يعوي.

لا، لن أنتظر صمته. ولن أنتظر جفاف السيول في الشارع أو عودة المارّة إلى الزحف على الأرصفة المكشوفة لكي أتوجّه إلى السينما. سأطلب سيّارة والدي.

لا، لن أطلبها، لئلاّ أقدّم تقريرًا مفصّلاً عن موعد ذهابي وعودتي، عن وجهة سيري، عن مكان نزولي، عن... وعن...

ارتديت معطفي الواقي من المطر، وحزمت شعري بالشال وركضت تحت زخات المطر إلى محطّة الترام وارتميت في أول سيّارة مرّت. دفعت للسائق ربع ليرة، ونزلت على مدخل دار السينما.

انتظرت مشتّتة القوى، على المدخل. انتظرت لحظة انطفاء الأضواء لأتغلغل في الظلام إلى مقعدي. لا، لن أجرؤ على الوقوف في النور فتشير إليّ الأصابع: وحيدة... وحيدة... في السينما وحيدة... وحيدة.

أرعبني دنو شابّ منّي، يكلّمني بوقاحة:

«لقد تأخّر صاحبك، فهل تقبلينني بدلاً عنه؟».

عبست، وكدت أجنّ غضباً وخجلاً. فابتعد الطفيلي يردّد: «أتمنّى لك التوفيق...» فتمنّيت له موتاً صاعقاً!

نزعت الشال المبلّل عن شعري القصير، ثم خلعت معطفي وقفّازيّ... وارتجفت ارتياحاً حين رنَّ الجرس وانطفأت كلّ الأضواء. ورحّب بي الموظّف على باب القاعة بكلمة إطراء. ثم أرخى الستار المخمليّ العنّابيّ خلفي.

وما تعلّقت عيناي بالشاشة، حتى صوّب الموظّف في القاعة «البطّاريّة» إلى وجهي، فقفزت إلى الخلف، واقترب منّي مستفهماً:

«أين تذكرتك؟ وحيدة؟».

وحيدة... وحيدة...

لفظة وحيدة تسحق كلّ ذرّة وعي في كياني، فأستحيل شيئاً ضعيفاً، متردّداً، خائفاً...

سرت وراءه إلى مقعدي، ولم يلبّ طلب سائر المتفرّجين في تعيين أماكنهم إلاّ بعد أن صفعني بنور بطاريّته مرّات متتابعة.

أنا وحيدة، فمن يحسبني هذا الرجل الأشيب الذي يحتلّ المقعد عن يساري؟ ثم من سيجلس على المقعد الخالي عن يميني؟ ليتني أحجز هذا المقعد، فآمن شرّ متفرّج مزعج...

أين والدي ووالدتي،

لينظرا إلى مكانيهما يحتلّهما غريبان؟ سيثوران، سيحجزانني في البيت. سيملآن جوانب الغرف تأنيبًا... ثم، وبعد ذلك، فماذا سيتّخذان من عقوبات؟ هل يعودان إلى نصب الحواجز لانطلاقتي وتعيين الحدود لها؟

لماذا يجب أن أرضى بمصاحبتهما في كلّ وقت يختارانه لمشاهدة فيلم يروقهما؟ لقد سئمت ظلّهما: واحد عن يميني، وواحد عن يساري يصدّان عنّي نظرات الرّجال. سئمت... سئمت حراستهما، وملاحقتهما، وسلطتهما.

ومع أنّني شعلة سأم، فالمقعد الخالي يقلقني. لا، لن يكون هذا القادم صاحب المقعد. اقترب... لا، لقد أحسن في حجزه المقعد في القسم الآخر من هذا الصفّ... مددت يدي وألقيتها على ظهر المقعد، أتمتم:

حقّق إلهي رغبتي في أن يظلّ المقعد شاغرًا... يا إلهي... يا إلهي... يا إلهي. وحلّقت مع الإله والمقعد بعيدة عن القاعة. ومرّت دقائق الاستراحة بأمان، وأنا والإله والمقعد نتوشوش.

وبدأ الفيلم. وعاد الإله إلى سمائه مخفقًا، إذ احتوى المقعد ثقل المرأة المخضّبة، وتعمشق انتباهي على الشاشة يضيع في حوادث الفيلم... لكن،

لكن عبثًا أحاول الاندماج في جوّ الرواية: أرى رؤوس الجالسين أمامي وأكتافهم، فكيف أتجاهل صفّ الأكتاف وصفّ الوجوه لأصل

بنظري إلى الشاشة؟ كيف أصمّ أذنيّ عن طقطقة المكسّرات خلفي، وعن ضربات حذاء الجالس بجانبي على الأرض؟

تململت ضيقًا على مقعدي، فشزرتني المرأة بكلمة: أوف... أوف... وفتّش الرجل عن وجهي في الظلام. فسكنت ضجرة.

ولأرى مشهدًا، كنت مجبرة ـ كما ننحدر السلّم درجة، درجة ـ على القفز فوق رأس. ورأس. ورأس. ورأس... عشرات الرؤوس... فحقل القمح على الشاشة.

ثم لأسمع نغمًا، عليّ أن أتلقّى صرير حذاء، ووعوعة طفل وتعليقًا بايخًا وتنفُّسًا وزفيرًا...

كيف؟ كيف أتجاهل جلوسهم، جلوس كلّ هؤلاء الناس حولي؟

مهلاً... يا لفظاعة المشهد: البطل يقرِّب يده من شمعة مضاءة. يقرِّبها. يقرِّبها. إنّه يرميها طعامًا للنار. يرمي يده. النار تشوي يده!

لم أغضّ نظري، ولم أبعده بعد هذا المشهد على الشاشة. وعند تسلُّلي في نهاية العرض، كان ألم مبرّح ينخر يدي. ولم يسكن الألم فيها إلاّ بعد أن أقفلت باب غرفتي ولففت يدي بشاش أبيض.

ونمت ليلتي منهوكة الجسد، كجندي خاض معركة فاصلة.

- ٦ -

كنت مأخوذة بسحر البيان، في محاضرة « تاريخ الأدب » حتى كدت أنسى، في روعتها، مظاهرة الأمس في السينما، وضحكات زميلة ماجنة في مقاطعتها شرح الأستاذ، وإثارتها تعليقًا هامسًا بين صفوف الشبّان.

ومدّ زميل مرح ذراعه صوب الزميلة الرقيقة، الوادعة، التي تجلس شبه نائمة بيني وبينه، وفي يده كومة من « الشوكولا »، وفي عينيها هي بريق نهم، مثير، يعبّ كلّ لذّة. وأنزل كومة الشوكولا إلى فخذها المشدود بالبنطلون الأسود الضيّق، وحفّ يده بالقماش الأسود، فمدّت هي يدها تناغي حاملة كومة الشوكولا. وبيدها الأخرى أفرغت الحمل في جيبها، وتلفّتت، تهرّب القطع اللذيذة اللمّاعة إلى كلّ فمّ... إلى أن جاء دوري.

طوتْ ركبتيها، ونشرت على وجهها غلاف تهيُّب. وحملت بيدها أكثر من قطعة شوكولا، واستدارت، منحنية، تردِّد:

«أترغبين في مرطّب، يساعدك على هضم كلام الأستاذ؟».

على خدِّها رجاء ذليل لأنْ أذيب كبريائي وأنخرط في أساليب حياتهم الجامعيَّة الحلوة، الصاخبة. وعلى جبهات الزمرة الملتفّة حولي تلهّف متوتّر يراقب تأثير الدعوة. أمّا أنا فكم كنت أودّ لو أستطيع الزوغان في عالمهم. أودّ... لكنّني أستخفّ بهم، بحيائهم، بأفكارهم. أنا أنضج منهم، أرفع، أجلّ!

ليتني أتمكَّن من تحقيق رغبتهم في التساوي بهم، في مضغ قطعة الشوكولا. وفتحت شفتيّ فازدحمت نظرات مبعثرة تتجمَّع على شفتيّ. واتّسعت آذانهم، وأنصتت، فهم لم يسمعوني يومًا أتكلَّم. أكثرهم يعتقد أنَّني خرساء. ليتني ألتهم قطعة من الشوكولا! حرَّكت يدي فقرّبت الزميلة الرقيقة يدها...

وبدل أن ألتقط قطعة الشوكولا دفنت يدي في جيب معطفي، وهززت رأسي أدّخر كلّ الأماني في ارتدادها خائبة إلى صدور أصحابها!

وفي انسحابنا من القاعة، بعد انتهاء المحاضرة، التصقت بالحائط أحذر الاحتكاك بهذه الأجساد اللاهية. ثمّ تواريت في المكتبة، في وقت تتجمَّع الطالبات في القسم المعدّ لهنّ، ليعرضن الأثواب. وليحرقن السجاير. وليروين النكت. وليتباهين بمغامراتهنّ...

المكتبة غاصّة بكلّ لون، وكلّ لغة، وكلّ مذهب. فكيف يريدونني أن أنسجم مع كتابي المفيد؟ كيف أستجمع كلّ وعيي في هذا التنافر، والتصارع، واختلاف الأهواء؟

في جناح الاستراحة تروي زميلة لبنانيَّة لصديقتها الأردنيَّة مشكلتها المعقَّدة: «نسيبتي عضو بارز في هيئة اتّحاد الجامعيّات لا تقبلني في الهيئة إلاّ وبيدي شهادة ناصعة البياض. حاولت إقناعها بقبولي، بتسجيل اسمي في عدادهنّ. لكنَّها أبت، وأصرَّت على أن أحصل على الشهادة التي ستفتح أمامي كلّ أبواب المجد!»، وتطيّب الزميلة الأردنية خاطر صديقتها: «واستبدلته بشهادة! سنحصل في آخر السنة على المجد: أنا وأنت».

أمّا أنا...

أنا، هنا، مشدودة إلى كلّ وجه تائه، في اكتساب المجد، على الصفحات...

لماذا دخلت الجامعة؟ لأعدّ مجداً؟ أيّ مجد هذا الذي يعدُّونه؟

لماذا يراقبني هذا الشابّ؟ يسعدني أنَّه يشعر بحضوري في المكتبة. عيناه صافيتان، لا تشتهيان. لا تناديان. لا تعكِّران. ضحك لي الشابّ، وترك مكانه وغادر المكتبة. فجمَّعت أوراقي وتوجَّهت مضطربة إلى المؤسَّسة.

في سكون قبل ظهر هذا اليوم المطير، رنَّ جرس التلفون في مكتبي. فأسرعت، ورفعت السمّاعة... فردَّد العامل في أذني:

« أمرني الرئيس أن أحوِّل إليك مخابراته. سيأتي بعد ساعة».
وأقفل الخطّ.

جمدت على الكرسي، واحترت:

ـ كيف أجيب؟ ماذا أقول؟ هل أقوم بالدور الذي رأيت أحد الموظَّفين يقوم به؟ هل أكتفي من الجواب بترديد: لا. نعم. سأخبر الرئيس. لا. نعم. إنَّه أمر من الرئيس...

عاد التلفون إلى النداء. ألصقت السمّاعة بأذني، وصحت:

«نعم».

فسرى في رأسي صوت خشن، فيه رقَّة مدروسة:

«هنا السفارة (...). الأستاذ إذا سمحت». ثمَّ استدرك موضحًا: «الأستاذ الرئيس».

فأجبته:

«متغيِّب. اطلبه في ما بعد».

وكأنَّ الرجل سمع كلامًا مخيفًا. صرخ:

«ماذا؟ أعيدي ما قلته؟».

ولفظت جوابي ببرود: «اطلبه في ما بعد». وانتظرت أستطلع تأثير برودي في صوته... فسمعت الغضب في زمجرته:

«في ما بعد، تعني بعد كم من الوقت؟»

أحرجني سؤاله، فأجبته:

«أنت حرّ في أن تكلِّمه بعد ساعة. ساعتين. غداً... لك مطلق الحرِّيَّة في اختيار الوقت الملائم أو...».

فزأر مقاطعاً:

«ألا تعلمين أنَّ هنا السفارة (...)؟».

«طبعاً، أعلم...».

«أنت لا تعلمين شيئاً. أوَلست موظَّفة جديدة؟».

«نعم... نعم... نعم...».

فأسرع يخيفني:

«طبعاً، أعلم!».

وأقفل الخطّ.

وتركني في حالة رعب وارتباك. وتجمَّعت الغيوم، كلّ الغيوم، في قطعة السماء الظاهرة من الشبّاك الوحيد، فأظلمت الغرفة، وتسلَل إلى أناملي صقيع يوجع. وتراكضت الدماء في قنواتها المتشعِّبة في رأسي. وتلوَّنت المرئيّات حولي. المكتبة الصغيرة حمراء. المقعدان أسودان يلمعان. قطعة السماء خضراء، صفراء، بنّيَّة.

وإذاً أنا خائفة. أخاف هذه الليلة الراعدة، الصاخبة، الموحشة.

أغمضت أجفاني، أردِّد: ألا تعلمين أنَّ هنا السفارة (...)؟ السفارة (...) السفارة...

أكاد أختنق. فتحت أجفاني، واستبشرت بظلال نور شمس باهتة، شقَّت الغيوم وحلّقت إلى وشاح الضوء الباهت المنشور على أديم الغيوم الداكنة... فلم أنتبه إلى أزيز الباب الحديديّ، وهو يفتح، وإلى امتداد رأس رجل في الظلمة الرماديَّة. ولم ألتفت إلى هذا الرجل الغريب المنتصب، أمامي... إنَّما صوته القذر هو الذي قذفني من السماء إلى الغرفة الحزينة:

«هل اتّصلت بك السفارة (...)؟».

ارتجفت.

وضحك اللعين، فاكتشفت أنَّ في ضحكه أيضًا قذارة. لكنَّني اكتشفت أيضًا أنَّ هذا الشابّ يساعدني على إبادة السكون، والظلمة، والتشتُّت، فتبّسمت. وجمدت عيناه. ودعوته للجلوس على المقعد يعيد إليه لونه الحقيقيّ. فأحنى جسده مستغربًا، ينقِّب في وجهي عن سرّ رقّتي، وترحيبي. فسألته بشجاعة:

«والآن ماذا تريد؟».

فاصفرّ وجهه، وعجَّل في مضغ علكته، وغمغم بضعف:

«ماذا أريد؟ أنا أريد؟ لا، أنا لا أملك إرادة. أنا مدفوع إلى تنفيذ تصرُّف ما. أو حركة. أو هدف...».

عبست، أوقفه... فمدَّ يده يشير إلى وجهي، يأمرني:

«هيا، ابتسمي. العبوس يزيدك بشاعة».

الوقح!

هل أنا بشعة؟ أنا لست سمراء ولا شقراء. ولكنّني لست بشعة.

أهملته لحظة، لأرى صورتي المعكوسة في زجاج الشبّاك الوحيد، فإذا الزجاج قاحل يغمر الجدار الأملس.

أنا نحيلة كوالدتي، فهل جمال المرأة في ترهُّلها؟

ودفقت نظرات غيظ على وجه الشاب، وفكَّرت منتصرة:

لا يهمّني هذا القذر، ولا يهمّني أيّ رجل غيره!

وكأنَّه أحسّ برائحة الصفة الكريهة التي غلَّفته بها، فقال:

«أنا زميلك في العمل، تركت مساء أمس بعض الأوراق على مكتبك».

وتساءلت في نفسي:

زميلي؟ مكتبي؟ لماذا يستعمل مكتبي؟

وأكمل:

«أنا موظَّف ليلي، أقوم بالترجمة: ترجمة المعلومات السرِّيَّة!»

ذهلت، فأرعبني شرحه:

«وأقبض أنا وأنت أموال حلف أنقرة!».

فهمهمت:

«حلف... أنقرة...».

وفي هذيان همهمتي، تابع:

«يدفع لي الحلف أول الشهر. وتدفع أمّي في منتصفه. ويدفع لي الأصحاب في أواخره. وأنا أرتزق من كلّ هؤلاء. من هذا المال أسدّ فم صاحب الغرفة النتن، وأدفع ثمن وجبات الأكل في المطاعم، وأجرة الكيّ، والتنقّلات، والسجاير، والملابس، ثمّ المصاريف السرّيّة!».

وتوقّف يقهقه بانفعال:

«اعذريني. لقد استعملت تعبيراً خاصًّا في ميزانيّة الدولة. أنت تعرفين المقصود من هذه المصاريف، لست طفلة... لست...».

عرفتها، وسررت بقدرة تفكيري: نساء. كباريات. مشروبات. قمار...

واستفسرني مصرًّا:

«هل أنا منحطّ إذا واظبت على عمل في مؤسّسة يموّلها حلف أجنبيّ، بينما حكومة سوريا، حيث وُلدت وحيث تستغلّ أمّي أراضينا على ضفّتي بردى، تعقد أحلافًا مع حكومة أجنبيّة أخرى؟ وليسمّوني خائنًا. فأنا لن أسحق لقمتي بقدمي، لأعدّ جبّارًا يقدّس مبادئه الوطنيّة!».

ومدّ يده، ينتشل أوراقًا صفراء من ملفّ مطروح على المكتب. وحدّق في عينيّ يتّهمني:

«لنكن واقعيِّين. هل المبادئ تطعم، وتسقي، وتلبس؟ نحن لا نؤذي أحداً. وما دام الفرد منّا يعدّ تافهاً، لا يخدش، فلماذا لا نتمتَّع بمال الاستعمار؟».

وخرج...

وزمّور سيّارة الرئيس يجمِّد الكلمات على فم كلّ موظَّف في المؤسَّسة. وما سمعت وقع أقدام في مكتبه حتى أسرعت إليه، أخبره عن المكالمة التلفونيَّة.

بدا لي الرئيس غامضاً، مخيفاً، حين أجاب:

«أنا ؟؟؟؟ من هناك».

فصرخت:

«ماذا؟».

فلم يجب. وسألني:

غمغمت:

«لا شيء... لا شيء... لا...».

وأقفلت الباب خلفي، وتدحرجت على السلّم، إلى البيت... فاستقبلتني والدتي على الباب مرحِّبة:

«أحسنت بقدومك مبكِّرة. عاد والدك من القاهرة. أعددت لك طعامك المفضَّل».

لم أكترث لترحيبها، ولم تفرحني عودة الوالد، ولم ترضني وجبة «البفتيك والبوريه». إنَّما، ولتفهم هذه المرأة، جئت مبكِّرة أنقِّب في هذا البيت عن صفتي. عن طابعي. عن الاطمئنان... لماذا أؤثر هذا الصحن الفرنسي على صحن المحشي والتبّولة، والكبّة؟

أنا لست فرنسيَّة. وشكلي في المرآة يشهد بتحدُّري من الإنسان الأوّل الذي عاش على شواطئنا منذ آلاف السنين، متوغِّلاً في شبه الجزيرة النيِّرة كلّها. ومع أنَّني لست سمراء، ولست شقراء، فأنا من هنا. لست فرنسيَّة... لست فرنسيَّة!

تراجعت عن المرآة، حين انعكست فيها قطع أثاث ابتكرها الفكر الأميركيّ وزيَّن بها والدي منزله. ودخلت الصالون العربيّ التقليديّ، فإذا السجّاد مصلوب على الحائط. وإذا الطراريح المخمليَّة تجثم على مدود الخشب. وإذا الوجاق النحاسيّ يستعر بالجمر الأحمر وإذا المساند الجلديَّة التي أحضرتها محلاّت «الهندي» خصيصًا للوالد تتمدَّد في كلّ ركن. وإذا النارجيلة خامدة، حزينة في الزاوية، تنتظر شفتين تعلكان رأسها..

أنا في بيتنا ضائعة: لست شرقيَّة، ولست غربيَّة. لست حرَّة، ولست مستعبدة. لست شقراء، ولست سمراء!

وحين التففنا حول المائدة ترهقنا أكداس قبلات الوالد على جبهاتنا، قلقت:

هل نجحت الصفقة؟ إنَّه يزعجني بفحيحه، وهو ضائع بين الملعقة والشوكة وصحن الشورباء.

فأيقظتني الوالدة:

«ألا تأكلين؟».

«نعم... نعم...».

وانحنيت ألتقط ملعقة، وأختي الصغرى الشقراء تبتلع ابتسامتها والأخت الكبرى السمراء ساهية، بعيدة، تستعدّ لمحاضرة في علم الذرّة. وبسّام الصغير يستجوب الوالد: هل في القاهرة جنود أطفال؟ هل فيها دبّابات تمشي على السطوح؟ هل يحمل الطفل مسدّساً كبيراً، كمسدّس والده الضابط؟ هل... هل. فكأنّما في رأس أخي الصغير ساحات حرب بضجيجها، ومآسيها، وعنفها وانتصاراتها، وبطولاتها. وما كاد يسأل الوالد: «لماذا أحضرت لي معك سيّارة؟ أنا طلبت منك أن تحضر لي من مصر دبّابة. لماذا لم تحضر الدبّابة؟ لماذا؟ لماذا؟» حتى مسح الوالد شفتيه بالفوطة البيضاء وقتم وجهه وتفحّص وجوهنا باستغراب، وقال:

«سآتيك بدبّابة من لندن».

شهقتُ: سيصدّر البصل المصري إلى لندن؟

وحملقت الشقراء، مفكّرة: هل ستتأخّر أكثر وأكثر معاملة الخمسة والعشرين ألف ليرة في البنك؟

ولم تكترث السمراء للاسم: فإذا بُحثت القضايا العلميّة عندها اختفت البلدان والحدود والأسماء.

وانقضّت الأمّ على الصغير تواسيه وتجفّف دموعه. وتحضن، في الوقت نفسه، وجه الوالد بنظرات عطف، وتمجيد، وإثارة.

وتكلّم:

«هل تعجبك حقيبة أمل الشقراء وصندالها؟».

فهزَّ الصغير رأسه، يجيب، وهو يسترق نظرة إلى وجه أمل: إنَّها جميلة، لكنَّني لست بنتًا».

فأطلق الوالد ضحكة اعتزاز بوليّ عهده، ووعده، وهو يراقب حركاتي:

«سآتيك بدبّابة من باريس! ما رأيك؟».

عندها، بكى أخي الطفل. تدفّقت دمعاته اللؤلؤيّة على خدّه المستعر، وأصرّ:

«أريدها من مصر، ومن مصر فقط».

وضجر الوالد، وتخلّص من عناد ولده مردِّدًا: «سآتيك بها من مصر، لكن لا تبك... الرجل لا يبكي!».

وانسحبتُ من غرفة الطعام، إلى فراشي. فهذه الغيوم تعلن عن اقتراب ليل هائج. سيكسر عظامي خوفًا، ويسحقها.

- ٧ -

قبضت أخيراً أوّل مئتي ليرة، وبيد مرتجفة وقّعت الجدول للمحاسب. فتمتم في أذني شكراً رقيقاً، وتركني مع رزمة الليرات، أشمّها، أتحسَّسها، وأبحلق في نمرها. سأنفق كلّ هذه الليرات دون رقيب أو موجّه. سأنفقها في ساعة واحدة.

وأطلّ رأس من الباب يقتل خلوتي براتبي الطفل. إنَّه وليد، الموظَّف الليليّ في المؤسَّسة، رحَّبت به:

«أهلاً، وليد».

فأسعده ترحيبي، وأدرك أنَّ فرحتي به انعكاس هائج للمبلغ السحريّ النائم بين أصابعي. فسألني:

«أتسمحين لي بتدخين سيجارة عندك؟».

«بل، ستدخّن عندي سيجارتين!».

دهش، وغمغم قائلاً:

«يجهلك من لم يحدّثك...».

فقاطعته بفضول:

«بماذا يصفني الموظَّفون: متكبِّرة؟ صلفة؟ بلهاء؟ ماذا؟».

وبلهجة خاملة، وفيما هو يحني رأسه، ويقرِّب عود الثقاب من فمه، سألني:

«وهل تكترثين أنت لأدوات تافهة؟».

فكَّرت غضبى:

هذا الشابّ وقح، ولكنَّه يمنح المقعد الأخضر الذي يغرق فيه أُنساً، ومعنًى.

وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، وحلّقت نظراته مع كمشة دخان بيضاء، فأسرعت أحشر الليرات في الحقيبة فتلفّت يراقب اختفاء يدي في جوفها، ثمَّ ظهورها الفوريّ، ثمَّ جمودها على الزجاج البارد. فأطلق ضحكته المؤلمة، وأبدى:

«أنت مثلي، لا فرق عندك من أين يأتي المال. المهمّ أن تحصلي على المال لتمارسي به عظمة حرّيّتك».

تمتمت. هل أنا مثله؟

لا، لست كأيّ شخص آخر. فهو يترجم المعلومات السرِّيَّة إلى العربيَّة في الليل، وأنا أذبح نهاري خلف مكتب أنيق، مرتاحة، صامتة، هانئة. فانتزعني من صمتي مقترحًا:

«هل تتناولين معنا العشاء؟».

تفجَّرت حروف دعوته في رأسي، تسدّ أذنيّ، وتفرش غلالة تيه على عينيّ. هذه هي المرَّة الأولى التي يدعوني فيها شابّ إلى عشاء. وسرت في أعصابي نشوة غرور. شابّ يدعوني للعشاء فهل ستضيء المائدة شمعات باهتة؟ وهل ستحيط بي وبه مزهريّات ورد أحمر؟ وهل ستثملنا نداءات موسيقى، تنساب من زاوية مجهولة؟

خبَّأت نظري بين الأوراق أمامي: هل تتناولين معنا العشاء. معنا؟

انتزعت نظري من الأوراق ورميته على وجهه، أسأله:

«هل تعتقد أنَّني مبتذلة؟».

ارتبك، محاولاً شرح نيَّته في دعوتي. فاستوقفته قائلة:

«ثم من هم هؤلاء الذين تدعوني للعشاء معهم؟».

فكمد اللون الأبيض في عينيه، وصرف بأسنانه:

«من هم؟ هم الشياطين الذين يلاحقونني: فإذا مررت في الشارع، نادى أحدهم رفيقه: إلى أين يا مستر إيدن؟

«ومستر إيدن هو أنا».

تبسَّمت، فكشَّر متابعًا:

«وإذا صادف أن التقيت بغيره في مقهى، زحف إليّ وطلب من الكرسون أن يسرع في إعداد قهوة باريسيَّة، لأنَّ المسيو لم يتعوَّد شرب القهوة العربيَّة.

«والمسيو هو أنا».

وكبرت ابتسامتي، فصرخ:

«سأخنق أصواتهم السامَّة هذا المساء. سأدعوهم كلَهم إلى العشاء. سأطعمهم من رواتبي. من قطرات الدم التي ينزفها جسدي في هذه المؤسَّسة. فيتحدَّثون عندها عن كلّ شيء، عن أسرتنا العريقة في دمشق. عن أجدادي الإقطاعيِّين. عن ظلال بساتيننا. عن أيادينا البيضاء في استخدام إخواننا الفلاّحين وإيواء أطفالهم. عن ثقافتي المتينة التي تدرّ عليّ مالاً حلالاً. عن لطفي واهتمامي الرقيق بأصحابي..

«في رنّة كأس. في تيّار أضواء. في هسهسات كعب حذاء، اشتريتها لهم. سأمتلك ألسنتهم ليلة واحدة، لتستأنف هذه الألسنة سخريتها منّي في اليوم التالي، وأنا على الرصيف. في المقهى. في أيّ مكان... لكنْ قولي، هل تقبلين دعوتي؟».

نرفزني كلامه. سألته:

«بماذا تصفني إذا لبَّيت دعوتك؟ وبماذا تصفني إذا تمنَّعت؟».

فعجَّل يائسًا يجيب:

«إذا لبّيت، فأنت مثلي تقصدين الانتقال بعلاقتنا من مرحلة الزمالة إلى الصداقة. وإذا تمنَّعت، فأنت جبانة!».

فتحدَّيته قاسية:

«أنا جبانة. ولا أريدك زميلاً أو صديقًا».

فهبَّ عن مقعده فاشلاً، وقفز إلى الخارج، يدفع الباب خلفه بقسوة... فتنهَّدت. يريدني أن أكون مثله قذرة. هذا القذر!

وحملت حقيبتي، وتمخطرت في انحداري درجات السلَم في المؤسَّسة... إلى السوق، في زيارة إلى كلّ الواجهات الضاحكة، المغرية.

لم يكترث لي البائع، في محلّ «كابري» في سوق الطويلة، وأنا أتفحَّص الكنزة الصفراء، وأزرارها الصدفيَّة البرَّاقة، في الواجهة داخل المحل.

البائع يخدم سيِّدة أنيقة، حسناء، تعجّ حقيبة يدها بمئات الليرات، فوظيفة هذا الرجل مسايرة لابسات الدانتيل، عاشقات الأثواب، جارفات أنابيب الكحل وأصابع الحمرة، ملتهمات الماس واللؤلؤ...

والمرأة تغصّ بضحكتها. يعني هذا أنَّها، حتمًا، ستفتح الحقيبة. فلماذا، إذن، يكترث البائع لفتاة نحيلة لا تتقن الضحك، ولا تتذوَق أسرار الأناقة، ولا ترى وجهها في مرآة، فتركته ذابلاً، قفرا، مهملا؟

مسكين الرجل الذي يعيل هذه المرأة!

ومسكينة، أنا، التي أعيل نفسي، فيعجز راتبي عن تلطيخ عين البائع البيضاء!

انتزعت البائع من معركة إغراء يجبر فيها المرأة على فتح الحقيبة وتجبره هي على استعطافها، وتدليلها، وتوشية تمثال لجمالها... فسألته:

«ما ثمن هذه الكنزة الصفراء؟».

فاشتدّ البريق في عيني الرجل، وظهرت على فمه ابتسامة استخفاف. وأدار لي ظهره يعود إلى المرأة، مجيباً:

«بتسعين ليرة».

تسعون ليرة، ثمن كنزة من الصوف؟ قطَّبت جبيني، والمرأة تشعل سيجارة، والبائع يرميني بالتفاتة ضيق توبِّخني: لا مساومة في هذه السوق. السعر محدود في هذه السوق. الكنزة بتسعين ليرة... لا مساومة... السعر محدود... السوق لأصحاب الملايين... لكلّ امرأة لها عائل... تسعون ليرة.

مئة ليرة، قسط الجامعة الشهري.

خمسة وعشرون ليرة، عيادة الطبيب الذي سأزوره لمعالجة السعال الحادّ الذي انتابني... سأزور طبيباً غير طبيب العائلة. وحدي سأذهب لعيادة الطبيب. وحدي سأسمع نتيجة الفحص الطبّي. وحدي سأبتاع الدواء من الصيدلية. وحدي...

فيبقى من راتبي خمسة وسبعون ليرة، منها أجرة تنقّلي. منها ثمن حذاء عالي الكعب. منها ثمن قلم حمرة.

تسلَّلت مبتعدة عن سوق الطويلة، ودخلت محلّ «عماطوري» أطلب من البائعة اللطيفة أحمر شفاه، ينسجم مع لون بشرتي، واعتذرت أشرح لها:

«لأوَّل مرَّة ألطِّخ شفتيّ بالصباغ الأحمر. لست سمراء، ولست شقراء، فأيّ لون يناسب بشرتي؟».

نبتت في عيني الصبيَّة اللطيفة ابتسامة تدلّ عن مهارتها في تلبية طلبات الزبائن، وصفّفت أمامي على الزجاج كلّ ألوان الأحمر التي ابتدعتها دور الأزياء: كارفن. أليزابيت آردن. وستمور. ماكس فاكتور... أسماء كثيرة، من أميركا ومن أوروبا، فأدهشني أن يفني بعض الناس حياتهم ضياعًا في مزج لون، لشفة!

وما أحسَّت البائعة أنَّني مرتبكة في اختياري حتى انقضَّت على لون فاتر هادئ، وشدَّت يدي تحفّ الرأس الناعم على ظهرها، ثمَّ انتظرت لحظة وارتدّت تفتح درجًا، وتنتشل علبة صغيرة لفّتها بورقة شفَّافة، وسحبت دفترًا تسجِّل عليه... الثمن.

أهملت علبة الأحمر المناسب، وراقبت بوجل يد البائعة، وهي ترسم الثمن على الورقة. ليرة... ليرتان... ثلاث... أربع... أربع ليرات ثمن إصبع قزم، من الحمرة!

ويلزمني إصبعان منها، كلّ شهر، لتزيين عالم شفتيّ الشاسعتين. وأعادت لي موظَّفة الصندوق ليرة من قطعة الخمس ليرات، ومشيت

سكرى، أشتري ثلاث شلل من الصوف، وسلكين من الألومنيوم، لأنسج وحدي: كنزة صفراء تكلّفني ثلاثين ليرة فقط.

لا يفهمون في البيت أنّني وفّرت بشراء خيوط الصوف، وحبك الكنزة بنفسي: ستّين ليرة. فقالت والدتي:

«سأشتري لك الكنزة من محلّ «كابري»، ولا ترهقي صحّتك بنسج هذه الخيوط اللامتناهية».

وحذّرني والدي:

«لن تنجزيها قبل عشر سنين، ووقتك موزّع بين الجامعة والمؤسّسة».

ونصحتني أختي:

«لفّي خيطانها حول جسدك، بدل حبكها قطبة.. قطبة..».

لو لم أباشر بنسجها، منذ رجوعي ظهراً إلى البيت، لبدّلت رأيي. لكنّني أشعر ـ وأنا أدخل صنّارة في قطبة ملتفّة على صنّارة أخرى، ثم ألفّ الخيط، وأحرّر رأسي الصنّارتين من الشبكة... وهكذا.. هكذا.. ليكبر النسيج ويكبر ـ بأنّني إنسان يعطي: يقوم بعمل، ويجني نتائج هذا العمل. يسعدني أن ينتشر في البيت حوار مستمرّ: لمن الصوف؟ الصوف للينا. لينا تنسج كنزة. لينا أنجزت نسج الأكمام...

ـ ٨ ـ

فتحت عيني فإذا عتمة شفّافة تتكدّس حول سريري، وإذا سكون ثقيل يلفّ المرآة، والشبّاك المقفل، والكتاب.. وحتى الشرشف الصوفيّ السميك.

بلباقة، وخفّة، اندفعت إلى الشبّاك، لأختزن في غرفتي المخيفة ضوضاء الشارع. فلاحت سطوح البنايات، وجدرانها، وشرفاتها، والأرصفة، والإسفلت ـ لاحت كلّها تشهق متنهّدة، بعد ليل جنّ بأمطاره وعواصفه. وتغلغل صقيع حادّ أصمّ إلى صدري. فأقفلت شبّاكي، وتراجعت أستعدّ للتوجّه إلى عملي.

عبثًا أحاول تجاهل الكمد الأسود الذي ينخر عينيْ أمّي. فلتتحمّل وحدها همّها...

وزغت حائرة بين الحمّام، والمطبخ، وغرفة الطعام: ليفتّت همّها عينيها! يشتّتني كمدها، ويستدرّ شفقتي عليها! ما ذنبي أنا إذا سافر

الوالد إلى لندن في فجر هذا اليوم المزمجر، لينهي بيع الصفقة، فيغرس في معصمها حبّات الماس، ويفتح لي وللشقراء وللسمراء حسابات في البنك، ويشيد لبسّام الوكالات الفخمة؟

تكلَّمت أخيراً، تلطّف من حدّة نقمتي: «لماذا تأخَّرت هذه الخيّاطة؟ ها هي الساعة تعلن التاسعة صباحاً. انتهى النهار.. توسَّلت إليه ليؤجِّل سفره، في سماء تعلَّقت فيها حيطان غيوم. ماذا يعيق هذه الخيّاطة الملعونة؟ قبل أن يسافر في ليل يمزِّقه الرعد، منح السائق إجازة... ثلاثون سنة، أضعتها في استقباله».

وفركت كفَّيها بثوبها، فوق الفخذين، ثمَّ فتحت باب المدخل، ودفعته، واستوقفتني أمام باب المصعد، تصبّ على كتفيّ نيران حرمانها: «إلى متى سأعاني أعباء مسؤوليّاتكم؟ أنت تكرهينني... أنت...».

نزعت يدها عن كتفي، وقهقهت غضبي:

«ومن يجبرك على البقاء بيننا؟ هل أنا أرغمتك على الزواج والإنجاب؟ هل أنا التي جرفت اللحم عن عظامك، لتستهوي زوجك؟».

ضغطت على الزرّ، وانحدرت، مع انحدار قطرات سوداء من عينيها: أنا معدومة التهذيب. أنا حقيرة. أنا...

وتهت في طريق يرتجف بعريه، بعد ساعات أغرقته فيها سيول المياه الموحلة.

•

وتمدَّدت أمامي بلاطات الرصيف المربَّعة. وتكاثرت. فتبعتها ألفّ معها زوايا، وأبتلع منحدرات، وألتقي بقشور ليمون، داعبتني بزحلقة سليمة. وسحقت سجاير رماها عابر ربط رأسه بخصر نجمة تتألَق خلف الغيم. واستنشق عنها هواء جبل بروائح التراب الرطب، المتصاعد من بين الشقوق حول المربَّعات الرماديَّة.

ولفظني الرصيف، فجأة، إلى مدخل المؤسَّسة الكبير، فتمتمت غيظًا:

من وضع الحدود لرصيفي؟

تنبَّهت توًّا: أنا حقيرة... حقيرة، تافهة، حتى في هذه المؤسَّسة.

واختطفني من شعوري الذليل صوت البوّاب، يقترح:

«أتسمحين لي بمساعدتك، اليوم، في فتح الصندوق؟».

فاستبشرت مرحِّبة به: له شكوى في الصندوق وتقدَّمني يغوص في الظلام، يرتفع على أكياس ورق... فزممت شفتيّ، أبتلع فشلي: الصندوق قاحل. قاحل... وكياسته هذه حتّمها تراكم الأكياس، تعيق وصولي إلى الفكرة الحمقاء، الجبانة، التي يتستَّر خلفها الرئيس!

وشرح الرجل، يعتذر:

«سنرفع هذه الأكياس غداً..».

رأس هذا البوّاب فارغ. وغدي سيدون فارغًا. وهذه المؤسَّسة نفاية رتابة وجبن، وصمت مضطرب، وخوف حالك.

يدفعون ثمنًا لخمولي مئتي ليرة شهريًا، أجرة فتحي الصندوق كلّ صباح، وإغلاقه! هذا المال يضغط على عنقي!

عصرت أصابع يدي، ووقع خطوات الرئيس في مكتبه تفتّت هدوئي. أمّي على حقّ. لن ينتهي هذا النهار! سيطول هذا النهار... لن ينتهي...

رفعت السمّاعة، ورسمت الرقم ١٤ على القرص المنمّر... فرنّ في أذني جرس حادّ، تبعه صوت أنثوي يردّد: «الساعة العاشرة والدقيقة السابعة والخمسون والثانية الأربعون... الساعة العاشرة والدقيقة الثامنة والخمسون... الساعة الحادية عشرة والثانية الثلاثون... الساعة... الساعة...».

أصبت بدوار عصف بنور عينيّ، فأغمضتهما، ودفنت رأسي بين ذراعيّ، وغفوت في وقت هو للحركة، والنشاط، والإنتاج. وما استيقظت حتى رفعت السمّاعة من جديد، فردّد الصوت الأنثوي:

«الساعة الثانية عشرة والدقيقة الرابعة والعشرون والثانية السادسة عشرة. الساعة الثانية...».

دفعت السمّاعة على رأس الآلة السوداء الرابضة على الزجاج، وهربت إلى البهو، فاستأنست بوجه وليد يطلّ من أحد المكاتب. وحرّكت شفتيّ لأبتسم... فاستدار، ودفع الباب بقسوة في وجهي، فيبست في مكاني. ونشبت على شفتيّ حرائق سخرية من هذا الرجل القذر. واصطدمت نظراتي بنظرات الحاجب المتربّص على باب الرئيس.

•

وتراجعت إلى السماعة، لأحاصَر قبل ظهر هذا اليوم بأعاصير القلق المتدافعة في الرقم ١٤ . . .

وفي الساعة السادسة عشرة، والدقيقة الثالثة، والثانية . . تقريباً، أمرنا أستاذ الفلسفة: لنصغِ!

وأصغيت . . .

أصغيت. ذبت آذانًا مرهفة، خلاّقة، تلتقط أدقّ الاهتزازات . . . فسمعت زقزقة عصفور، يحطَ على غصن يابس في جنينة الجامعة. وضحكات الزميل القريب، أحسستها. إنَّها موجعة، تعبة. سأصرخ إن لم يكفّ هذا الخنزير عن تكديس قطع الثلج على رقبتي وخلف أذنيّ، وعن تفتيت أعصاب يديّ، وعن نزع نثر اللحم على ساقيّ! ثم أنا أتفهّم بداية لقاء بين زميلين ينزويان: هو يغمزها مقترحاً، وهي تبتسم موافقة. أسمع حتى بقايا تراطم خشب الشبّاك، حين أقفله الخادم مساء أمس، واستغاثة العصفور، في الظلام، حين بعثرت الأمطار عشّه . . .

إنَّما أمر واحد أخفقت في استيعابه: صوت الأستاذ المأخوذ في سكب طيب محاضرته على الزملاء.

لا، لن ينتهي هذا النهار . .

جمعت أوراقي، وحشرتها في الملفّ الجلديّ الأسود، وانتصبت أترك القاعة، وعيون الزملاء، والأستاذ، تحفر في ظهري ثقوباً، خيِّل إليَّ أنّ الدم يتقطّر منها ويسري تحت الثياب في ظهري . . . وأثارتني في فناء الجامعة دقّات الساعة: السادسة عشرة والدقيقة الخمسون والثانية . . .

سيطول هذا النهار.

لكن، أيبتسم هذا الزميل لي؟ لي أنا؟

تلفّتُّ حولي، فإذا في برود هذه العشية الكئيبة، تنتصب الأشجار رطبة الجذوع، يمرّ بها الطلاّب في اندفاعهم إلى القاعات وخروجهم منها فلا يهتمُّون، حتى بإلقاء نظرة على عريها.

وتعمّد الغريب المبتسم الاحتكاك بي. وتوقّف أمامي فرحًا يهمس:

«هالو...»

وانزلق متخفّيًا بين جذوع الأشجار الرطبة، فعصف بي غضبي، يدفعني على الطريق العامّ:

هالو.. هالو.. أكره اللغة الإنكليزيّة، أكره أن نؤدّي بها تحيَّة، كما أكره أن نؤدّي بها صلاة! وكأنَّ هذا الشاب، الذي عاش في مكان ما من البلدان العربيَّة، لا يتمكَّن من أداء تحيَّة بلغتنا:

هالو... هالو... هذه الكلمة تقطِّع هدوئي ببطء... الذنب ليس ذنب الزميل. فأنا لست سمراء، ولست شقراء. فمن أين له أن يفهم أنَّني من هنا، من لبنان؟

هالو... هالو... ها...

قبعت العبارة في رأسي تدقّ على أطراف أجفاني نغمة رتيبة فتمَّهلت على محطّة الترام أذيق النقمة خرسًا أبديًّا. ولم يتفهّم

المنتظرون على الرصيف سبب انتظاري معهم. كلّهم على الرصيف يراقبون طلعة الترام الزاحف من المنحنى، في الطريق المستقيم، إلى اللوحة الحمراء والبيضاء: موقف.

ووقف الترام، وتسابقوا إلى جوفه كسمك صغير يزدرده حوت جبّار. وتدلّى البعض منهم على المدخل، وتشبّثت أيدي البعض الآخر بقضبان الحديد المركّزة على الشبابيك. واتّكأ شاب على كتف فتاة. وتحسّس كهل ظهر امرأة عطرة. واصفرّ وجه طفلة، تراقب يد غريب تتنزّه على صدر أمّها...

واستغرب الجاثمون على الشبابيك تخلّفي الكسيح على الحائط الرماديّ. ثم جرجرتهم الحافلة، وابتعدت تتبعها أضواء السيّارات، ناقمة على تباطؤ العجلات في كرّها بين حافّتي الخطّ الأجوف.

وتوافد الناس من جديد على المحطّة، وإذا أنا أغوص... أغوص... في بحيرات أضواء حمراء، صفراء، تصبّها دائرات قانية باهرة، رماها أصحاب السيارات فوق الدواليب.

للترام خطّه وسط الطريق. للسيّارات مواقفها. للناس أرصفتهم. وأنا ضائعة، أفتّش غريبة عن مكاني!

الوالد في لندن ينهي بيع صفقة البصل. نصيبي من نجاحها: خمسة وعشرون ألف ليرة لبنانيّة.

وأمّي مع الخيّاطة في البيت، تفصّل قماشًا مورّدًا، لتحفظ به مقاعد غرفة الجلوس.

والشقراء على بوّابة كلّيّة البنات الأميركيَّة، تنادي هسهسة الحلق في أذنيها شابًّا ماجنًا، فيدعوها هذا إلى نزهة على الشاطئ الباكي. في سيّارة سباق طروب... والسمراء تجترّ وقتها بين قلم، وكتاب، وعيادة اختصاصي في النظّارات...

بلا وعي،

وجدت نفسي في بيتنا، فتساءلت: كيف وصلت إلى مأواي؟

وأدركت فوراً استسلامنا للعادة التي نصبت الجمل في الصحراء دليلاً، هذا الحيوان الذي تطبع العادة في مخيِّلته اتّجاهات كل طريق يسلكه مرَّة واحدة... هي العادة المسكرة، إذن، التي دفعتني من الشارع إلى شبه القصر الذي أسكن فيه.

واستقبلتني الوالدة بضحكة مستبشرة، الخيّاطة هنا... منذ الصباح... فلم أبادلها فرحتها. واصطدم بي بسّام وهو يجرّ السكّة الحديديَّة، فلم أزجره. ومشيت بإعياء إلى غرفة الجلوس، حاملة كيس «التريكو»... فارتبكت الخيّاطة، تصلح ياقة فسطانها، وتفرك أنفها، ثمَّ تجمَّعت على ماكنتها متهيِّبة، تسترق لفتة سريعة إلى وجهي، من حين إلى حين.

انطرحت على ظهري، على المقعد، ومددت رجليّ على كرسيّ وفتحت الكيس الأبيض. أدنيت وجهي من فتحته أراقب الصوف الأصفر المختبئ فيه، ثمَّ شككت رأس صنارة في القطبة الملتفّة على الصنّارة الأخرى، ولففت الخيط حوله، وحرّرته من رأس الأخرى، وعدت إلى غرز رأس الصنّارة، ولفّ الخيطان. غرز... ولفّ...

فانتهى الدور الأول،

وتفتّحت على شفتيّ رطوبة ابتسامة طريئة، انطبعت في عيني الخيّاطة، فتنحنحت مكانها تذيب كوم الصمت المتحجّر على شفتها وشفتي، تسألني:

«ماذا تحيكين؟»

فأجبتها بلطف:

«أحيك كنزة لي، لي أنا».

وعجّلت تتقرَّب إليّ.

«لونها رائع. لكن يلزمك شهور لإكمال حياكتها..».

هذه اللعينة!

نبّهت اللعينة دقات الرقم ١٤ على قرص التلفون، وأيقظته في كلّ حواسي، فراح يطلق صعيقًا داميًا في كلّ أعصابي! وتقلّصت عضلات يديّ، فسقطت قطعة الكمّ التي أحيكها بين قدميّ، وانطلقت تائهة إلى التلفون. الساعة العشرون والدقيقة الخامسة والأربعون والثانية والأربعون... الساعة.. الساعة..

أخمدت الصعيق بضرب رأس السمّاعة مرَّات.. مرَّات.. عديدة... عديدة، وتراجعت إلى غرفة الجلوس، لتأمرني الوالدة:

«لينا، المائدة جاهزة. تناولي عشاءك مع إخوتك مرَّة واحدة في الأسبوع على الأقلّ. لينا، هل سمعت ما أقول؟ لينا...».

أراها تطعم الخيّاطة قطعتين من الكاتو. وأراها تلبس خاتم الزواج الباهت في يدها اليسرى. وأراها فخورة بحرصها على ثروة الوالد، واقتصادها، وتدبيرها: فهي تعدّ في البيت أغطية للمقاعد، بينما سيّدة غيرها، في الظروف نفسها، تبدّل كلّ سنة مقاعد غرفة الجلوس... وأراها هزيلة أكثر ممّا يتقبّل الوالد!

لكنّني لن أجيبها، فأنا أودّ أن أحصل على نتيجة ملموسة لمرور هذا النهار..

وهمست هي في أذن الخيّاطة كلمات تأفّف من سلوكي، وحملت أنا كيس التريكو الأبيض، وانزويت في غرفتي أشكّ رأس الصنّارة... وألفّ الخيط... ثمّ أسحب الرأس..

وتكدّس دور فوق دور. وتتالت الأدوار. وكبر كمّ الكنزة الصفراء... ففكّرت على مخدّتي:

الكنزة أنا أصنعها، إنّها لي، أملكها.

والوالد وحده، هو الذي يملك الخمسة والعشرين ألف ليرة.

- ٩ -

منذ لحظات، تدلَّى الصندوق الصغير في فضاء قاعة المحاضرات، فتشبَّث كلّ انتباهي بطيفه الأزرق الباهت. وأهملت النظرية الفلسفيَّة التي وعدنا الأستاذ بشرحها، يوم الخميس الفائت.

في تأرجح طيف الصندوق بين رأس الأستاذ، والسقف، تلمَّست أنَّني أشعل وقتي رخيصاً، في هذه القاعات الباردة. أشعله؟ لا. أنا أفنيه لأغذّي النهج العتيق. السخافات. الفشل...

وكما دخلت القاعة، تركتها لا أحمل ورقة، أو كتابًا، أو قلم حبر... إنَّما تدلَّت في أصابع يدي المرتجفة حقيبة جلديَّة مغلقة على بضع ليرات لا تكفي لاستبدال جواربي المكرورة، بجوارب وطنيَّة بخسة الثمن. كان عليَّ أن أسحق قدم الرجل، وهو يدوس رأس حذائي. لكنَّه أشيب، مريض، لا يملك أكثر من خمسة قروش، أجرة الترام. وأنا أيضاً لا أملك الليرتين والنصف ثمن الجوارب. فلماذا ثقب لي جواربي؟

هل تكفي كلمة عفواً، تعويضًا عن خسارتي للجوارب؟

نحن أغبياء، خياليّون!

وكلّ هؤلاء الطلاّب المكدَّسون على حجارة في الفناء، غسلتها أمطار الليل، كلّ هؤلاء: حمقى!

اقتربت من الحلقة، مع بعض الزميلات، فإذا الجدال يدور بينهم عن المشروع الأميركيّ، لحلّ قضايا الشرق الأوسط. وإذا أحدهم يبدي بانفعال:

«الصحف عندنا مستعبدة. وهذه الصحف مجرمة، لأنَّها تنقل السمّ للقضاء على القوميَّة العربيَّة في المجتمع العربيّ كلّه، وعلى الأخصّ لبنان!».

وانتزع آخر منه الحديث، وأكمل بحماسة:

«ثم هذه الوكالات الأجنبيَّة للأنباء. هي أيضًا كاذبة، تبيع أكاذيبها بجنيهات إنكليزيَّة ودولارات!».

فقاطعه ثالث.

«أما الشعب، أعني نحن، أي. أنتِ...»

ومدَّ يده، ولمس كتفي، وتابع.

«وأنت. وأنت... وأنت... نحن جبناء، ضحايا، فالمشروع علقة تمتصّ دماءنا!».

الحلقة مؤلَفة من طلاّب ينتمون إلى البلدان العربيَّة، يمرّ بها الطلاب الأجانب، فيقفون لحظة إذا سمعوا عبارة إنكليزيَّة، ثمّ يزمّون أطراف عيونهم، يبتعدون، حين يحمى النقاش بالعربيَّة.

كلّ واحد من الزملاء يمثّل منظمة اجتماعيَّة، أو حزبًا، أو إرادة فرد مسيطر. وانتظرت مدهوشة، صامتة...

وأحسست بالوحدة بينهم، وبالتفاهة، وبالضيق. وبدأت أمقتهم حين تحسَّست ضياعي في غوغاء مجموعهم. فهذه الرؤوس تحتوي أفكاراً مغلوطة، دخيلة، هي أخطر علينا من سموم المستعمر.

فتحت فمي لأتكلَّم، فتحرَّكت الرؤوس لمّاعة في وهج الشمس: حمراء. سوداء. صفراء. عتيقة. جديدة. قاتمة... وتعلَّقت العيون بصدري المتمرِّد، الجريء. فتفحَّصت العيون بحذر، فإذا كلّها جائعة، تستعدّ للغرق في بحار من دماء الشعوب كلِّها، لا لنشر الفكرة الاشتراكيَّة، ولا لتوحيد الدول العربيَّة تحت سقف برلمان واحد، ولا لاسترجاع فلسطين، ولا لتحرير الجزائر، كما اقترحوا منذ هنيهة. إنَّما، وهم الآن على أتمّ استعداد لشرب دماء بعضهم بعضًا، لنيل قبلة من شفة ثائرة، وللمسة نهد!

امتصصت شفتيَّ، وغمغمت:

«ينقصنا الكفاح الإيجابي».

فانتفض أحد الطلاب، وحدَّق في شفتيّ بعصبيّة، وأجاب:

«أوَتعتقدين أنَّ رأيك في السياسة صائب، كرأيك في أزياء «ديور»، وحمرة «ماكس فاكتور»، وكل الروائح، والعطور؟».

الوغد!

وشعرت بكفّ زميلة تبعدني عن الحلقة شارحة: «هو طالب كويتي، أعتقد أنَّه لم يعتد سماع رأي امرأة في أمور تخصّ الرِّجال!».

فتركتها على محطّة الترام، أتمتم: يعتاد، يعتاد، حتى موتنا هنا عادة...

وابتدرني الرئيس فور وصولي إلى المؤسَّسة، آمراً:

«سيصل إلى المطار الدولي الأمين العامّ للأمم المتّحدة، سيتوجَّه توًّا إلى السفارة الأميركيَّة. ستنوبين عنِّي بانتزاع بعض الإيضاحات عن موقفه من الأحداث العربيَّة...».

ماذا؟ أنا أقابل الأمين العامّ للأمم المتّحدة؟

لكن، كيف يعهد إليَّ بمثل هذه المهمَّة، دون أن يسألني إن كنت موافقة على تنفيذها أم لا؟

أيعتقد أنَّني قتلت كلَّ معاني فرديَّتي، هذه التي أطلق عليها اسم: غرور الشباب؟ ثم من قال له إنَّني كففت عن استعمال ضمير الجمع في حديثي عن الفرد؟

حرَّكت شفتيَّ لأرفض... وعدت وأطبقتهما. أنا أرغب في أن أثبت لنفسي أنَّني قادرة على إبداء رأي في السياسة، قدرتي على اختيار لون وتفصيلة لثوبي.

وفي السفارة الأميركيَّة، أُدخلت إلى غرفة ضيِّقة، يشغلها رجل نحيل يلبس نظّارتين. وبعد أن رحَّب الرجل بقدومي عاد إلى مكتبه، وتاهت عيناه في عناوين الصحف المكدَّسة أمامه.

•

كان الانفعال ظاهراً في حركاته. وكان يرسم دوائر حمراء حول بعض المقاطع، في كلّ صحيفة يتفحّصها بانتباه. ودخل رجل ثان يحمل قدحًا من عصير البرتقال، قدّمه إليّ قائلاً:

«نرجو ألا يزعجك الانتظار». واختفى.

ركّزت قدح العصير على طرف المقعد، وأسندته بيدي ورحت أراقب حركة السائل فيه:

لم أحلم يومًا بأنّني سأقوم بعمل سياسيّ.

قد يكون عملي تافهًا، لا خطورة فيه أو بطولة، لكنّني لم أحلم بأنّني سأشرب عصير البرتقال في سفارة.

رفعت القدح، وأدنيته من فمي، فإذا رائحة غريبة تنتشر على وجهي، وتسري في أعصاب يدي... فارتجفت يدي بالقدح. خفت أن ينسكب على ثيابي. وخطر لي أن أنهض، وأقترب من الرجل، وأصبّ السائل على رأسه وأنفه، وعلى الجرائد. ثمّ أنتزع منه القلم الأحمر، وأنقر بطرفه الحادّ على زجاج نظّارتيه!

وقفت... فانتفض الرجل، ورفع رأسه حانقًا، وأمرني بلين:

«أرجوك أن تتفضّلي بالجلوس. وهذه بعض الصحف، إن كنت ضجرة».

وعدت إلى الجلوس كما أمر، دون أن أفكّر: لماذا يجب أن أعود إلى الجلوس، فلا أنقر مثلاً بالقلم على نظّارتيه، أو أغادر السفارة؟ وعدت إلى مراقبة السائل.

ليت هذا الرجل يصغي إليّ، لأخبره عمّا يجول في خاطري الآن. فأنا سأخبره رغماً إن هو رفض الإصغاء، أنا أحلم...

لا! لا يجوز لي استعمال كلمة أحلم، لأنّها تعني أمراً لا يمكن تحقيقه، أو أمراً تساعد الظروف على تحقيقه. وأنا لم أفكّر يوماً بأمر لا أضمن إمكانية نجاحه، ونتائجه، ومسؤوليّاته.

لا، لن أخبره لأنّه لن يفهمني. سأخبر أمّي في المساء، سأسجّل هذه الفترة من حياتي في ذات أمّي. ويكفي أن أنظر إلى أمّي، لأنسى أنّها هي الوالدة ويطالعني على وجهها: رجل يلبس نظّارتين. قدح عصير. دوائر حمراء. جنود على المدخل.

أمسكت الصحيفة، فإذا هي مصريّة، وإذا الدوائر الحمراء تكاد أن تحاصر الصفحة الأولى منها. وإذا الصحيفة ـ بصفحاتها الأربع ـ شتيمة كبرى في وجه من يحاولون إفناءنا!

وكأنّ الرجل استدرك أمراً ما، فهبّ عن كرسيّه، وانتزع الصحيفة من يدي، وهو يتمتم: «معذرة! معذرة!».

وعاد إلى الغرق في الشتيمة الكبرى.

فتضايقت، وأفرغت العصير في فمي. وتصارعت في رأسي ملايين الأسئلة، وتمنّيت أن أسأله سؤالاً واحداً: هل باستطاعتي إبداء رأي قيّم في السياسة، كقيمة رأيي في تفصيلة الثوب الذي ألبسه، ونوع حمرة الشفاه التي ألوّن بها شفتيّ؟

سأسأله... وضحكت بمرح. فذهل الرجل ذو النظّارتين! وهب عن كرسيّه، وتركني في الغرفة وحيدة... ثم عاد بعد دقائق، ليقول:

« اتّصل بنا الأمين العامّ، ولن يحضر إلى السفارة ».

وتفحَّص وجهي منتصراً، يؤنِّبني:

« كان عليك محاولة رؤيته في المطار ».

كان يتكلَّم. وكان صوته ينطلق من حنجرة خُيِّل إليَّ أنَّها غير حنجرته! كانت كلماته تتقطَّر من فمه في أذني، سلسة. سهلة. متتابعة... كأنَّها خيط ماء ينحدر في « مغسلة » بيتنا حين تفتح سميحة، الخادمة، الحنفيّات، وتتلذَّذ بسماع نقيق انحدارها... ثمَّ توقَّف، تماماً كما يتوقَّف نقيق الماء، بعد أن ينضب في الحنفيات.

ولم أمدّ يدي أصافحه عند الباب.

أفرغت كلمات الرجل ذي النظّارتين في أذن الرئيس، كما قالها: حرفًا، حرفًا، وبتسلسل... ثمَّ توقَّفت أستطلع تأثيرها على وجهه، فلم يرفع نظره عن الأوراق، وضحك، قائلاً:

« ستنجحين في مهمّة غيرها. لا بأس! ».

هذه الـ « لا بأس » تثيرني!

إذا كانت « لا بأس »: أنَّني سأحصل على المال في أول كلّ شهر، فأنا أريد أن أقوم بعمل ملموس مقابل المال. وإذا كانت تعني: لست قادرة على إبداء رأي قيِّم في السياسة، كقيمة رأيي في حمرة « ماكس فاكتور »، والروائح والعطور... فأنا سأثبِّت له ولغيره، أنَّني قادرة. قادرة...

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ALIBABA

- ١٠ -

بينما أنا أعبر مدخل مكتبة الجامعة، تسرَّب إلى أذني هذا الهمس المتقطِّع، بين زميل وزميلة:

«ما رأيك لو دعوتك إلى العشاء عند فيصل؟».

«فكرة مدهشة، رائعة».

والتفتُّ، لتتنشبك أمامي ذراع بذراع. وتنقّلا، وأنا خلفهما، إلى فيصل...

وانتحيا ركنًا منعزلاً.

وجلستُ خلف طاولة، حولها ثلاثة كراسٍ. وأدرت ظهري للباب، مواجهة كلّ من في المطعم.

هناك عدّة طاولات فارغة في الوسط. أما الطاولات القائمة بجوار الحائط، وفي الزوايا، فيشغلها زبائن من الرِّجال والنساء.

ليس في المطعم امرأة واحدة تجلس وحيدة، مثلي، مغروسة على الكرسيّ.

أنا وحيدة.

نقّلت نظري بين الكراسي، والحضور، فشعرت من جديد بتفاهتي، وأدركت أنّني أحتاج إلى رفيق: إلى رجل يشغل فكري بأمور لم يتعوّدها... فلماذا لا أدعو، مثلاً، هذا الشابّ الوحيد قبالتي إلى مقاسمتي الطعام؟ سأدعوه!

لكن، وإذا امتنع، فماذا سيقول عنّي؟

أفلا يحسّ هذا الشابّ، أنّه في حاجة إلى فتاة تجلس قبالته؟ أوَليست حياته جافّة تطلب عطفًا، وحبًّا، ورعاية؟ ألا ترعبه هذه الليالي بأرقها، ونقصانها، ورهبتها؟

أظنّ: لا.

فهو وحيد، لأنّه على الأرجح تعمّد أن يكون وحيداً. وبعد ساعة، أو أقلّ، سيتيه عن الوعي غارقا في فراش معطّر، والغرفة مضاءة بشمعة شاحبة، والستائر الحمراء مسدلة على النوافذ، والباب محكم الإغلاق... ثمّ يفيق من تيهه، حين يودّ، لا حين يتعب المنهل... ويرجع إلى غرفته، والصباح يضحك في جوانب بيروت، والناس، العمّال من الناس، يزحفون على الأرصفة، إلى مصانعهم، والحارس الليليّ يخبّئ الصفّارة في جيب سترته العلويّ.

يرجع.

فلا يستجوبه أحد: أين كنت؟ ماذا فعلت؟

وأنا، أنا التي لن تفقد وعيها بأيّ ثمن، إذا رجعت إلى البيت في الثامنة مساء، طالعتني علامات الاستنكار محفورة في العيون: أين كنت؟ ماذا فعلت؟

هذا الوحيد يدخّن سيجارة، وهو مشغول عنّي بقراءة جريدة ذات نزعة حزبيَّة... راقبته دقائق وتساءلت:

هل ينتمي هو إلى هذا الحزب؟ أيملأ الحزب فراغ حياته؟

ضحكت.

فكلمة فراغ، والمشروع الأميركيّ الجديد، أثارت تعليقات لاذعة في أكثر الأوساط، عندنا. وإذا كلمة فراغ وحدها كافية لتصوير مشاكلنا السياسيّة الدوليَّة الخطرة. وكففت فجأة عن الضحك، لتتسمّر عيناي على الكرسيّين الفارغين، وغضبت:

هذان الكرسيان يهزآن بي. إنَّهما يضحكان أيضاً. إنَّهما يحاولان أن يتساويا بي، فهل أنا كرسي؟

هل أنا كرسي؟

أشعر بأنَّني كرسي، بمجالستي للكراسي. لا، لست كرسيًّا. سأحرِّك كلّ عضو من أعضاء جسدي بحركة اختياريَّة، حركة لا تنجح الكرسيّ في القيام بها.

رفعت ذراعي، فكفّ صوت المتكلّم على الطاولة المجاورة عن سرد نكاته. وصفعتني رفيقته بنظرة قاسية، ثمَّ غمرت وجه الرجل باعتزاز،

تشجِّعه على إهمالي، ومتابعة حديثه... ووقفت أنا، وحملت الكرسيِّين، ونصبتهما بجوار طاولة خاوية، وعدت إلى مائدتي.

فهذه المرَّة الأولى أتناول فيها طعامي على مائدة غير مائدة بيتنا. فأنا إلى اليوم لم ألبِّ مع العائلة دعوة إلى وليمة، لأنَّني لا أتحمَّل منظر الداعين إليها، وهم يمدحون هذا الصنف، أو يصرُّون على الاستزادة من ذاك... وهم أخيراً يدرسون كلّ الحركات وكلّ السكنات.

فتَّشت عن «الكرسون»، بعينيّ، في زوايا المطعم، فإذا هو منهمك بتحضير مائدة لطالبين أميركيِّين. وعدت، فأفرغتُ جرعة ثانية من الشاي في فمي. لهذا السائل طعم غريب، لم أتذوَّق هذا الطعم للشاي، في بيتنا؟

عندنا في البيت، للشاي، كما للكوسى، للأرزّ، للمربّيات، للفواكه، لكلّ أنواع المآكل، طعم واحد!

أنا الوحيدة في البيت التي اكتشفت ذلك. وتغضب والدتي، تغضب حين أتناول الحلويات أو الفاكهة قبل الحساء؛ حين استعمل صحنًا واحداً أصبّ فيه كلّ الأنواع الموجودة على المائدة، وأمضغ لقمة من هذا النوع، ولقمة من ذاك! تثور والدتي، لأنَّها تظنّ أنَّني نهمة قليلة الأدب، لا! لا، لأنَّ لكلّ أنواع المآكل، عندنا، طعمًا واحداً!

مسكينة والدتي! لا تعرف من الحياة إلاّ أن تشارك الرجل فراشه، وتطهو له الطعام، وتربّي له الأولاد.

والوالدة بارعة في مهمّتها. كنت أتلمّس تفوّقها في مهنتها هذه، في ضحكها المتقطّع المطالب، الملحّ، وفي أثوابها المكشوفة الصدر، الحاسرة عن ثدييها.

منظر اللحم، لحم والدتي، يثير قرفي منها! إنّها أنثى. إنّها مصدر عطاء. إنّها ينبوع يتدفّق، تلزمه مجارٍ كثيرة، واسعة عميقة، ليصبّ فيها...

تُحرم والدتي في أكثر الليالي. أحسّ ذلك، في ضحكها الحيوانيّ، المذبوح. وفي مزاجها المتعكّر.

ولا يتعكّر مزاجها، وينحسر ثوبها، ويتقطّع ضحكها حين تُحرم فقط، بل حين يشعط الأرزّ بين يدي «سميحة»، وحين يشاكسها أحدنا. والغريب في نفسيّتها أنّ تعكُّر عنصرٍ واحدٍ من عناصر شخصيَّتها الثلاثة يكفي لإثارة العناصر الباقية!

أتمنَّى لو تتيح لي أمّي فرصة لإعطائها بعض النصائح، ولمناقشتها فيها. لكنَّني لو فعلت، لما غفرت لي وقاحتي ودناءتي، ولما صدّقت أنَّني لم أعش حياة الأخذ والعطاء.

لا! لن تصدِّق أن زميلتي السوريّة، التي تزوَّجت منذ ثلاث سنوات، وكانت في السابعة عشرة من عمرها، قصّت عليّ كيف يغتصبها زوجها كلّ ليلة، دون أن يدعوها للمشاركة. دون أن ينبس بكلمة. دون أن يمنح قبلة.. هكذا، يغتصبها كأنَّها جيفة يعبث بها، ثمَّ يرميها على السرير ويغادر الغرفة.. فتتقيَّأ كلّ ليلة، بجانب السرير،

على حافَّة الشبّاك... وما يأتي الصباح، حتى تنسى الليل، في تحضير طعام طفلتها!

انتهيت من تناول العشاء.

وأحسست بنشوة، وبارتواء، وبحرارة هادئة ثمَّ مضطربة تسيّر أفكاري، فتركت المطعم. وعادت تستيقظ على الرصيف المبتهج، حاجتي إلى انتصاب قامة رجل تعلو على قامتي، آنس بها وأستبشر، فأشبك أنا أيضًا ذراعي بذراع، وأتمخطر تيّاهة الخطى، بدل زحفي البطيء، الدامي، وحدي على الطرقات. وأرمي رأسي في المساء الهائج، الصقع، الخيف، على صدره. وأقطر في سمعه، مغمضة العينين، كلّ ما يرهق بريق عينيّ المجهدتين، وجسمي النحيل، اليانع... فيكرّس لي هو كلّ عطفه، ويساعدني على إيجاد خصائصي: شرقيَّة أم غربيَّة؟ جميلة أم قبيحة؟ أصلح لإبداء رأي قيّم في السياسة أم لا؟ طالبة في الجامعة، أم زائرة؟ ونهجر هذه الأمكنة التي وُلدنا فيها، لنسافر إلى أرض فسيحة، وبلدان مجهولة، نزور آثارها ونتعرَّف إلى أهل الأرض كلّهم.

واصطدم رأسي بغصن شجرة يتدلّى على جدار، فخدش جبهتي، وسال عليها خط دماء رفيع. أخفضت رأسي، ومسحت الدم بمنديلي، ثمَّ أكملت سيري إلى البيت...

وصلت إلى شارعنا في الثامنة والربع، عرفت الوقت من المذياع، وفي دكّان بائع حليب، يعلن انتهاء نشرة الأخبارة المسائيَّة الأولى.

شارعنا مقفر والليل هادئ. وأنا أسمع وقع خطواتي في مداخل البنايات، فلهذا اطمأنّيت في سيري واكتشفت في العتمة أوراقًا بيضاء، تتناثر على الرصيف. ففكَّرت:

سيأتي الزبّال بعد قليل ليجمعها، ويقذفها في مياه البحر العميق. لماذا لا أجمع هذه الأوراق وأفتِّش فيها عن إنسان؟

انحنيت، والتقطت ورقة بيضاء ملفوفة بإحكام. فتحتها، فإذا فيها: بصقة! ضحكت، وتمتمت: هذه البصقة هي إنسان مهذَّب: أنيق. ابن عائلة... لكنَّه كذَّاب.

تسلَّقت السلَّم بحذر، واتَّكأت على الجرس بيدي. وانتظرت.

سمعت ارتطام أوانٍ زجاجيَّة في المطبخ. فاستغاثة. فصوت والدي الزاجر. فالهمسات. فدندنة الحذاء الجديد. فوشوشة الباب وهو يفتح: ثمَّ رأيت وجه أمِّي الساخر، المهدّد:

«لتتفضَّل جلالتك!».

رحَّبت بي والدتي ترحيبها بملكة. وتفضَّلتُ، رافعة الرأس كملكة، دون أن أرمي تحيّة... فأسرعت تسحبني بثيابي، وتوقفني آمرة:

«عندنا ضيوف، لا تدخلي إلى الصالون. سألوا عنك، فأجبت بأنَّك نائمة، أنت نائمة أليس كذلك؟».

أنا نائمة، وفي يقظتي؟

أمّي بلهاء، ولن أشوّه يقظتي، كما لن أشوّه لون معطفي بلون آخر: نائمة، تساوي يقظة؟ وأصفر، يساوي أزرق؟ لا . . .

تملّصت من يدها، وركضت، ووقفت على عتبة باب الصالون لأرى من هم الذين سألوا عنّي، وإن كانوا يتساوون والكذبة التي ابتدعتها أمّي . . . فإذا هم جيراننا اليهود!

وشهقت اليهوديّة العجوز:

«ها . . ها هي . . هل . .»

«نسيت . . نسيت، وفي رأسي ألف مشكلة . . كانت في الجامعة . . .».

لم أتفوّه بحرف واحد، هززت كتفيّ، وأدرت ظهري، وحرّكت رجليّ، فتساقطت همسات اليهوديّة الحسناء تستجوب الشقراء:

«أليس لها فتى يوصلها إلى البيت في المساء؟»

فابتلعت أختي حياءها بضحكة متقطّعة، وتبعتني إلى غرفتي!

- ١١ -

نهضت عن مقعدي في المؤسَّسة، وجمدت وسط الغرفة، ثم عصرت أصابعي بعضها ببعض، فتسلَّل خاتمي الفضّيّ متدحرجًا على الأرض، وانزوى خلف الألمانيَّة.

تسلَّل الخاتم من إصبعي وخُيِّل إليَّ أنَّ ثيابي هي أيضًا تتساقط عن جسدي. واتَّسع فمي. وكبرت الدائرتان السوداوان حول عينيّ.

أنا تعبة.

انتشلت كتبي عن المكتبة الصغيرة، ووضعت كتابين على المقعد الأوّل، ودفترًا وقلم الحبر على المقعد الآخر. ولوَّنت عيني القرد في صورة الروزنامة بالقلم الأحمر. وأدرت التلفون إلى الجهة اليسرى. وفتحت زجاجًا واحدًا من النافذة. وملأت قدح القهوة ماء من الكوب الزجاجي السميك... ولم يبق غير جسدي أخفي به الكرسي المتحرِّك،

خلف المنضدة. وشعرت بارتياح حين جلست وأغمضت عينيّ من جديد.

ثمَّ فتحت عينيّ وتفحَّصت ما حولي، كأنَّني أرى هذه الغرفة للمرَّة الأولى.

زحفت إلى النافذة، وأزحت عنها الستار فإذا خادمة البيت المقابل تنشر الغسيل على السطح بخفّة فائقة. أمعنت النظر في جسدها المترهِّل، وتساءلت:

أيُّ رجل يشتهي هذا الجسد الغليظ الذي يشخر كجسد البقرة والحمارة؟ وفكَّرت: والدي يشتهي الأجساد المترهِّلة!

ثمَّ تراجعت عن النافذة وانتصبت إزاء زجاجها أتفحَّص صورة جسدي المنعكسة عليه، فإذا جسدي نحيل، نحيل جداًّ، وشفتاي باهتتان مليئتان مرتجفتان... تحسَّستهما بأصابعي المتجلِّدة، وفركت عينيّ ورجعت إلى مقعدي أفكِّر:

أخلق جسدي ليحيا تافهًا كغيره من الأجساد: فيُمدح. ويُستشار. ويُستوحى. ويُمنح... ثمَّ يفنى كأنَّه لم يتنعَّم يومًا، ويُستوحى، ويمنح؟

ارتماء هذا الجسد في المؤسَّسة مهملا يبرهن على أنَّني هنا كالمنضدة، كالكرسي، كالطاولة، وأنَّني حين أغادر هذا المكان سأستبدل «بواحدة» غيري، تمامًا كما تُستبدل المنضدة بمنضدة غيرها، والكرسي بكرسي غيره، والدواة بدواة غيرها... فلن أترك أيّ نقص، ولن أعرقل أيَّة حركة.

ويح الرئيس الذي يعتقد أنّني أداة!

فهو يستخدمنا كلّنا كالأدوات... سأواجهه...

ودفعت الباب بذراعي.

دفعته... لا لأنّني كنت متشجّعة. لا، أنا خائفة!

أخاف أن يرميني الرئيس خارجاً، فأعود إلى قيد والدي وإلى ترك الجامعة، وإلى التجوال في شوارع العاصمة.

أنا خائفة، لأنّني أدرك نتيجة خصامي مع الرئيس. ولهذا، قبل أن أدفع الباب، لم أكن أعلم أنّه غير مقفل!

وأدار الرئيس رأسه الصغير بهدوء وخلق، بطريقته الدبلوماسيّة، ابتسامة في عينيه البرّاقتين، فتلاشى غضبي وخمدت ثورتي. وخلقت مثله طريقة دبلوماسيّة للغضب، فأمرته بوقاحة:

«أمعن النظر في وجهي!».

فاصفرّ وجهه، ثمّ ابتسم، ربّما لأنّه تعوّد. أوَ لم يتعوّد سماع هذا الأمر من امرأة؟ ومدّ رقبته، مدّ وجهه كلّه، لا ليحدق، بل ليرشق بعينيه وجهي المنتصب أمامه فائراً. سألته:

«أفي وجهي ما يدلّ على أنّني غبيّة؟».

فهزّ رأسه مستغرباً، وظلّ صامتاً وردّدت بإعياء:

«ما معنى جلوسي في مكتب أنيق؟ ما قيمة العمل الذي أعمله؟ باستطاعة أيّة واحدة غيري القيام بمثل ما أقوم به. أنا لست كالباقيات، أريد ألاّ أكون كأيّ إنسان آخر..».

كبرت ابتسامته.

وأنا لا زلت خائفة، لا من الرجل الصامت المحدِّق. لا، فأنا مستعدّة لصفعه إذا صفعني! لتحطيم المقعد على رأسه وقتله إذا تحدّاني! إنَّما خائفة من التشرُّد في شوارع بيروت...

ومرَّ أمامي خيالي الهزيل، وهو يزحف رويداً على الرصيف، والوقت ليلاً، والناس يهرولون إلى بيوتهم يحملون لفائف وزهوراً وجرائد. والشبح يزحف... ويزحف... متفادياً السير بمحاذاتهم، لأنَّه يتعمَّد أن يلاحظ كلّ من يراه أنَّه يحيا. هذه هي هواية الشبح: أن يحسّ الناس بوجوده.

بدا الاهتمام على يدي الرئيس، فتحرَّكتا.. وزاد خوفي. وطنطن في أذنيّ دويّ مخيف، وبدت أمامي ملايين العيون ـ كلُّها عيناه ـ اذهبي! اذهبي!

أأذهب حين يطردني؟ وأتوجَّه إلى البيت، فأقصّ على والدي النبأ السعيد، ليصفِّق فرحًا، ويجلس على حافّة سريري واعداً، مواسياً... ولتأتي والدتي، والعطر يفوح من خيوط ثيابها، فتلمس جبهتي بشفتيها الباردتين.. وتزفّ الشقراء والسمراء إلى كلّ صديقاتهما، حرصي أخيراً على كرامة العائلة؟

تعالت الطنطنة، فأسرعت وسددت أذنيّ بأصابعي، واسترحت على المقعد. فترك هو مقعده، ووقف أمامي دون أن يتفوَّه بحرف واحد.

سكن الدويّ في رأسي، ومرَّت دقائق وجوم وهو منتصب أمامي اخرس، وأنا أعالج الأجوبة التي سيحطّمني بها. ورفعت نظري أجازف في تحمُّل شرر هيجانه، فإذا نظراته معلّقة بساقي اليسرى التي عرّاها التفاف ثوبي على الساق اليمني، فوددت عندها أن أقطع له الساق، وأحشرها بين مآقيه، ليسيل دمها في فمه، من العروق المذبوحة.

لكنَّه تكلَّم:

«هل عندك بعد ما تقولينه؟».

حرَّكت رأسي أن لا. فسألني من جديد:

«من هو الرئيس، ومن منّا الموظَّف؟».

لهجته لطيفة، محترمة، ساخرة، شجَّعتني على الإجابة:

«الآن، أنا إنسان وأنت إنسان...».

فقاطعني ضاحكًا:

«أتؤمنين أنت بمبدأ المساواة، أنت التي تمرّ بزملائها فلا تكترث لهم: لا تلقي تحيّة، لا تشارك في حديث، كأنّ زملاءك حيوانات تنهش لحمك...».

ارتعدت، فاقترب منّي خطوات، وفي بريق عينيه شفقة، وعلى فمه عبارات أبويّة، وفي يده حين لمس يدي قوّة ومؤاساة، وأمرني:

«اذهبي».

فاصفر وجهي، ودارت الغرفة بي، لكنّه تابع:

«اذهبي لمشاورة الطبيب، لعلَّك محمومة. أفكارك هذه غير طبيعيَّة، سببها طغيان الحمّى. ثقي بي، سأهيِّئ لك مستقبلاً مجيداً».

أيكون الرئيس بدوره محموماً؟

وبوضوح أفهمته:

«لكن، لكنَّني لست مريضة».

فضحك، وهو يربّت على كتفي، وأوصلني إلى الباب، وتمنَّى لي ليلة هنيئة.

وفي الشارع، لاحت لي أضواء السيّارات مخيفة في بداية هذا الليل، كأنَّها عيون كواسر تفتِّش عن فريستها، فالتصقت أكثر وأكثر في جدر البنايات على الرصيف، وأحسست في سيري إلى الجامعة بدوار هائل، وبضعف في رجليّ، وبنيران تضطرم في عينيّ.

يخيفني سقوط الشمس، كلّ يوم، في الأفق البعيد. وترعبني الأشباح التي يغرسها الليل في كلّ زاوية، وعلى الجدر، وفي العيون. وحاولت مرَّة أن أقاوم خوفي، فتركت نور غرفتي مضاء طوال الليل. وفي اليوم الثاني فاجأت جارنا يتهامس مع والدي، على مدخل منزل الجارة المترهِّلة. وقبل أن آوي إلى فراشي نبَّهتني الوالدة: «لينا، اطفئي الضوء في غرفتك قبل رقادك».

في رهبة الظلام، وصلت إلى قاعة الدرس. فإذا بعض الزملاء قد تأخَّروا عن موعد الدرس... فتعلَّقت عيناي بالمقاعد، وأخفقت في صرف انتباهي عنها، وصارعت لاستيعاب عبارات الأستاذ. عبثاً، فالمقاعد الفارغة تعذِّبني.

المقاعد فارغة.

تذكَّرت الكرسيَّين في المطعم، وكيف أبعدتهما عن طاولتي. وخطر لي أن أنهض، وأبعد كلّ المقاعد عن ناظري، ثمَّ استحسنت أن أسأل زميلة تجلس أمامي:

«ألا تزعجك هذه المقاعد الفارغة؟».

فتمعّنت في وجهي ببلاهة، وقلبت شفتها السفلى، تجيب:

«لا أدري ماذا تعنين بفراغ المقاعد؟ هذه جمادات لا قيمة لها».

وعادت إلى إصغائها.

كأنَّها كائن غريب. تفحَّصت جسدها كلّه وصمَّمت على اكتشاف ما يجول في بالها. ليتني أكسر عظام رأسها، فسألتها:

«إذا كنت جالسة، وحولك كرسيّان فارغان، فماذا تفعلين؟».

هزَّت كتفيها بإهمال، وكتبت لي جوابها على بطاقة دعوة لمحاضرة ستسمعها في قاعة محاضرات الندوة اللبنانيَّة، في تمام السادسة والنصف: لا شيء.

لا شيء،

كأنَّ هذه الكلمة الصغيرة، المقتضبة، تحلّ مشكلة خطيرة. لا شيء، كلمة لن تثنيها بأيّ ثمن عن فهم كلمات الأستاذ الغالية. فأخبرتها كيف أبعدت الكرسيّين عن طاولتي في المقهى، والأستاذ يرميني بنظرات شذر وتأنيب، فشهقت...

وتوقَّف الأستاذ عن الكلام، وانصبَّت عليّ العيون مستطلعة واعتذرت الزميلة، وتشاغلت أنا بتصفيف أوراقي، في ملفّ جلدي أسود، وفكَّرت:

«كيف؟ كيف لا تشعر هذه بالنقصان؟ بالحيرة؟ بالقلق؟».

وفي تمام الساعة الخامسة والنصف، رمى الأستاذ جزءاً من حروف كلمته في مسامعنا. وابتلع القسم الآخر ليكون على حساب محاضرة الثلاثاء القادمة.

وهرولت الزميلة النشيطة إلى الندوة لتكتسب معرفة أوفر من الرؤوس التي تختزن مجلّدات مكتبات الغرب وأميركا... فتبيعها على دفعات من المؤسَّسات الثقافيَّة عندنا.

وخطر لي أنَّني صادفت مرَّة في مطعم الجامعة طلاَّباً من الجزيرة العربيَّة، يزدردون طعامهم بالشوكة والسكّين، ويتناقشون بالإنكليزيَّة، ففكَّرت: إلى متى ستدوم هذه الصبغة الأميركيَّة عليهم؟

وسحبت جسدي من القاعة.

أمامي ساعات لامتناهية الطول والعمق والرحابة والغموض. عليّ أن أقفز حواجز صعبة، متعدِّدة، لألتقي بفراشي. فأنا، ما دمت أطمح إلى الوصول إلى الفراش، عليَّ أن أعيش عالم المكتبة، وعالم الشارع، وعالم العمّ سام، وعالم درجات بيتنا، وعالم المطبخ في بيتنا، والصالون، والممرّ الشاسع... وأخيراً عالم سريري الموحش.

القسم الثاني

ـ ١ ـ

شهر مضى . . .

وفي طريقي إلى الجامعة، لم أتمكَّن من السير حثيثًا على الرصيف. ولم أكن مأخوذة بفوران أفكاري، وغرقها في الأحزاب، والمشروع العسكري، والجسد، والعمل، وفلسفة العقائد الدينيَّة والمستقبل.

كنت أفكِّر بأمور جديدة، هي: تحديد موقفي من كلّ هذه المشاكل.

وفي فناء الجامعة لمحت أشجاراً مخضرَّة الأغصان، شاهقة الرؤوس. فتفحَّصتها بلهفة، كأنَّني أرى الأشجار للمرَّة الأولى في حياتي. وانحنّيت إلى التراب، أتحسَّس بكفّي حبَّاته، فإذا هو بارد، خفيف البرودة.

استقمت، فألفيت عيون بعض الزملاء تدرس حركاتي، وتبتسم. حدَّقت بهؤلاء الزملاء، فإذا هم اليوم أكثر من أجسام تمضي وتذرع الطريق بين البيت، والسوق، والجامعة: هذه الابتسامات الهادئة، تلقّنني درسًا في الإنسانيَّة، جديداً هو أيضًا عليّ.

وقْع الأصوات على مسمعي غريب.

وفيما كان الأستاذ يحاضر، تذوَّقت، للمرَّة الأولى في حياتي الدراسيَّة، روعة الجمل المتدفِّقة، والنبرات المعبِّرة: ليونة. جفاف. اندفاع. سكون.

والأمر الأكثر تجدُّدًا في هذا اليوم هو أنَّني لن أذهب إلى المؤسَّسة.

في طريقي إلى المكتبة سمعت خلفي صوتًا ينادي:

« يا آنسة. يا آنسة ».

تلفّتّ، فإذا أستاذ الفلسفة يستريح على مقعد أخضر بجوار صبيَّة تعقص شعرها الطويل في قمّة رأسها، وترتدي معطفًا أزرق. لكنَّها غير الصبيَّة التي كان يجالسها في المكتبة.

ارتعدت، فأشار بيده أن اقتربي.

فاقتربت، وكأنَّني أجرّ معي كلّ بنايات الجامعة، وكلّ أشجارها، وكلّ أجسام طلاّبها. اقتربت، اقتربت... وما لمحت عينيه تبرقان خلف زجاجتيهما حتى عضضت شفتيّ أبدِّد الرجفة في رأسي. سألني:

« كنت تداومين بانتظام، أوَّل السنة، على محاضرات الفلسفة ».

فقاطعته: «نعم. نعم. سأحاول...».

فقاطعني بدوره مستاء:

«حاولي أن تكوني في الصفّ، يوم الخميس القادم».

كانت الصبيَّة تتفحَّصني بشرود، فلاحت لي كتمثال أبيض البشرة، اشتراه صاحبه، لأنَّه هاوي تماثيل، تنسدل عليها ألوان زرقاء.

شهر مضى، كنت فيه طريحة الفراش، مستسلمة لأوامر الطبيب والوالد الذي عاد من لندن بأنجح صفقة تجاريَّة عقدها بعد الحرب العالميَّة الثانية.

أغضب والدي أن أُصاب بفقر في الدم، والمال يتدفَّق بغزارة على خزانته الحديديَّة. كلمة الفقر وحدها تعذِّبه. تعضّ كبرياءه. تتحدَّى دهاءه. فلهذا أغنى المنحة التي وعدنا بها، وإذا رقمي وحدي يتمرَّد على الفقر: للينا خمسون ألف ليرة.

سأحاول العناية بصحّتي. سأحاول تجاهل مشاكلنا البيتيَّة. سأحاول الفوز في امتحانات نصف السنة، فأعبر بانشراح إلى نصف السنة الآخر، تمامًا كما أعبر الآن الطريق القصير بين مكتبة الجامعة «والعمّ سام».

حيَّاني الساقي بلطف، وسألني:

«ماذا أمرت سيِّدتي؟»

«قهوة عربيَّة!».

فابتعد، وأنا أفكّر: في المقهى نمارس حرّيّتنا على أوسع وأرحب مدى ممكن. أطلب هنا قهوة، فلا يزعق ناصح: ولماذا لا تشربين عصير البرتقال أو الجزر، فيقوّي دمك وينقّيه. وإذا جلست صامتة، لا يزعجني متطفّل: بماذا تحلمين؟ لماذا لا تتحدّثين؟

عاد الساقي يحمل قدحًا كبيرًا، على صينيّة، يرفعها باتقان ويتهادى بخطوات متّزنة. وضع القدح برشاقة على المائدة، وابتعد من جديد يلبّي الطلبات المتعدّدة. ورميت نظرة على القدح، وأحنيت رأسي أستنشق رائحة البن في القهوة، وتبسّمت للّهب الأبيض المحلّق حول وجهي: حتى القدح، وهو غير القدح الذي رشفت فيه قهوتي آخر مرّة كنت فيها في هذا المقهى، فلونه جديد، ومحتواه جديد.

كان القدح فارغًا، وكان الارتخاء يتسرّب إلى أعصابي بسرعة. بسرعة عجيبة. وإذا بألم عنيف يلهو برأسي. ولم يتنبّه روّاد «العمّ سام» لضعفي، فقد اعتادوا التصاقي كلّ يوم وحيدة أمام قدح قهوة. وسحبت رجليّ... سحبتهما إلى الخارج... واستقلّيت سيّارة أوصلتني إلى البيت. هذا ما حدث آخر مرّة كنت فيها هنا. ثمّ لحقها الفراش الأبيض الهفهاف، والطبيب السمج، والأدوية المرّة، والليالي الطويلة بآلامي، والساعات الكسيحة.

لا، لن أمرض مرّة أخرى، فسأحاول جرع الدواء «المقوّي» كلّ صباح ومساء.

«معذرة».

انتفضت. من هذا؟ لماذا يعتذر؟

رفعت رأسي عن القدح، فإذا شاب ينتصب أمامي: هذه أكثر من جرأة. هذه وقاحة.

لعلَّه أخطأ، فتجاهلته:

ظلَّ جامدًا أمامي، وأمعنت التحديق في وجهه.

عرفته. إنَّه الشابّ الذي استخدمته مرَّة في تفسير معنى فراغي عند «فيصل». لكن ماذا يطلب منِّي؟

قبل أن أسأله، افترّ ثغره عن ابتسامة جذَّابة. وأمعنت النظر في ثغره، فإذا ثغره ثغر طفل، وابتسامته ابتسامة طفل. قال وفي صوته عنف الرجولة:

«أنا بهاء شوقي، أين كنت طوال شهر؟ هل كنت مريضة؟».

ماذا؟ ما شأن هذا الغريب بي؟

وحملقت في وجهه، فإذا هو يقف خجلاً كطفل صغير أرغموه على مخاطبة أحد الغرباء.

«أين كنت؟».

قالها بأسى، وبكلّ ما فيه من حياة، كأنَّني كنت ميتة واليوم بُعثت إلى الوجود. والخطر فيها أنَّه يؤمن بأنَّ له الفضل في المساهمة بهذا البعث!

أين كنتِ؟

كنت أرشف القهوة، فعجّلت برشفها لأجيبه، وبقي هو يتابع حركات شفتيّ متفحّصًا وجهي، ثمَّ جسدي كلّه. وغمغم، كأنَّه يتابع عرض سلسلة أفكار خطرت بباله:

«وكسبتِ أيضًا لونًا وصحّة!».

كففت عن الرشف. وتلمَّست في جسدي حركة ظهور يقظة، جديدة. وحدَّقت في وجه الشابّ للمرَّة الثانية، والثالثة، فإذا هو ينتظر منّي جوابًا، فقلت:

«أنا لينا...».

فقاطعني:

«لينا فيَّاض. أعرف اسمك».

فتلعثمت مجيبة:

«نعم. نعم، كنت مريضة. لكن هل أنت تعرفني قبلاً؟».

وارتبك، فدهشت من هذا التناقض الظاهر في شخصيَّته: جرأة في فرض وجوده عليَّ، وخجل في الكلام.

وكأنَّما هو اكتفى من إجابتي بتوكيد فكرته المستنتجة عن سبب تغيُّبي. ابتعد، ولم يجلس وحيداً، إنَّما شارك زميلاً له إحدى الموائد.

ـ ٢ ـ

في الترام، وفي عودتي إلىٰ مقرّ عملي، للمرَّة الأولى بعد المرض، كنت مرتبكة: هل غرفة الرئيس تشتعل بالأنوار الحمراء؟ هل يعلو مكتبي الغبار؟ ليتني أجد العنكبوت قد سكن في زواياه، وفي قفل الباب، مبرهنًا على أنَّني الوحيدة التي تصلح لهذا المكتب، وعلى أنَّ غيابي سبَّب نقصًا ملموسًا في سير العمل!

طلب منِّي الجابي ثمن التذكرة. ولمحت ساقي رجل تنطويان على المقعد أمامي. وغرَّقت نظري متتبِّعة حركة يدي في الحقيبة. وابتعد الجابي، فاستقرّ نظري على وجه الجالس قبالتي. عيناه خضراوان: العمق فيهما، الدفء، الغموض، الرجفة في الأجفان السوداء... كلّ هذا في عيني الرجل الجالس قبالتي.

أحسست بثقل في رأسي، وبصوت اللحم يتمزَّق في شفتيّ. إنَّه يحدِّق في شفتيّ، فيصبّ عليهما دفئًا ورجفة! وأنا أحدِّق في عينيه، فأزرع فيهما عربدة مجنونة!

تركت مقعدي هاربة، فتلفَّت الشاب مستطلعًا، دهشًا. ونزلت في أول محطّة توقَّف عندها الترام، واندفعت سكرى في مشيتي إلى المؤسَّسة.

«وكسبت أيضًا لونًا وصحّة!».

قالها الرئيس... فعادت إليّ الرجفة!

حين دخلت المؤسَّسة لم أرتجف. حين خبَّأ الرئيس يدي الصغيرة في يده الكبيرة، أكثر ممَّا يجب، لم أرتجف... إنَّما أيقظت الرجفة في جسدي جملة سمعتها من قبل ومن شابَّ غريب:

«وكسبتِ أيضًا لونًا وصحّة! أين... أين كنت؟».

ولأخفي رجفتي، تربَّعت على المقعد البنّيّ البارد، فلم يعترض الرئيس، كما لم يكفّ عن كتابة رسالة من الأرجح أنَّها سرِّيَّة خطيرة، وهو لا يستعين بسكرتيرة.

ضايقني سكوته، وهو الذي أيقظ الرجفة في جسدي، فرميت رأسي على كفِّي المنفعل وردَّدت بصوت خافت:

«لون... صحّة... مرض...».

هذا الرئيس صديق والدي، وأحد معارف الوالد الكريم. إذن، لماذا لا أحدّثه الآن كما أحدُث والدي؟

«أستاذ...».

ناديته، فرفع رأسه بكسل. وتفحَّص وجهي مبتسمًا. ثمَّ أخفى ابتسامته وهو يحني رأسه مفتّشًا عن رجليّ اللتين مدَّدتهما على المقعد

المجاور. تجاهلت غضبه وأحنيت رأسي ثمَّ رميته على خشب المنضدة النظيف. هذه اللماذا تفكّك أجزاء جسمي رويداً، رويداً، وتكدِّس المشاكل في فكري كومة معقَّدة، فوق كومة معقَّدة...

سأحاول رفع الكوم المعقَّدة... ألم أَعِد الطبيب بأنَّني لن أكترث لتوافه الحياة ـ كما سمَّاها؟

سأبدأ بوصف الذعر في عيني الرئيس منذ لحظة:

إنَّه خوف عميق لا أعرفه. خوف من شيء هامّ يعيش فيه. هذه النظرة الحادَّة، الشاملة للأضواء المثبتة على الجدار، للمزهريَّة الفارغة. للمكتبة الضخمة الرابضة على المدخل، للمقعدين الجلديَّين أمامه.

أنا أخاف من الفراغ، من الوحدة، من الرتابة. أما خوف الرئيس فهو من انتظار مملّ لرؤية دعامة ماديَّة هامَّة، ترعى مركزه وتؤمّن لقمته، وتعدّ مستقبل أطفاله... لرؤيتها وهي تتهدَّم، وتزول!

أتكون للأحداث السياسيَّة الحاضرة صلة بهذا الخوف؟

ربَّما...

نقَّبت في الصحف المطلوبة بدقَّة متعمَّدة، أستطلع فيها نتائج التطوّرات السياسيَّة التي حدثت أثناء مرضي، فإذا هناك تحالف ثنائي وثلاثي بين بلداننا العربيَّة. وإذا الاعتداءات الصهيونيَّة تُستأنف على الحدود. وإذا مصر جادّة في العمل لاستكمال الغاية من ثورتها، وتوطيد استقلالها وحمايته.

هذه هي أسباب خوف الرئيس: خوف «مقعد» سيتركه سيِّده، ليعيش فيه الفأر، ولتتنزَّه عليه الصراصير!

جمعت كتبي وتوجَّهت إلى البيت.

وزقزقت أمّي بضحكتها، وهي تستقبلني على الباب:

«أحسنتِ التصرُّف بقدومك لتناول الغداء بيننا. ستكفِّين عن مضغ «السندويتش» في الشارع، أليس كذلك؟ أنت رائعة اليوم. ستبتلعين الفيتامين بعد كلّ وجبة».

وتحرَّكت لتبتعد، دون أن تنتظر منّي جوابًا. لم تتوقَّف لحظة، تفتش بها في عينيّ عن النقمة مكان الرضى، وفي شفتيّ عن القرف مكان الاطمئنان. قلت أنبِّهها:

«قفي!».

فاستدارت مرتعدة، غضبى:

«وهل عدنا إلى حالاتك العصبيّة؟».

تقدَّمت منها. تقدَّمت والسائل الملتهب يتدفَّق من أذنيّ. ومددت يدي. مددتها، ولمست طرف ثوبها، وغرزت التعب والحيرة في كلّ زاوية من زوايا وجهها، وتمتمت:

«هل سألك يومًا رجل: أين كنت؟».

وحاولت مقاطعتي، فعرفت أنَّها تودّ أن تخبرني بطهارة أنَّ والدي هو الرجل الوحيد الذي سمحت له بمحادثتها، والذي طلب وأعطته! فمنعتها عن الكلام، متابعة:

«إنَّه شابٌ. إنَّه رجل. إنَّه يحسّ أنَّني أعيش، وأنَّني يجب أن أعيش ولأمر معيَّن... إحساسه هذا يسيطر على تفكيري، وعلى كلّ معتقد كنت أؤمن به من قبل. إنَّه رجل، جريء، خجول، غامض. أنا أخافه!

ونبتت ابتسامة مرحة على وجهها. نبتت بين أسلاك التعب والحيرة التي غرزتها في زوايا وجهها. أبعدت يدي عن ثوبها، وابتعدتُ خطوة، وأدرتُ لها ظهراً ينوء بغليان الأفكار المكدَّسة في الرأس، فقالت:

«أنتِ تثيرين إعجاب كلّ الرجال: أنوثتك طاغية! أنت مثلي، مهمَّتك الوحيدة أن تضاجعي الرجل، وأن تهدهدي سرير طفل! أمّا هذا الذي سألك أين كنتِ فهو يعرف قبل كلّ شيء، قبل أن يحاول أن يستوعب وجودك كإنسان أمام قدح قهوة، يعرف أنَّك: أنثى! كان يستمدّ منك لذّة: من حضورك إلى المقهى. من انفعالات وجهك. من القلق في عينيك. من الرجفة في أناملك وأنت تفرغين السائل البنّيّ. من امتصاصك بقايا البنّ على شفتيك. من خطواتك الكسلى، وأنت تختفين في الشارع. وحرم اللّذّة طوال شهر. التساؤل معناه: الحرمان!»

ودرت في مكاني دورات عديدة، قبل أن أواجهها... واستحالت هي أمامي علامة استفهام خضراء، والطاولة علامة استفهام بنّيّة، والصحن علامة استفهام بيضاء ويدي، وهي تعلو لتفرك أجفاني، علامة استفهام بلون اللَّحم... فهربت إلى سريري.

وبعد الظهر كان الناس على الطريق قضبانًا متحرِّكة، منحوتة بشكل علامات استفهام مخيفة! وفي الصف كان الزملاء علامات استفهام مسمَّرة على المقاعد الخشبيَّة! وإذا القلم بين يديّ يتحوَّل إلى علامة استفهام ملوَّنة. وإذا الدفتر الصغير، هو أيضًا علامة استفهام مستديرة!

أكاد أجنّ!

صعقت ضيقًا وخوفًا، وتركت قاعة الدرس وبكيت في اندفاعي إلى «العمّ سامّ» وجلست على الكرسيّ أنتظره...

هذه أوَّل مرَّة أنتظر فيها رجلاً.

ما هي الطريقة المتَّبعة في انتظار امرأة لرجل؟ بماذا تفكِّر؟ بماذا يجب أن أفكِّر أنا، وأنا لست كبقيّة النساء!

قالت أمّي: يستمدّ منك لذّة.

من أنا؟ هل فكَّرت يومًا بمنحه هذه اللّذة؟

أحنيت رأسي أتفحَّص جسدي، فإذا ثياب سميكة تغلِّفه، لكنَّها لا تخفي تمرُّد النهدين. وكانت في حقيبة يدي مرآة، فتَّشت فيها عن الشفتين المجهدتين والأجفان الباكية، ثمَّ عن كلّ الوجه الخائف!

وتعمَّد أحد الزبائن الاصطدام بي، ينبِّهني إلى أنَّه يراقبني، فلم أكترث له.

لمحته قادمًا. إنَّه هو. تلفَّت صوبي، وتبسَّم خجلاً، ورفع يده قليلاً، قليلاً، ثمَّ هزّ رأسه مرَّة واحدة، وأدار ظهره، وجلس في الزاوية وحيدًا يدخِّن بشرود.

كيف يرضى أن يعيش في الزاوية، وكيف يتقبَّل الحبس فيها؟

الوحدة. وأنا وحيدة!

«يستمدّ منك لذّة...» هل هناك لذّة في الرؤية، في عدم اللمس؟

راقبته فإذا هو يسترق الالتفاتات إلى ساقيّ الضجرتين، بين أرجل الطاولة. احمرَّت جبهته وبياض عينيه حين اصطدمت نظراتي المراقبة، بنظراته السارقة...

وتبسَّم بخجل، وألم!

هذا الخجل يحيِّرني. وهذه اللذّة تؤلمه!

لا أؤمن إلاّ بالحقائق الملموسة. عليه أن يعرف ذلك.

وكما لمحته يتقدَّم، لمحته يبتعد. أتراه شبع لذّة، حتى تخم؟ ابتعد، اختفى. وبين قدومه واختفائه ذابت كلّ علامات الاستفهام، لتتجسَّم فيه هو.

ـ ٣ ـ

يلفلفني شعور ضبابي، ساخن، يحجب عن عينيّ كل مألوف قديم.

فالرعد لا يرعبني، إنّه الآن يوقظ في كياني كلّه حاجة باكية إلى الاحتماء في صدر فسيح، يغمر وحشتي... وانسياب قطرات مياه المطر على زجاجي، يوزّع خدراً يفيض في رأسي ليسري في أناملي. وهذه الظلمة تقهقه في إضرامها شرراً يضيء أمنيات كثيرة ابتكرتها، ولوّنتها.

تقلّبت على سريري.

فإلى أيّة جهّة سأدير وجهي: إلى الحائط ليجابهني بامتناعي الأحمق عن ابتلاع قرص الفيتامين، وبرصيدي المحترم في البنك، وبعودة شبّاك الجارة المترهّلة إلى الانفتاح، وبانهماك الشقراء بفساتينها، والسمراء بكتبها، والأخ السمج بدلاله، وكسله؟

أم أواجه العتمة، لألتصق... وألتصق بعالم الضباب، الذي غزله حولي الشابّ الغريب؟

أنا أودّ أن أتركهم، في البيت، يواجهون مشاكلهم. لأحذر الغموض الكثيف الذي يتكدَّس في مشاكلي.

سأنام على ظهري.

فحلَّقت توًّا إلى مكتبة الجامعة. قلت: اليوم في الصفّ سأقلِّد زملائي، سأحني ظهري لأغرس رأسي بين الصفحات، فاندفع مع المعاني، واكتسب معرفة تمنحني شرف المثول في حضرة الممتحنين... فيستجوبونني، وأسرع في إجابتي قافزةً فوق كلّ عائق نصبوه في اندفاعي إلى برامج النصف الثاني من السنة المدرسيَّة...

لكن، أعجز عن إذابة كلّ وعي في المذاكرة، فكيف؟ كيف أتجاهل سفر وليد المفاجئ إلى باريس؟ وتزعزع سمعة المؤسَّسة في أوساط عملائها؟ وقامة الشابّ الغريب الذي يزن أهمّيّة حضوري إلى «العمّ سام» ومرارة غيابي عنه؟

ثمَّ كيف أعمي عيني عن حركة هذه الرؤوس الناغلة أمامي؟ وابتسامات سكرتير المكتبة لكلّ طالبة تدفع الباب الزجاجي المتين؟ والمربَّعات البيضاء الممدَّدة في السقف، والأضواء المريحة، المتفجِّرة من المصابيح المستديرة؟

تقلَّبت من جديد، ثم عدت إلى الاستلقاء على ظهري أدفن عينيّ بذراعي.

ونمت، تزعجني تخمة أفكار.

وفي الغد...

في الغد، اخترت مقعداً منفرداً بين الأشجار لأجرِّب المذاكرة وحدي.

لكن عبثًا حاولت السيطرة على هدوئي ووعيي، لاستيعاب ما سُطِّر أمامي على الورق. على الورق أمامي: عيون خضراء، وسوداء، وبنِّيَّة، وزرقاء. وفوق العيون ارتسمت علامات استفهام صغيرة، كذرّات التراب الرطب الذي ينتثر حولي في ساحات الجامعة الفاتنة!

ما لون عينيه؟

لا أذكر ما لونهما، لأنَّ في عينيه مزيجًا من بريق اللّذّة، والحرمان، والألم، والطلب، والقلق. في عينيه ألوان الأرض كلّها.

وتمنَّيت لو كان بجانبي، لو كنت في المقهى، لأتقدَّم منه والناس يحدِّقون مستغربين، فأذوِّب الألوان في عينيه: لونًا واحداً بقبلةٍ على أجفانه الحيرى!

أغمضت عينيّ. اللذّة تلك التي أتمنَّاها؟

وهبَّ الخدر اللذيذ، الدافئ، يسري في جسدي، فاسترحت على المقعد الخشبيّ الأخضر، وغفوت أستعيد ساعات نوم أكلها الأرق.

لا أدري كم مضى على إغفاءتي القصيرة من وقت، حين فتحت عينيّ وأحسست أنَّ الخدر قد نفد واضمحلّ. ورأيت أحد الزملاء قريباً منّي، يسند ظهره إلى جذع الشجرة ضائعا في أوراق كرّاس صغير.

ارتبكت، وتلفّتَ حولي، فإذا أنا وهو في عزلة، فعدت وأغمضت عينيّ، وتحسّست أوراق الكتاب.

في أوراق هذا الكتاب عيون ملوّنة!

ضحكت للفكرة. وفتحت عينيّ فهبّ الزميل واقفًا، وأنا ما زلت أستريح على المقعد. فجمدت عيناه على وجنتيّ المحمرّتين. ونبت الذعر شيئًا فشيئًا في جوانبهما، فسقط الكرّاس بين قدميه. واغتنمت فرصة سقوطه فأسرعت منحنية ألتقط الأوراق، وهو جامد كالصنم المنصوب في التراب. رفعت رأسي أفتّش عن وجهه، فإذا أنا أراه يملأ الفضاء بقامته. وضحك بدوره، وجلس على المقعد، قائلاً:

«لم يثر نومك دهشة أيّ زميل. فنحن مثلك، سهرنا الليل بطوله في المذاكرة!».

فركت أجفاني، فغمغم:

«وجهك أروع في النوم، منه في يقظتك!»

ولأخفي انفعالي، ردّدت بعده:

«أصحيح؟ شكرًا. شكرًا...».

ودفنت رأسي بين الأوراق، وسألته:

«ألا تعتقد أنّ الجامعة تصرفنا عن مشاكلنا الواقعيّة، الهامّة؟».

فأجاب ببرود طبيعي:

« النعاس يسلبك تفكيرك السليم. نحن هنا كلُّنا نصارع، ونبذل المستحيل لننجح في إحراز علامات ممتازة، تمنحنا شهادة. والشهادة ترفعنا إلى مراكز مرموقة.. ».

فقاطعته:

« أنا أحتقرك، وأحتقر كلّ الزملاء ».

فهزّ كتفيه استخفافًا.

وصارحته:

« سهرت أنت الليل الفائت مع أوراقك السخيفة. وسهرت أنا مع علامات الاستفهام الكثيرة المخيفة ».

وسألته بوقاحة:

« أتحبّ علامات الاستفهام؟ أنا أحبُّها ».

فهزّ رأسه سعيداً، وأجاب:

« أحبّ الدروس، فقط ».

« ألا تحبّ الفتيات؟ »

فضحك، وأجاب مازحًا:

« أحبّ الغموض فيك أنت! ».

فقاطعته، أتصنَع لهجة زاجرة:

« أنت طفل ».

فأجاب فوراً:

«وأنا أكبر منك على كلّ حال!».

وغمرتني موجة حزن عميق، فسألته:

«هل في حياتك فراغ؟».

فطالعتني أصداء حزينة على وجهه الذي انكمد فجأة، وتلعثم مجيبًا:

«تستحوذ الجامعة على كلّ نشاطي».

وخنقت صرختي، بضحكة عصبيَّة قائلة:

«في رأي أمّي أنَّ السؤال عن الشيء معناه الحرمان منه. ما هو رأيك؟».

فقرّب رأسه من وجهي مستوضحًا:

«لا أفهم ماذا تعنين».

وأنا أيضًا لا أفهم. ماذا تعني علامة الاستفهام؟ ماذا يعني مروره المتعمّد بي؟ فأنا مذ رأيته لا أهتمّ بالجامعة، ولا بالمؤسَّسة، ولا بالبيت. ماذا تعني علامة الاستفهام؟ هل يكتفي من وجودي في المقهى برؤيتي من بعيد؟ ما معنى خوفه منّي؟ وقلت له:

«هل تفهم أمّي الرجل، لأنَّها تعيش مع رجل؟».

وارتدّ زميلي خطوة إلى الوراء، ثمَّ عاد واقترب قائلاً:

«لماذا لا تدعين الأحداث تأخذ مجراها الطبيعيّ؟ لماذا تعرقلين نتائجها بآرائك المغلوطة؟».

فخبأت وجهي بين ركبتيّ، وقلت بغصّة:

«لن آتي في الغد إلى الجامعة. لن تطأ رجلاي أرضها بعد اليوم. سأعيش في العلامة القلقة، الملحّة. سأتغلغل إلى الرجل في العلامة: إلى الإنسان، ومنه إلى الحياة. أنا أعرف من اللهجة المستفهمة، أنَّني سأكسب نضجًا. سأترك الجامعة: عالم الجمود، والموت البطيء لأنطلق إلى عالم هذا الرجل بالذات، أستمدّ منه حقائق نابضة».

ورفعت رأسي، أفتّش عن الجواب في فم الزميل، فتوقّف نظري عند جواربه البيضاء وحذائه الأسود، وهو يتنقّل بعيدًا، تاركًا على التراب الرطب آثارًا باهتة...

- ٤ -

احترت ماذا أفعل بيديًّ!

فأنا حينًا أخفيهما في الجيبين، وحينًا أشبك أصابعهما، بعضها ببعض، وحينًا أحفحف أظافر اليمنى منهما باليسرى، ثم أظافر اليسرى باليمنى، وحينًا أسبلهما على الجانبين. وحينًا... وحينًا...

منحت اليوم يديّ حرّيّتهما!

لا كتب زائفة بينهما. لا حقيبة يد تحوي أوراقًا مالية ذوّبها الرئيس من بضعة دولارات، لا أصبع حمرة، لا قلم حبر.

لكن، ألا تتفهّم اليدان معنى الحريّة؟ لماذا هما تضيقان بها؟ أين تستقرّان؟ ماذا تفعلان؟

مددتهما في الفضاء أمامي، وضربتهما بنظرة شرسة، فإذا عروق الدم فيهما تتنفض، وإذا الطلاء المزهر على أظافرهما يلمع بدلال، وإذا أصبعان في اليد اليمنى ضجرتان تبحثان عن قلم لإتمام فرض!

قربت الأصبعين من فمي، وهمست لهما:

لن يدفئكما بعد اليوم قلم. لن تلمسا خشب مقعد ضائع في الجامعة. ألا يسرّكما أنّكما ستقبّلان زملاء لكما في يد رجل: يد إنسان؟

وقلبت يدي، فإذا راحتها تعرق في الخفاء. مسحتها بثيابي، وتمتمت عليها:

«ستصافحين علامة استفهام كبيرة، أعتقد أنّك قادرة على حصرها كلّها ـ وهي التي تملأ العالم كلّه ـ بين جوانبك. ستمارسين حياة جديدة، وانفعالات جديدة».

«يستمدّ منك لذّة، من رؤيتك...».

يدي، هل تصدّقين أنّ هنالك لذّة في الرؤية؟

رميت يداً منهما على الطاولة، قريباً من قدح القهوة، وألقيت اليد الأخرى على فخذي... وانتظرت «بهاء»!

بهاء، أهذا هو اسمه؟ اسم غريب، لماذا لم يمنحه والداه أسماء عديدة، فأختار أنا واحداً منها؟

انتفضت يدي المستلقية بارتخاء على الطاولة، وقفزت مقتربة من القدح: إنّها باردة، إنّها كتلة جليد ينتفض... والحرارة بجانبها تذوي هدراً، على جوانب القدح... لن تفيدها مراقبة الدفء من بعيد. اللمس... تودّ أن تكون واقعيّة، أن تعيش في قلب الحقيقة... لهذا،

٣

حاصرتِ اليدُ، وبمطلق حرّيّتها، قدَح القهوة.. فتمنَّت الشفتان بدورهما أن تتذوَّقا طعم الحرارة، فتعاونتا مع اليد، وراحتا تداعبان معها القدح، وتنقلانه بينهما، وبينها!

أمّا اليد الأخرى، فها هي غافية على الفخذ. أما فكري، فها هو شارد على وجوه الزبائن ينقّب عن وجه تجسّمت فيه علامة استفهام خجلة...

أسبوعان مرًا على تركي الجامعة، وأسبوع واحد مرّ، تعمَّدت فيه ألاّ أسلك طرقات الحيّ الجامعيّ، ومقاهيه، وصالوناته، ومكتباته، وسهراته الصاخبة... فلا ألتقي ببهاء. وها أنا، وفي اليوم الأوّل من الأسبوع الجديد، أجلس وحيدة أنتظر قدومه...

تحرَّكت اليد الأخرى على الفخذ، حين ملأ بها مدخل «العمّ سام» بقامته. وحجب النور عن المائدة القريبة من الباب... واستلقى نظره القلق لحظة على وجهي، وفي اللحظة التي تلتها كان على وجهه بِشر يفيضُ، فيغرق بقيّة جسده...

أنسمّي هذا البِشر، لذّة؟

أنسمّيه ارتواء من الرؤية؟

ونقل البشر، مع جسده، حثيثًا. نقله إلى مائدتي... سحب كرسيًّا من الزاوية، وتسمَّر عليه أمامي، واليدان: واحدة خدَّرها الدفء فنامت، والأخرى أخرسها فشلٌ أعضاءها: جلوس بهاء قبالتها.

طالعني العجب في عينيه: العينان، لونهما المبهم، الحزين. والقلق الدهش، الناقم!

لماذا يبتلع وجهي بهاتين العينين؟

أأقول له إنّني منحت اليوم يديّ حرّيّتهما؟ وإذا كانتا قد تمنّعتا عن مصافحته، فالذنب ليس ذنب رغبتي المجنونة في لمس يديه، إن هي لم تتحقّق!

أشعل سيجارة، دون أن يجرِّب تقديم واحدة لي.

وفي صمتي... راح يتكلّم عن نفسه، كأنّني كنت أعيش مع هذا الرجل قبل أن يولد هو، وأولد أنا، وتولد الحياة على الأرض. وقبل أن يفكِّر الإنسان في بناء بيت وإنشاء معهد، وفتح مقاهٍ!

أحقيقة هي تلك الفلسفة التي تؤمن بتناسخ الروح؟ بحياة كان يعيشها الإنسان في مكان آخر من الأرض، قبل أن يولد في مكانه الذي يعيش الحاضر فيه؟

قال، ودون مقدِّمات:

«أنا عجوز!».

واضمحلّت كلّ فكرة كنت قد أعددتها للّقاء الأوّل...

ومدّ إصبعه مشيراً:

«أرأيتِ هذا العجوز! تأمّليه جيِّداً. أرأيت كيف هو خائف، يابس، يرتجف؟».

ورضخت لأمره، مفتّشة عن العجوز خلف شبّاك المطعم. فإذا هو على الرصيف يتسوّل. فتّشت عن رجل عجوز غيره، حولنا، فإذا خلفي رأس أبيض الشعر، يحدّث شابًّا، هو ابنه على الأرجح... أمّا بهاء فكان يتتبّع حركاتي وانفعالات وجهي بعينيه الشاسعتين. وفي عينيه لمحت بريقًا متعبًا، يلهث... لمحت في عينيه شيخوخة!

سألني:

«أتعرفين كما أبلغ من العمر؟».

أضحكني سؤاله. غرقت في ضحكة نشوى، وأنا أعيش في لحظة تفتّح الابتسامة على شفتيه...

وسألته بدوري:

«أنت... أنت عجوز؟».

وفكّرت: وأنا، لست أكثر نضجًا من والدي، ووالدتي، وجدّتي، أعيش في كلّ الحياة، بينما هم يعيشون على هامشها؟ أمّي في الخامسة والأربعين. والدي في الخمسين. جدّتي في الثمانين. وأنا أكبر منهم وأنضج.

أعجوز أنا أيضًا؟

أردت أن أسأله بدوري، وهل أنا عجوز أيضًا؟ فإذا هو مأخوذ بأفكار سوداء... فأيقظته، محاولةً إبعاده عن الأفكار السوداء:

«من أنت؟ ما مصدر هذه اللهجة العاميَّة التي تتكلَّمها؟ ماذا تعني بكلمة عجوز؟».

عندي سيل غزير من الأسئلة. ها هو ينحني ليراقبها في اندفاعها من بين شفتيّ، فأسرع يخفِّف من تدفّقها مجيباً:

«أنا طالب في السنة النهائيَّة بالجامعة، من الريف العراقي...».

فقاطعته:

«التقيت بأحد سكّان الجزيرة العربيَّة، فقال إنَّني لست قادرة على إبداء رأي قيِّم في السياسة كقيمة رأيي في تفصيلة الثوب الذي ألبسه، وأنواع العطور... أتعتقد هذا؟».

فتبسَّم خجلاً، وتمعّن في تفصيلة الثوب الذي ألبسه، وتجاهل سؤالي متابعًا:

«... أمّا قولي أنا عجوز، فمعناه واضح: أنا أحسّ في أعماق ذاتي بأنَّني كبرت... كبرت كثيرًا، كأنَّني وُلدت منذ زمن بعيد. بعيد. وأعيش في عصور قادمة، بعيدة! أنا تعب. سئمت الحياة وجسدي بدأ يهرم، وأنا لا زلت في الخامسة والعشرين!».

الألم! الألم في أغوار عينيه، وعلى شفتيه، وعلى رؤوس أصابع يديه، وعلى طرف السيجارة الجمري!

امتصّ شفتيه كطفل يبتلع الكلمات عنهما، ووقف يودّ مغادرة المكان.

اختفى، والمتسوِّل العجوز يتابع تجواله...

ـ ٥ ـ

هذه ساعة يد، ساعة يد، ميناؤها أبيض، وزجاجها يلمع فيملأ عينيّ بالنور الأصفر. هذه ساعة مستديرة تعيش على معصم الرجل. وبجانبها طرف كمّ أبيض. إنّها ثابتة. والمعصم يتحرّك راسمًا في الفضاء تخطيطًا للجمل التي تسيل ببطء من فم الرجل. وهي هنا في المقهى، وهذا الرجل يتكلّم، وهي تلمع، بيضاء، مستديرة، تملأ عينيّ نورًا أصفر. ها هي قريبة منّي: أحسّ بثقلها على يد الرجل، بينما صاحبها ضائع مع مجموعة الرجال الضاجّين ضمن حلقة، ربّما اتّفقوا على تنظيمها من قبل حول مائدة.

راقبتها، فنسيت أنّني أنتظر بهاء.

أنا أنتظر بهاء. إذن، أنا التي منحت هذه الساعة أهمّيّة.

تعلّقت بكلّ حواسّي في عقربي الساعة الأسودين، أستمع في تكتكتها إلى زحف خطوات بهاء. العقربان يشيران إلى السادسة

ودقيقة... السادسة وثلاث دقائق... السادسة وخمس دقائق. السادسة و...

رفع الرجل يده إلى أذنه وحكّها على مهل. ثم أخرج منديله، ووجود الساعة يهتزّ متهيّئًا للاضمحلال... واضمحلّ فجأة حين نبّهني بهاء إلى قدومه، بتحيّة باسمة حلوة. وهدأ على الكرسيّ صامتًا، يفرغ من فمه بقسوة دخان سيجارته، ويحفر على وجهي انفعالات غريبة، مبهمة، حيرى...

«يستمدّ منك لذّة، من رؤيتك...».

أنا مرتبكة وهو صامت، يمتصّ اللذّة على عجل... فحسدت في هذه الليلة كلّ وجه يغلّفه حجاب!

قلت مرتبكة:

«أنا أعمل...».

فارتعد وتوارت القسوة عن جبهته وزوايا عينيه. وتهدّم حاجز الصمت الذي بناه بيني وبينه. وسألني:

«هل أنت تعملين؟».

تعمّدت تجاهل سؤاله، وسألته مرّة ثانية:

«هل ترى آلة تسجيل النقد هناك؟».

وأدار رأسه، وحاصر وجه المحاسب والآلة بنظرة كسلى، وهزّ رأسه كأنّه يتساءل: لماذا؟

فأكملت:

«إنَّه صندوق صغير في المؤسَّسة التي أعمل فيها. إنَّه بحجمها. أما الصندوق، فقد صُنع من خشب رديء، ودُهن باللون الأزرق، فتفتّتت قشرة الدهان لقدمه. ثلاثة أشهر قضيتها في المؤسَّسة، وفي صبيحة كلّ يوم من أيَّامها كنت أتفقَّد الصندوق باحثة عن شكوى، فألقاه فارغًا. وفي هذا الصباح، كان الصندوق لا يزال فارغًا!».

وصمتُّ... أتتبَّع نظرات بهاء التائهة في ساقيّ: نظراته السارقة. لذَّته المستمدّة من النظرات... في امتصاصها صدري وشفتيّ، وعينيّ!

أنا متضايقة.

وهو أيضًا متضايق. فصرخت منفعلة:

«أنت لا تدري ما معنى فراغ الصندوق من رسالة؟ أنت لا تدري كم يؤلمني الفراغ، ويعذِّبني! أنت لا تدري أنَّني استخدمت وجودك مرَّة لتفسير معنى فراغي! أتحسّ أنت بالفراغ؟».

وتاهت عيناه في وجهي حتى شعرت بأنَّ عينيه تأكلان من شفتيّ، وذقني، ثم تنحدران إلى صدري. فضربت الطاولة بقبضة يدي، وحاولت الصراخ! فأمسك يدي، وظلّ فمي مفتوحًا بعد أن ماتت الصرخة في حنجرتي. ترك يدي، فاعترتني رجفة ظالمة.

رآني أرتجف، فتعكَّرت عيناه، وسحب من جيبه علبة معدنيَّة صفراء. فتحها، وبدأ يلفّ باتّقان سيجارة من التبغ المفروم.

أنا خائفة! وهو خائف! و... الرئيس خائف!

وخطر لي أن أسأله:

«أو تدري ماذا يخيف رئيس المؤسَّسة؟».

أو تدري؟ أو تدرك؟ تزعجه هذه الكلمة. فهزَّ كتفيه مغمغماً:

«كيف تريدينني أن أعرف سبب خوف شخص، وأنا لا أعرف هذا الشخص؟».

قلت ببلاهة ظاهرة:

«سافر الرئيس، اليوم، إلى أوروبا».

وكأنَّما أُصيب بالهذيان. فحرَّك السيجارة المشتعلة بين أصابعه، وعادت الأفكار السوداء إلى السكن على جبهته، وتكلَّم صوته أسود اللهجة فاتر النبرات:

«دعانا أحد أساتذة الجامعة الأميركيِّين يوماً إلى حفلة شاي أقامها للطلاَّب في منزله...».

وتوقَّف الكلام الأسود عن اندفاعه الفاتر. ورشف السيجارة فتجمَّع رمادها فوق الجمر الملتهب، ففتَّش بعينيه عن المنفضة. وحين لم يجدها تطلَّع إلى وجهي مستفهماً فتمتمت سرًّا:

لا! لا يدري ما معنى الفراغ! فأنا، في كلّ مرَّة أشغل فيها المائدة، أخفي المنفضة تحت كتاب، أو في حقيبة يدي. ولهذا يظلّ الكتاب رفيقي، أستخدمه ـ عند الحاجة ـ لملء الفراغ!

سحبت المنفضة وقرّبتها منه فرمى في حضنها رماد سيجارته، وتابع:

«وفي صالون بيته ـ بيت الأستاذ ـ استدرك مؤكِّدًا، وقفنا ساخرين من إطار فنّي رائع يلتفّ حول لوحة زجاجيَّة، تخفي: دولارًا! ولاحظ الأستاذ أنّنا نخبّئ في أعبابنا ضحكة ساخرة، فتقدَّم منّا وعلى شفتيه هو ضحكة معتزّة، وأخبرنا أنَّ الدولار هذا هو ثمرة أتعاب ولده في عمل قام به أثناء العطلة الصيفيَّة، وهو في الحادية عشرة من عمره. ونظرنا بعضنا إلى بعض ـ نحن الشباب العربي ـ متسائلين! وفتَّشنا عن ثمرة أتعابنا في أطر حياتنا، وفتَّشنا عن آبائنا، وفتَّشنا عن فرديَّتنا، في أسرتنا على الأقلّ، فإذا نحن مستعبدون! نحن عبيد لأبينا وأمّنا وإخوتنا وأقاربنا. وهذا الأميركي الذي يتقاضى أكثر من خمسة آلاف ليرة شهريًّا، هذا الرجل دفع ابنه إلى العمل وحرم ثمرة أتعابه، ورعى جهوده وتعليمه ليبدأ ابنه تحرُّره: خطوة... خطوة... عن أهله».

صرصر أسنانه حنقًا، وعاد إلى الكلام:

«أمّا نحن، نحن الشباب العربيّ، فنظلّ طفيليِّين، نعيش على كيس الوالد الرنّان، أو يعيش الوالد على دمائنا لأنَّه هو أوجدنا. ويعتزّ الوالد عندنا، بجبروته فيحكم القيد في أعناقنا. ونرضخ نحن لهذا القيد، لأنّنا لا نساوي شيئًا في الوجود ونحن البعيدون عنه!».

وسكن، ثم تابع، وأنا ذاهلة:

«أمّا إذا حاول أحدنا أن يفطم حياته عن حياة أبيه، فهو عاقّ، متمرِّد. هو لعين إلى الأبد! وهو أكثر من ذلك: هو مقتول طوال حياته، بصراعه، ووحدته، وألمه!».

وعصر السيجارة في حضن المنفضة، فإذا يداه ترتجفان. وهبّ واقفاً، ورمى على كتلة جسدي نظرة فيها حنق. وتركني دون أن ينبس بكلمة.

وانتشلت عقب سيجارته المطفأ فوراً، وقرّبته من شفتيّ، ومضغته بلهفة، أخمد عليه أنفاساً مضطربة تغلي.

وفي المساء لاحقتني صور متشابكة: تبغ مفروم، ورقة شفّافة بيضاء، أصابع ماهرة تحشوها، شفتان ترطّبان الورقة، سيجارة معصورة في حضن المنفضة، دولار في إطار، علامة استفهام كبيرة، كبيرة جدًّا... تحاصر الصور الباقية. ولم يعد للصندوق الفارغ وجود، ولا لسفر الرئيس إلى أوروبا أيّ أثر في فكري.

وحلا لي أن أسأل والدي:

«ما هو نوع التبغ الذي يدخِّنه بعض الرِّجال؟ التبغ المفروم؟».

فأجاب بسخرية وهو يداعب ربطة عنقه أمام المرآة:

«هذا تبغ يُزرع في أراضينا».

وفتح علبة سجائره الذهبيَّة، وأشعل سيجارة أميركيَّة.

ـ ٦ ـ

قال بهاء: «كهذه القنّينة». وصمت، ثم أكمل:

«كالقناني المتحرِّكة كنت أرى النساء في بلدي، حتى بلغت السابعة عشرة من عمري. رأيت المرأة، لأول مرَّة، أكثر من قنّينة، حين وصلت إلى بيروت...»

ورحت أفتِّش في عينيه عن الصدق. فإذا نظراته ثائرة، تودّ الانتقام! تودّ لو يتاح لها تمزيق وجهي، وأكله، لتشبع حرمانها من حقّ من حقوق وجودها، طيلة سبعة عشر عاماً!

تحسَّست وجهي بيدي، ثمَّ عدتُ وتفحَّصت وجهه، فإذا الثورة تجمد في عينيه رويداً، رويداً... وهو يتابع:

«وكانت هوايتي في صغري ملاحقة هذه القناني في الحيّ الذي نسكنه. وكنت أنجح في بعض ملاحقاتي لها، برؤية سيقان غلّفتها

جوارب سميكة وأقدام عصرتها أحذية بنّيّة اللون، أو سوداء. أمَّا الوجوه، فكانت تبدو لي مشوَّهة، متشابهة، خلف الغلالة السوداء... كانت تبدو لي كلَها: كوجه أمِّي!».

ودوّى صوت حولي: «يستمدّ منك لذّة، من رؤيتك... يستمدّ...». ضربت المائدة بقبضة يدي، فتوقَّف عن الكلام، وتعلَّقت نظراته بفمي. أدرت رأسي، فلمحت الكرسون يضحك. وأحد الزبائن يدرس حركاتي في المرآة. أطبقت فمي، وأمعنت النظر بالشابّ الذي لا يتجرأ على مواجهتي. وتمنَّيت أن أعكس صورتي في المرآة، لأتأكَّد من أنَّني وبهاء في مطعم «فيصل». وقفت، ووقف بهاء. وذعر الشابّ، والكرسون، والطاولات، والملاعق، والقناني... ارتسمت كلّها في المرآة.

«يستمدّ منك لذّة... يستمدّ منك».

وتفجّرت جملته، كهذه القناني، تقتل عزف الجملة السابقة. فأردف بهاء متابعاً:

«لهذا أنا جبان».

ودون تفكير، سألته:

«لماذا؟».

وأجاب فوراً:

«لأنَّني سُلبت حقًّا من حقوقي، حين حُرمتُ رؤية المرأة إنسانًا!».

وتركني وحيدة، واختفى...

تركني وحيدة.

ووحيدة تعني، في هذه اللحظة، أنَّه ينقصني «هو».

ووحيدة كانت تعني قبل أن ألقاه: فراغًا منتحبًا، مبهمًا.

وفي وحدتي، راقبت سيجارة تذوب بين أصبعي أحد الحضور... فلاحت لي يد بهاء وهي تحطِّم هياكل بيضاء، في قعر المنفضة الأسود. ثم وهي تشعل عود ثقاب لتضرم النار في رؤوس هياكل جديدة... لاحت لي حمراء، ساخنة، عطشى فتمنّيت عندها أن ألثم هذه اليد. أن أقبِّل أصابعها واحدة بعد الأخرى. أن أنام على راحتها، لأستفيق في اليوم التالي... وفي كلّ يوم... فألقاها تداعب خصلات شعري!

تفحَّصت يد الرجل، فإذا هي نافرة العظام، خشنة.

لا، يد بهاء عالم قائم بحدّ ذاته. إنَّها يد إله، وتتناثر حول اليد مباخر زعفران، ونور، ومغفرة. وأنا حين رأيت يده، لأوَّل مرَّة، آمنت بأنَّ هذه اليد لن تسبِّب لي ألمًا وإن مزَّقت جسدي!

وهذا المساء، تفحَّصت يد والدي، فإذا هي هرمة، تعبة يزيِّنها خاتم ماسي فاخر. فتمنَّيت أن أبصق على يد والدي!

وفي صباح اليوم التالي اعترتني في المؤسَّسة رغبة هستيريَّة، هي أن أتفحَّص أيادي كلّ الرِّجال الذين أصادفهم، وأسجِّل على مفكِّرة

صغيرة أوصافها . . . وأنجزت الرغبة وكانت النتيجة أنَّه ليس لسواه من الرِّجال كلّهم يدان، كيدي بهاء.

وعدت إلى البيت، تتقدَّمني نوبة سعال حادَّة، تسرَّبت إلى أذني الوالدة، فاندفعت تتلقّاني على الباب هادرة:

« لا ترضيني عودتك مدبدبة في الظلام على الدرجات، مكتومة الأنفاس كلصّ. تلهثين تعباً، كربّ عائلة مجبر على شراء غذاء لأولاده، وثياب، ومأوى. هيّا إلى فراشك، سأناقش والدك بأمر هذا التأخر إلى ما بعد الثامنة مساء . . . والتاسعة مساء . . . » .

وحملقتُ بأمّي مبتسمة، ونزعت معطفي المبلَّل أفكِّر:

تحاول أمّي ممارسة سلطتها على الوالد، على حسابي أنا . وكانت تصرخ:

« انزعي كلّ ثيابك الداخليّة، قد تكون رطبة. جفِّفي رأسك بالمنشفة. اسكبي على « نافوخك » قطرات « السبيرتو » . أغلقي كلّ النوافذ بإحكام. لا ترمي حرام الصوف على الأرض . . . » .

افعلي . افعلي . الوالدة بارعة في إصدار الأوامر.

خطوت إلى غرفتي، أغلِّف جسدي المرتعد بالأغطية الصوفيَّة السميكة. وأظنّ أنّ أمّي هي أيضاً دفنت جسدها في فراشها لتناغي أذن زوجها باقتراحاتها العديدة:

« علينا أن نراقب لينا . . . » .

فيهمس الزوج مستفهمًا:

«هل قصّت شعرها اليوم من جديد؟».

وتجيب الأم حانقة حينًا، مراوغة حينًا آخر:

«الشعر القصير أو الشعر الطويل لا يسيء إلى سمعتها، إنَّما هذا التأخُّر في الليل يتحدَّانا. ويضرّ بأختيها!».

فيصرفها الوالد عن أحلامه الصارخة ويسكتها:

«سنبحث ذلك غداً». ويدير لها ظهره يتصنّع نومًا عميقًا.

ـ ٧ ـ

أبعدت رأسي الضاجّ بخصام علامات الاستفهام، عن نافذة مكتبي، وأسدلت الستار المورّد، حين رنّ جرس التلفون.

إنّه الرئيس. عاد من أوروبا.

هرولت إلى مكتبه، فإذا هو هائج، يضرب البلاط بحذائه الناعم الكعب، الذي يولّد احتكاكه بالسجّادة هسهسة خافتة.

رأيته يقف بين الباب والمقعد الجلدي.

فمشيت على مهل، أقابل بينه وبين المقعد الذي تتربّع عليه دولتان عظيمتان. فكفَّ الرئيس عن السير، وزمجر يسألني:

«أيّة مهمّة كنت تقومين بها أثناء غيابي؟ ألم يخطر ببالك القيام بمهمّة السكرتيرة، وإنجاز هذه الأمور الخطيرة المكدَّسة على المنضدة؟».

حدّقت في خشب المنضدة اللمّاعة، ونقّب نظري عن الأعمال الخطيرة في الأوراق المكدَّسة: فصاح:

«ألم تلمسي هذا النشاط الروسي أثناء تغيُّبي؟ ألم تفكّري باقتحام هذا المكتب والسعي في قتل هذا النشاط وإبادته؟ مؤسّستنا هذه: مكتب دعاية ضدّ الشيوعيَّة».

وغرقت في قرقعة استغرابي وذعري.. وفركت ركبتيَّ بيدين حائرتين، ومشيت متثاقلة، أقترب من هذا الرجل الغريب، المخيف، الخائف، الذي استحال أمامي نشرات سرّيّة وجملاً فوّاحة، ملفَّقة.

سألته ووجهي الأصفر ينكمش:

«وما هي الفكرة التي تدعو إليها المؤسَّسة، أو الحزب، أو المنظّمة؟».

فجلس، وتربَّعت معه جنيهات، ودولارات، على طرفي المقعد البنّي. وقال مبتسماً:

«تعمل المؤسَّسة من أجل السلام، ونشره في العالم..».

وقاطعته فوراً:

«وأين نجحت، أنت وأمثالك في نشره؟ أفي الجزائر، أم قبرص، أم فلسطين؟»

فغضب، وهبّ من مقعده تلحقه حمامات سوداء، وشدّ ذراعيَّ بوحشيّة، وتمتم:

«ألا يكفي أنَّني نشرتُ السلام في نفسك، حين منحتك وظيفة؟ ألا يكفي أنَّني أملك هذه البناية، وأنَّني رجل مدعوم وله كيانه، يقدِّرني الناس ويحترمونني؟ الغاية إذن فرديَّة كما ترين، ألا تعجبك، وأنت تؤمنين بالفرديّة؟».

وعاد الرئيس إلى مقعد مجده الذي أحسَّ بأنَّه سينهار، وأسرعت أنا للقاء بهاء...

بدا لي بهاء فتّانًا بقميصه الأزرق ونظراته العميقة وحركاته الطفلة، المبهمة، وهو يفرغ من فمه دخانًا شفّافًا. فتساءلت:

بماذا يفكِّر الآن بهاء؟

وانتشلني من تساؤلي مداعبًا:

«في كل شهر أزمة وزاريَّة في لبنان. وفي كلّ يوم، إشاعة جديدة عن استقالة أحد أعضائها».

أزمة وزاريَّة؟ لم أستمع إلى النشرات الإخباريَّة منذ يومين، ولم أقرأ صحيفة واحدة. إنَّه لا يدري أنَّني كنت أمام المرآة، أنَّني كنت في اليومين الأخيرين أستمع إلى أخبار أشدّ خطورة وأجلّ قيمة، يذيعها عليّ جسدي الذي يسعى إلى نيل حرّيَّته.

تجاهل صمتي، وأكمل:

«سياسة بلادكم أطرف سياسة تمارسها دولة في العالم! فهذا البلد الصغير الرائع، المتعدِّد الطوائف، المتباين النزعات... هذا البلد العربي، تقوم وتحيا أسباب الحياة فيه على المتناقضات!».

فتكلَّمت متحمِّسة:

«هذا ما يخلق - وأعني التناقض - دومًا في مجتمعنا بذور الثورة والتمرُّد، والوعي الفردي لإعداد مجتمع أرقى».

وضحك... ضحك مرحًا، مستخفًّا:

«ما هذه الأسطورة؟ أسطورة الفرديّة؟».

وأجبته صارخة:

«حاجتنا إلى الواقع الأفضل، والأسمى... معناه: حاجتنا إلى انطلاقة الفرد...».

فقاطعني ببرود:

«أنت طفلة، تعيش في السماء!».

ويحه، ورفعت يدي. ثم عدت ورميتها كاتمة ثورتي، أردِّد:

«ماذا؟ ماذا؟...».

وببساطة فيها نفحة حماس، شرح:

«إن الشعب في بلادي يحتاج إلى ثورة جماعيّة شاملة، تنبع من زقاقاته وأكواخه وخيمه... وهو الذي يُباع ويُشرى في قبب القصور، وفي الهواء على متن الطائرات المتهادية باستمرار بين عاصمتنا وعاصمة المملكة العجوز! فما قيمتي أنا؟ ما قيمتك أنت؟ إذا قيست حياة الواحد بحياة الملايين من شعب يفنيه حكم مأجور؟».

في غليان القيم والمعتقدات التي أرعاها، تفحّص بهاء جسدي بعمق زائد وأكمل:

«ماذا يساوي جسدك، أنت، إذا احترق: حين يقاس بملايين الأجساد التي تذوي رماداً بلون الدماء. في كل لحظة تضيّعينها، حرّة، بين المؤسَّسة وهذا المقهى! ماذا تساوي مطامحك مهما تكن جليلة خطيرة، إذا تحقَّقت... ومطامح الملايين تُخنق في مهدها: في أجساد مستعبدة، تُوارى جيفًا تحت التراب!».

وصرخ متابعًا كلامه:

«أجيبي! ما معنى أسطورة الفرديّة هذه: والدم يسيل، والجوع يقتل، والظلم يستتبّ، والمستعمر، بالاشتراك مع الحاكم الخائن، يمتصّ الدماء، ويأكل الخيرات، ويسلب الحياة؟».

واقترب منّي...

أرعبني هذا الحفيد لماركس، فلم أجب. إنّما انزويت على الكرسي مرتعدة: في عينيه دماء، على فمه ساقية دماء!

حرّكت شفتيّ، أجاهد في بصق أيّة كلمة، أقضي بها على رعدتي، فلم أتمكّن... وحسب هو أنّني أعيش برهات، مشلولة الفكر، تحت تأثير هيجانه، فقال:

«أودّ لو أنجح في اقتراف الجريمة!».

شهقت! وخبّأت شفتيّ بيدي اليسرى، حين تحرّكت ساقية الدماء على فمه... تحرّكت... ثمّ تراطمت أمواجها على جوانب

الوجه... ثم تعالت الأمواج... ثم زمجرت، في اندفاعها... وإذا الوجه كلّه ينابيع شلالات حمراء طاغية! وإذا أنا ضائعة بينها! وإذا هو يشرح، وابتسامة صفراء، يابسة، باهتة، مؤلمة تسكن على أسنانه الناصعة.

«سأقترف جريمة، وسأقضي على الرغبة الملحّة التي تشدّ قدميَّ كلّ مساء إلى مطاركم الدوليّ، والنزول في عاصمتنا!».

يقترف جريمة، هذا الجبان؟

وتابع قائلاً:

«في ذات كلّ منّا بذور إجرام. ولم أفكّر يومًا بأنَّ هذه البذور ستنمو وتورق حين سقاها الدافع الملحّ، وأرغمها على الكبر والنضج!»

وكأنّما «الدافع الملحّ» قد غذّى الابتسامة، فازدادت هذه بهوتًا، وألمًا. سألني:

«تودّين معرفة الدافع الملحّ، أليس كذلك؟»

فحرّكت رأسي أستعجله، ولكنّه لم يكترث للعجلة العطشى في حركات رأسي، فأمسك السلسلة الثانية من عقد أفكاره، وأكمل:

«منذ سنوات...».

وصمت.

ثم تابع:

«منذ سنوات... منذ شربت، في الجامعة، أول جرعة من نظم الحزب وقواعده وأهدافه، وأنا أتهيّأ لاقتراف هذه الجريمة! اشتريت السلاح، اشتريته من كلّ ليرة وضعتها فوق ليرة، بجانب ليرة... ليرات هي ثمن تذاكر للسينما حرمتها على نفسي!».

وضحك بألم فيه قسوة:

«أنت لا تفهمين للحرمان معنى. أيّ إنسان غيري لم يذق الحرمان المجرم الذي يلاحقني. حرمان، حرمان سأشرح لك معناه. حرمان... حرمان من الحنوّ الأبويّ، هل قبّلك أبوك يومًا؟ هل هدهدت أمّك أمنيات صغيرة كانت تراود مخيّلتك الطفلة؟ هل حفحف أمّك وأبوك معًا، في الشتاء، أناملك الباردة ليضرما فيها دفئًا هنيئًا؟».

وصمت... وعاطفة أنوثيّة فيّاضة تتكوّن في جسدي، مستعدّة للانطلاق!

وتابع قائلاً:

«في الشتاء كانت تزداد حاجتي إليهما، فأكتم حاجتي متكبِّرًا، وأنا أراقب قطعة الحلوى بيد أخي المحظوظ. وأنا أشتهي القبلة التي صوّرها والد صديقي الصغير على وجنة ولده، وأنا أحسد القطّ الوسخ، المستسلم سعيدًا، لمناغاة لسان أمّه على فروته!».

وعاد إلى الصمت، مفسحًا للعاطفة الجديدة مجالاً للتكوُّن؛ فتمنّيت عندها أن أحميه ـ طفلاً ـ بين ذراعي، وأحفحف خدّي بخدّه الأيسر الذي كان يؤلمه، فأخفي ألمه عن أبويه، وأن أحكي له أسطورة

صغيرة عن الملائكة والنور والعطور، وأن أقبّل أجفانه وجبهته المحرومة، وأن أمنحه الحرارة... في أيّام الشتاء!

ماذا يستمدّ منّي الآن؟ لذّة؟ أم عاطفة أمومة؟

وكأنّه أدرك ما يعتمل في خاطري، فقال متكبِّرًا، عنيداً:

«أمّا الآن فأنا لا أحتاج إلى إنسان آخر. صحيح أنّني استعنت لأكوّن شخصيّتي المستقلّة هذه، بنظريّات زائفة، أفرغت في رؤوسنا بإبر إنكليزيّة... مع هذا فأنا لا أحتاج إلى إنسان آخر اليوم!».

إنّه جبان! إنّه كاذب! إنّه متكبِّر، مغرور!

وكأنّه ندم حين تلمّس أنّ العاطفة الجديدة تغور كامنةً في القعر، فأسرع يحاول التشبُّث بها:

«اسمعي كيف كوّنت هذه الشخصيّة المستقلّة. كنت لا أعرف وجه امرأة، فأقول: ألم يقل ـ قُدّس اسمهم ـ المجتهدون والعلماء في الكتاب الفلاني، إنّ رؤية وجه امرأة لا تصلك بها قرابة، جريمة لا يغفرها من خلق وجه المرأة؟ ووعدت نفسي بأنّني سأراها. سأشبع من النساء. سأتخم من النساء. سيجيش القرف في نفسي من تكدُّس وجوه النساء حولي! وهجرت البيت... لا تشدّني أيّة عاطفة إليه، أو إلى مكان معيَّن على الأرض! وفي بيروت... في...».

وعاد من جديد إلى صمته... وأنهى حرق سيجارته.

هنالك صلة قرابة بينه وبين السيجارة. هناك أكثر من صلة قرابة: إنّ السيجارة قسم منه، لا يكتمل وجوده إلاّ بتربّعها حينًا على الفم، وحينًا آخر بين الأصابع.

تعوَّدت المرأة، في أول عهدها بمعاشرة الرجل، أن تفرض عليه أمرًا، فيسارع الرجل إلى تحقيقه صاغرًا، مبرهنًا على أنّه حمل مطيع. ولا أدري لماذا تعوَّدت كلّ النساء أن يلقين على رجالهنَ محاضرات بليغة في مضارّ السيجارة... كأنّ السيجارة المزاحمة الشرّيرة على حبّه لهنّ!

أمّا بهاء، أمّا هذا الرجل، فليت كلّ امرأة عابرة تراه مع سيجارته، تقف لحظة تراقبة. تحكم عقلها في مراقبته. تبارك أخيرًا النبات الذي يساعد هذا الإنسان على أن يحيا!

وأنا سأتحدّى كلّ امرأة، وإن كانت أمّه، إن هي حاولت بناء غرورها على أشلاء نابضة يتنازل عنها كلّ رجل مجبرًا!

حملت المنفضة بيدين خاشعتين وتمنّيت لو كانت مجمرتي بخور... وقرَّبتها منه، فأنزل في جوفها ما تبقّى من العروس البيضاء. وسألني:

«هل تتردَّدين كثيرًا على دور السينما؟».

فأجبت، وأنا أخمّن دوافع عديدة لهذا السؤال:

«نادرًا...».

وانطلق حولي صوت قاطع التذاكر في الكابيتول يستهفمني: «بطاقة واحدة، واحدة، وا...» فسارع بهاء، والضحكة شقيقة الشفتين، عدوّة العينين، يبدي: «أجوبتك غامضة، مفتعلة. لا بأس، يدلّ هذا على أنّك لم تقاسي مثلي الحرمان! أما أنا، وبعد هربي من المنزل، واستقراري في بيروت، رأيت المرأة...».

الصمت المتقطّع، والأفكار المختلطة، تسلبني كلّ إدراكي. إنَّه يستمدّ منّي شيئًا، إنَّه يؤلمني وهو يقول:

«رأيت وجه المرأة. رأيت خصرها، زندها، قمّة نهديها، ساقيها. وقفة قصيرة في ساحة المطار، كانت بداية لقاء تمهيدي بيني وبينها. ثم جولات بريئة...».

وكتم هنا نظرة مكر، وأكّد:

«قلت بريئة... وأمست النساء عندي مخلوقات عاديّة: لا قناني. لا آلهات. لا ساقطات!».

وزاد قائلاً:

«ولم تكفني مراقبتي للمرأة من بعيد، حتى أعرف نفسيّة المرأة. وأنا لا أملك الشجاعة الكافية لأطلب من المرأة... ثم أنا لا أميل إلى النساء المبتذلات... وفكّرت أنَّ المدرسة الوحيدة التي تعالج حياة المرأة ونفسيَّتها وكلّ ما يتعلّق بها، هي السينما».

ثمَّ تأوَّه قائلاً:

«الحرمان. يكمن لي الحرمان كلّ ليلة، وفي السادسة والنصف، على باب غرفتي المغلق، يدعوني إلى السينما، إلى السينما، السينما... ويتعالى النداء في الغرفة. وأحاول صمّ أذنيّ عن ندائه، فأدفن كل وعيي في أوراق الكتب، ثمَّ تحت الغطاء في سرير. فيزداد فجور النداء: إلى السينما. السينما. ستراها. ستراها عارية. ستراها ثائرة. ستراها مجرمة. ستراها بريئة. ستراها عذراء. ستراها مظلومة.

السينما... وتمرّ دقيقة، ونعيق الحرمان يشتدّ، وأخلع ثيابي، وأنياب الحرمان تتشبَّت بها. وتمرّ دقيقة ثانية... وأستلقي على سريري، فيترك الحرمان الباب ويتسلَّل إلى السرير متوسِّلاً: لماذا لا نذهب إلى السينما. السينما. ستراها... عارية. ثائرة. حكيمة. أمًّا. عشيقة. خطيبة... وتمرّ دقيقة ثالثة، أحمل فيها كتابًا وأبدأ بالمذاكرة، فتلوح لي بين السطور السوداء والورق الأبيض نيران حمراء تلتهم أثوابًا حريريّة عطرة، تخرج منها، بسرعة البرق، نساء عاريات، تلحقهنّ حلقات من عمالقة زنوج يرقصون على لحن من ألحان الجنّ. ويضجّ العالم شيئًا، فشيئًا، حولي... الحرمان الباكي... وأفتح بابي كلّ ليلة، وأندفع كالمجنون إلى السينما!».

وصمت. ثمّ قال:

«أنت لا تعرفين معنى الحرمان. أنت لا تعرفين قيمة ليرة، بجانبها ليرة هي ثمن تذاكر للسينما، حرمتها على نفسي! أنت...».

ومدّ يده مشيراً إليّ، موضحًا:

«أنت، لماذا أخبرك عن كلّ هذا؟ من أنت؟ من قال لك أن تتدخّلي بخصائص حياتي، من أين جئت، ماذا تطلبين؟».

ووقف حزينًا يودّعني بعبارة هي أفظع جريمة اقترفها الحرمان في حقّي:

«أنت... أنت لست أكثر من واحدة من تلك النساء الكثيرات. أنت مثلهنّ: أنثى، لك ساق، لك قمّة نهدين، لك زند عارٍ...».

لا أدري كيف اختفى. كنت أراقب شبحي في أول يوم ذهبت فيه إلى المؤسّسة، أراقبه يتهادى في سيره. والمطر يبلّل الشعر القصير، والثياب. وخطر لي في تلك اللحظة أن أعدّ النساء في الشارع. واحدة، ثلاث، عشر نساء فقط. لا. لا يجوز لي جمع نفسي مع بقية النساء: أنا واحدة! واحدة من عشر، من مئة، من مليون... أمّا أن أكون واحدة مع عشر، مع مئة، مع... فهذا خطأ أرتكبه!

وعدت إلى البيت بعد اختفائه.

ألم أفكِّر هذا الصباح، لما تفتّحت أزهار البنفسج في أحواضها على شرفات بيتنا وجمعتها أمّي ضمة زينت بها صدرها... ألم أعرف أنَّ بداية هذا الربيع غير ربيع السنة الماضية، ولن يكون كربيع السنة المقبلة؟

استلقيت على مقعد مريح، في الصالون، تنتشر حولي الصحف... وأشعلت سيجارة.

فشهقت أمّي حين رأتني، وصرخت:

«ما هذه الفوضى؟ نادي سميحة الخادمة، لإعادة النظام هنا! اسمعي...».

أدرت لها ظهري، وأجبت بضيق:

«أمرك، سيّدتي!».

فأدركت أنّني ثائرة، وتقدّمت منّي. وانحنت... حتى لامست حزمة البنفسج أنفي، وقالت:

«ستزورنا أمّ الشابّ الذي حدَّثتك عنه، وقال إنَّه رآك عند «العمّ سام»، بصحبة أحد طلاّب الجامعة، فمن هو هذا الذي تجالسينه؟ أهو الشابّ الذي سألك يوماً عن سبب تغيُّبك؟»

لم أجبها، فصارحتني مؤلمة.

«إنَّه يتلهّى بك! إنَّه...».

أخرستها حانقة.

«إنَّه.. إنَّه.. ما دخلك أنت بمشاكلي؟».

وجلست، متابعة:

«يعجبك أنَّه لا يراني أكثر من واحدة من مجموع النساء المنتثرات في شوارع بيروت الكبيرة، ومعاهدها، ومقاهيها، ودور العمل فيها! إنَّه... إنَّه... أرجوك أن تكفّي عن التحدُّث عنه... لن أصغي إليك، ولا لأمّ الشابّ، ولا للشابّ أفهمت...؟»

فردَّدت هاذية: «أنت كارثة في هذا البيت!».

ورفعت نظرها في فضاء الغرفة فلمحت سحابة دخان دقيقة ترتفع في الزاوية لتنتشر في الأرجاء.

فتقدَّمت، وتقدَّمت... ثمَّ جمدت، حين صدمتها سيكارتي تذوي على طرف المنفضة، خلف الزهريّة. وتساءلت بحشرجة:

«من كان يدخِّن هنا؟».

«أنا...».

فصفعتني! ثم ولولت:

«أنت؟ متى كانت الفتاة في أسرتنا تجوب الشوارع، كبنات الليل؟ متى كانت تجالس الرجال، وتزجّ أنفها في مشاكلهم؟ متى كانت الفتاة تدخّن، وعلى مرأى من أمّها؟ قولي متى؟ قولي، ما الداعي لهذا التمرُّد، وهذا الشذوذ؟ ماذا ينقصك: فستان؟ سيّارة؟ مال؟ منزل؟».

وكنت مستلقية على الأريكة المريحة، فخبّأت موضع الصفعة بكفّي. ولملمت جسدي ودفنت رأسي في الزاوية، وبكيت... بكيت، فتركتني مزمجرة:

«ستلحقين العار بالأسرة!».

بكيت، وتمنّيت أن أبكي... وأبكي... وأبكي، إلى أن أرطّب المقعد الوثير، وإلى أن تنفذ الدموع من الخشب لتغسل البلاط تحت الأريكة المريحة. وأبكي عن سنوات عديدة علّمتني فيها ألاّ أبكي، لأنّ البكاء، كما قالت: ضعف، وتذلّل، وجريمة المرأة!

نقّبت في ذاكرتي عن دوافع تنتزع الدمعات الساخنة من عينيّ، ونقّبت... فإذا أنا أغرق فجأة في نوبة ضحك. فوقفت، وجمعت الجرائد، وسميحة تراقبني وجلة فرحة، ورميت بين يديها كومة الورق وصرفتها.

- ٨ -

أيَّة بطولة سأقوم أنا بها؟

أأتسلَّل في الظلام، وأخفي تحت مقعد الرئيس قنبلة تهدم المؤسّسة، وتبعثر أجزاء الدولتيْن العظميين؟

لكن، سيُقبض حتمًا عليّ، وسأُحاكم، وستغصّ قاعة المحاكمة بالفضوليِّين، وسيرتفع اسمي على أسماء أخطر الأحداث في الصحف والمجلاّت، وستملأ صورتي الجدر في كلّ مكان، وسيشغل عملي الإجرامي هذا عقول الناس زمنًا... ثم أُعدم!

أُعدم! لا، لا أريد أن أموت، فأنسى إلى الأبد!

هذه بطولة عاديّة. أمّا بهاء، فسيقترف جريمة!

أيَّة جريمة سيقترفها بهاء؟ هل تنجح يداه في قتل إنسان ما؟ وامتدّت يداه أمامي، يقطر منهما عطر الآلهة... ثم نامتا على الأوراق

البيضاء، تشعّان بالنور الأزرق: وُجدت هاتان اليدان لتداعبا كلّ جسم بضّ، سريع العطف. أحنيت رأسي عليهما، أحنيته على اليدين الموهومتين، أستعيد صور ساعات عذَّبتني فيها الوحدة قبل أن ألتقي ببهاء.

كان الظلام يتراكم بسكون على التراب، وبين جذوع الأشجار. وكان الضوء يسرف في هروبه من شبّاك مكتبة الجامعة، فيمنح العتمة كثافة. وضايقني أن يعجز نظري عن رؤية الأشياء عبر الأجسام الكثيفة. وإذا شعور السخافة يدبّ في الحروف التي كنت ألتهمها شغوفة بمعانيها، منذ لحظة! وإذا أنا أغرق في قلق الوحدة! وإذا أنا أفتّش عن إنسان أكلّمه. الوحدة... كيف سأشرح لهذا الزميل، الذي يرتدي سترة مخطّطة بشكل مربّعات بيضاء وبنيّة، كيف سأشرح له أنّني أحتاج لقتل وحدتي؟ ليته يقرّب كرسيّه منّي! ليته ينظر فقط إليّ... الدرس يسيطر عليه.

ورأيت الشابّ يسترق نظرة إلى وجه فائر. وإذا به يهمل كتابه ويجرجر انتباهه على جسد صاحبة الوجه، المنتصبة في الزاوية. إنّها تقلّب صفحات مرجع هامّ لموضوع محاضرة المساء.

فتاة عاديّة، جمالها هادئ، بسيط. فستانها أحمر مبتذل نصطدم به كيف سرنا، ولكنّنا لا نراه. وقفتها الجامدة تتعب النظر، فيرتدّ فوراً عنها، كما فعل الشابّ ذو السترة المخطّطة...

أطبقت كتابي ووقفت، فتلفّتت أكثر رؤوس الحاضرين تتبعني إلى حيث تقف الفتاة...

سأنتزع منهم مشاركة. أنا وحيدة، ولا أريد أن أكون وحيدة. لن أبقى مسمّرة مجهولة في هذا المكان.

وكأنّني أخطر على مسرح خشبي، وكأنّ الزملاء في المكتبة روّاد دار للأوبرا، يشهدون تمثيليّة فكاهيّة، وقد أكملوا الزحف معي، يفتّشون عن النكتة في دوري.

وانتصبت بجانبها، فاختلطت ألوان ثيابي الغريبة بأحمر فستانها. وإذا نحن فتاتان: لا أنا، ولا هي. فأهملتنا العيون التي كانت تفتّش عن النكتة، والتي لا تفهم مأساة الإنسان.

مأساتي أنا!

أمّا الآن، فقد ولّت ساعات الوحدة واضمحلّت: قضى عليها بهاء.

لا ريب في أنّ بهاء محروم هذا المساء، ككلّ مساء. وقد جرّه الحرمان إلى السينما. وأنا وحيدة...

أنا أملكُ كلّ ما يروي النداءات في كيان بهاء

وهو بعيد، يملك قدرة جبّارة على قتل وحدتي.

لست خياليّة، وأنا لا أؤمن بالنظريّات. إنّما، وفي هذا المساء، يكفيني منه أمل بلقاء، وانشغال بذكرى عابرة.

أطفأت النور، وأقفلت باب مكتبي، أغادر المؤسّسة... وعلى السلّم التقيت بالرئيس تصحبه امرأة شقراء. أنا على رأس السلم، وهما

في أسفله، أسمع خلف الرئيس ضربات أحذية عساكر الدولتين العظميين، وأسمع خلف المرأة حفيف الدولارات، في تجمّعها بيد بائع الأحذية الأرستقراطيّة البرّاقة!

ثمّ لم أسمع غير كلمة الرئيس، بعد وصولهما إلى الرأس:

« زوجتي ».

فمدّت الشقراء يدها، وفي يدها رأيت نثرًا من أوراق النقد عالقة بين الأصابع... ومددت يدي، وفي يدي ارتباك... أأقول لها: زوجك عميل للأجنبي، سافل؟ وأبعدت يدها، بينما مسحت يدي بتنّورتي. وقالت ببشاشة مصطنعة:

« أنت رائعة ».

فقاطعها زوجها، يسألني:

« لماذا أنت هنا؟ ».

وأسرعت أسأله بدوري:

« وأين يجب أن أكون؟ »

فنبهني ثائرًا:

« في قاعة الدرس: في الجامعة ».

آه، إنّه لا يعلم. لم أخبره. وأنقذت موقفي بضحكة عصبيّة أغضبت الزوجة. وأكملت هبوط الدرجات الرماديّة.

ـ ٩ ـ

الساعة تقارب العاشرة صباحًا، وأنا ملتصقة بالكرسي عند العمّ سام، ومكتبي في المؤسَّسة ينتظر قدومي، والخطابات مبعثرة على الدرج، والرئيس يهدِّد خائفًا من «البعبع» الذي يحطِّم ستاره الحديديّ!

لماذا أنت هنا؟

حملت الطرف عن كوب الماء ورميته على وجه بهاء، وتبسّمت. وانتشر الاطمئنان في نفسي، ولم أجب.

وإذا صمتي يحرِّك بريقًا في عينيه: إنَّه غاضب، وهو يخيفني حين يكون غاضبًا!

في عينيه بريق ساحر مبهم. وعلى وجنتيه مسحة ارتباك حمراء. وفي رشفات سيجارته كلمات حيرى. فصارعت لأتمكّن من متابعة استعراض الروعة في رقصتها مع الغضب على وجهه... ففشلت.

يشلّني الآن قربه منّي.

حملت نظري على يده، ثمّ رميته على قميصه الأبيض. ثمّ زحلقته على رقبته. إلى ذقنه... إلى فمه... إلى عينيه... لحظة واحدة واجهت فيها غضبه، وما لبث نظري أن ثقل وارتمى على كوب الماء. وتمتمت:

«لا أريد أن أموت!».

فذُعر، واقترب منّي، فازداد ألم الشلل في جسدي! وتابعت:

«شهدت منذ دقائق مصرع إنسان. كنت على المحطّة أنتظر الترام. سمعت صرخة داوية. ترك أصحاب الدكاكين دكاكينهم. لعلع صراخ النساء. أطلّت الرؤوس من الشبابيك. كنت جامدة!».

وابتلعت وجهه المتقلّص بنظرة خائفة، وقلت متمنية:

«ليتك كنت معي. ليتك رأيت الموت مثلي، لتفهم قيمة الحياة التي نرتع في رحاب فورانها».

وعادت رائحة الدم تسري في أنفي. واشتدّت حرارة الشمس على صورة الجسد الغارق في الدماء التي تلاحقني. فأكملت:

«حين رأيت الشابّ المدهوس، تساءلت: أهذه دماء؟ من أين أتوا بهذا السائل الأحمر؟ ولكن، حين شممت رائحته، وصرخت إحدى النساء: نفد كلّ دمّه! دفعت غلاماً كان يفصلني عن الميّت، وانحنيت أقارن بين رقبة المذبوح ورقبة الخروف الذي يعلّقه الجزّار في دكّانه...

فتراجعت، وخبّأت رقبتي بيدي، وابتعدت... وفي معدتي جيشان وفي خاطري قرف! أنا أحتقر جسدي. هذا الذي يُذبح فيفنى، ويضمحل!» وصرخت:

«قل لي، إذا كان الموت حقًّا، فلماذا يسلبنا الإله الحياة سلبًا؟ قل لي: لماذا لا يدعنا نولد وننمو تدريجيًّا: من طفولة، إلى شباب، إلى كهولة... ثم نذوي كما تذوي الزهرة بعد أن تجتاز مراحل الحياة كلّها، إلى النهاية، محقّقة بذلك الغاية من وجودها؟ هذا طغيان! هذه خديعة، يترفّع عن التدنّي إليها إله نعبده ونؤمن به!».

وارتبك، في عجلة استمداده اللّذّة من الجسد الذي فكّر بأنّه سيُذبح، سيفنى، وسيضمحلّ! وأرغمني على رشف القهوة، وحاول صرفي عن ذكرى الحادث مداعبًا:

«كلّ النساء ضعيفات، وأنت واحدة منهنّ».

فلم أكترث لملاحظته التافهة، وردّدت:

«كان ضوء الشمس للميّت مجرّد بداية يوم سيتوجّه فيه إلى عمله. ثم يتناول طعامه مع عائلته. ثم يصحب فتاته إلى السينما... فإذا الشمس وضوؤها موت أحمر!».

وتابعت بشدّة:

«أكرهه. لقد غرس في نفسي اشمئزازًا وحقارة! آلم جسدي منظره! لا، لن أنسى: ترام يسلب الروح. دماء. صراخ. ضعف. روائح. جيشان... آلة تسلب حياة... آلة...».

وزأر كأسد ضائع هيّجته فريسة:

«ما هذه المبالغة في تقديس حياة الإنسان؟ من المفروض أن يكون اختفاء الفرد من الوجود بمثابة استهلاك قطع الحديد لبناء منزل، أو كمّيَّة طعام لتغذية الجسد، أو عرض أفلام على الجمهور...».

وزأرت مثله متوجِّعة:

«أنت شيوعي. أنت مجرم!».

واشتدّ عنف الجوع في نفسه، فاشتدّ الزئير:

«سأقلته، هذا الذي يزجّ الشعب كلّ يوم في محالفة أجنبيَّة جديدة. هذا الذي يسيطر على التاج. والعمامة. والخيمة... وسأقتله بآلة! ولا يهمّني إن كان قتل إنسانٍ ما يؤلمك! من أنت؟ أنت محظوظة لأنَّك وُجدت في بلد مستقلّ كما وُجدت في بيت غنيّ. لكنْ قولي: هل شاركت في تهيئة سياسة مستقلّة؟ هل كافحت في جمع الثروة؟».

وتمهّل، فعادت إلى عينيه رقّتهما، وتابع:

«هل الحريَّة لكِ؟».

فأجبت:

«أنا أعلم أنَّها للشابّ الذي أكلت بنادق الفرنسيِّين ساقه. إنَّها لليتيم الذي دلّى العثمانيُّون جثَّة أبيه على عمود في ساحة الشهداء. إنَّها لجدَّتي المظلومة التي حُرِّم عليها السير في الشارع... لكنَّني أعمل اليوم لنيل حرّيَّة من نوع آخر: حرِّيَّة فرديَّة، تكمل الحريَّات السابقة!».

فقاطعني ثائراً:

«عدنا إلى أسطورتك! الحرِّيَّة هي أنا... أفهمت ما معنى أنا؟ الشعب الذي ينوء تحت سياط الاستعمار! سأمنحها لهم في الليل...».

وأخفض صوته، وتقطَّعت لهجته:

«في الليل سأغير على البيت، والظلمة تحجب وجهي، فتحيلني إلى عمود أسود يتحرَّك في سكون الطرقات الضيِّقة. سأدور حول النهر مرَّات، وسأتَّكئ في دوراني على المسدّس، أستمدُّ منه عونًا وجرأة».

إنَّه يستمدّ من كلّ ما حوله. يستمدّ منِّي لذَّة!

وراح يكمِّل:

«طلقة واحدة... وإن لم تكفِ فسأطلق غيرها، مع أنَّه لا يستحقّ ثمن رصاصتين! لن أهرب في الحال. سأبذل المستحيل لاغتنام لذَّة الاقتراب منه!

سيستمدّ من ضحيَّته لذَّة. كما يستمدّ منِّي لذَّة. وكما يستمدُّ من المسدَّس لذَّة.

وكان يتابع:

«سأتفحَّص حفرة الدم التي استقرَّت على الجبهة، توزَّع الشراب الأحمر رخيصًا على الفراش الظمآن وعلى الوسادة الملعونة التي تخزَّنت فيها زمنًا مؤامرات اللصّ الأحمر، في الخفاء. ثمَّ أدبّر المنفذ المناسب للهرب».

وزأر كأسد ضائع هيّجته فريسة:

«ما هذه المبالغة في تقديس حياة الإنسان؟ من المفروض أن يكون اختفاء الفرد من الوجود بمثابة استهلاك قطع الحديد لبناء منزل، أو كمّيَّة طعام لتغذية الجسد، أو عرض أفلام على الجمهور...».

وزأرت مثله متوجِّعة:

«أنت شيوعي. أنت مجرم!».

واشتدّ عنف الجوع في نفسه، فاشتدّ الزئير:

«سأقلته، هذا الذي يزجّ الشعب كلّ يوم في محالفة أجنبيَّة جديدة. هذا الذي يسيطر على التاج. والعمامة. والخيمة... وسأقتله بآلة! ولا يهمّني إن كان قتل إنسانٍ ما يؤلمك! من أنت؟ أنت محظوظة لأنَّك وُجدت في بلد مستقلّ كما وُجدت في بيت غنيّ. لكنْ قولي: هل شاركت في تهيئة سياسة مستقلَّة؟ هل كافحت في جمع الثروة؟».

وتمهّل، فعادت إلى عينيه رقَّتهما، وتابع:

«هل الحريَّة لكِ؟».

فأجبت:

«أنا أعلم أنَّها للشابّ الذي أكلت بنادق الفرنسيِّين ساقه. إنَّها لليتيم الذي دلَّى العثمانيُّون جثَّة أبيه على عمود في ساحة الشهداء. إنَّها لجدَّتي المظلومة التي حُرِّم عليها السير في الشارع... لكنَّني أعمل اليوم لنيل حرّيَّة من نوع آخر: حرِّيَّة فرديَّة، تكمل الحريَّات السابقة!».

فقاطعني ثائرًا:

«عدنا إلى أسطورتك! الحرّيّة هي أنا... أفهمت ما معنى أنا؟ الشعب الذي ينوء تحت سياط الاستعمار! سأمنحها لهم في الليل...».

وأخفض صوته، وتقطَّعت لهجته:

«في الليل سأغير على البيت، والظلمة تحجب وجهي، فتحيلني إلى عمود أسود يتحرَّك في سكون الطرقات الضيِّقة. سأدور حول النهر مرَّات، وسأتَّكئ في دوراني على المسدّس، أستمدُّ منه عونًا وجرأة».

إنَّه يستمدّ من كلّ ما حوله. يستمدّ منّي لذَّة!

وراح يكمِّل:

«طلقة واحدة... وإن لم تكفِ فسأطلق غيرها، مع أنَّه لا يستحقّ ثمن رصاصتين! لن أهرب في الحال. سأبذل المستحيل لاغتنام لذَّة الاقتراب منه!

سيستمدّ من ضحيَّته لذَّة. كما يستمدّ منّي لذَّة. وكما يستمدُّ من المسدَّس لذَّة.

وكان يتابع:

«سأتفحَّص حفرة الدم التي استقرَّت على الجبهة، توزَّع الشراب الأحمر رخيصًا على الفراش الظمآن وعلى الوسادة الملعونة التي تخزَّنت فيها زمنًا مؤامرات اللصّ الأحمر، في الخفاء. ثمَّ أدبّر المنفذ المناسب للهرب».

وتمتمت فرحة: «أنت بطل...»

فكفَّ عن هذيانه، وعضّ شفته، فاستدركت حزينة:

«أنت تودّ الانتحار. أنت... أنت مجرم. أنت أداة صدئة بيد حزب يستعبدك. لا تدري أنَّك في طريقك إلى الفناء. هل أنت الذي هيَّأ الجريمة، أم هو مجرم خبير من زملائك؟ أنت عبد للحزب، وأنا حرَّة... لن أخضع لأفكار أيٍّ كائن، وإن كان هذا الكائن إلهًا».

وقرَّب كرسيه، وقربه يشلّني. وانتقم مجيبًا:

«وأنت... كافرة! أنت تنالين من قداسة إلهك بهذه الأفكار عن الموت والحياة».

وقمت ببطولة رائعة حين كتمت رغبتي في صفعه، فأجبت:

«وأنت، هل يعترف حزبك بوجود اللّه؟ هل أنت مؤمن بالحياة؟».

وقهقه مهتاجًا:

«أنت طفلة».

ووقفت متثاقلة، فوقع نظري على رقبته: دماء. دماء قانية. لا، لن أتيح لقطرة واحدة من الدم أن تسيل من جرح بسيط في جسده!

ووقف بدوره آمرًا:

«لن تنصرفي الآن. ليكن هذا النهار لي ولك!».

وعمَّقت نظري أكثر وأكثر في رقبته، وفكَّرت:

لن أدعه يغيب عن الحياة. ليذهب حيث شاء، ليعذِّبه الحرمان، لتشبعه الرؤية... خلق بهاء ليعيش، لا ليقتل، لا ليلتفّ حول رقبته حبل وسخ.

وأحسَّ بثقل نظري، فاستشار ساعته، وتمتم:

«بعد نصف ساعة موعد درسي. وأنت ستقضمين أصابعك ندماً لبعثرتك الوقت هدراً بين البيت والشارع والمقهى».

وكتم ابتسامة ماكرة تلاشت شيئًا فشيئًا على شفتيه، واقترح:

«لن نغادر هذا المكان».

وفي دقائق امتصاصه الحياة من السيجارة، تلهّيت بالتفتيش عن ساعة الجامعة خلف الأغصان المتشابكة. وقلت: «أنا جائعة».

فانتفض بهاء مكمِّلاً:

«والشابّ الأعزب يتناول طعامه وحيداً في مطعم».

وسألني باهتمام:

«لماذا لا تتزوَّجين؟».

«أنا؟».

كان منذ هنيهات بطلاً أمامي. وإذا به الآن رجل، رجل عادي ككلّ الذين أصطدم بهم في مقرّ عملي. في البناية التي أسكنها. في الشارع... في كلِّ مكان!

كنت منذ هنيهات معجبة، ثم مشفقة، وإذا أنا امرأة: أنا أنثى!

حرَّك سؤاله في نفسي عاطفة غير العاطفة التي خلقها منذ أيّام في تلك النفس. هذه العاطفة تتحرَّك في جسدي: أنا زوجة! معناها: أنّني عارية، بعد نزع الغلالة البيضاء عن الأهيف السكران، وأنَّ السرير الورديّ فوّاح الجوانب، وأنَّ الزواج يتأهّب لنمارس معًا، في الظلمة، صناعة الأطفال!

ومعناها: أنّني ذابلة، بعد أن أمضيت ساعات ضجر في المطبخ، وقد نجحت في إعداد طبق زوجي المفضَّل، والتهم الزوج الطعام الفاخر، وتمدَّد على المقعد يصغي لنشرة الأخبار وأنا، بعد أن استيقظت على شفتيْ رغبة في التقبيل، أراقبه بذلّ، وأدعوه بصمت، وأزحف إليه على ركبتيّ، أستنجده أن: كفّ لحظة عن إهمالي، فلا يكفّ. وتنتهي النشرة الإخباريَّة فيحمل صحيفة المساء، والرغبة المقتولة على أناملي تبني بيني وبينه حجرًا فوق حجر!

معناها إذن: أنا العبدة، وهو السيِّد المطاع. لي التلبية، وله الطلب. لي الجوع وله الشبع. لي الانتظار، وله ساعة التنفيذ!

ولها معانٍ كثيرة غيرها، حاولت تجسيمها فانتزعني بهاء من شرودي مبديًا:

«أما أنا، فالزواج عندي مقامرة! وأنا، ككلّ شابّ مثقّف، إذا لم يجد المرأة التي تتفهَّمه، تبدأ مأساته، حين يجبر على شراء زوجة تشاركه الفراش كأنثى!».

فقلت حانقة:

«أمّا مأساة المرأة فتبدأ حين يعتقد الرجل أنَّ المرأة قبلته زوجًا لأنّه سيلبسها سوارًا، ويسكنها في بيت...».

فقاطعني:

«وماذا تريد المرأة أكثر من ذلك؟».

فشرحت متحمِّسة:

«تريد مشاركة: أن يشاركها زوجها الحياة التي يحياها، في سماع نشرة الأخبار، في قراءة كتاب معيَّن، في الذهاب إلى السينما، في شرب الكولا، في تدخين السيجارة، في ردّ الزيارات، في إعداد المائدة... في كلّ ما يدخل في حياتهما المشتركة. أن يشاركها، ولا فرق عندي إن كان فراشهما الرصيف، وزواجهما باطلاً، وعالمهما يائسًا مضطهدًا».

وضحك هذه المرَّة بسخرية:

«المرأة: هذا الشيطان الكافر المدمّر، هل تسعد الرجل وهي التي وُجدت لإيذائه؟ هي في فراشه تتلذّذ. هي بدراهمه تترفَّه. هي من دمه تمتصّ. وهو في ظلّها يذوي ويموت!».

كان الضعف يبدو في عينيه، إذ كانت في عينيه رغبة، وعلى شفتيه كلمات. كان مشتَّتًا. لهذا تلعثمت، وفضَّلت الاحتفاظ بصمتي، وتخيَّلت وجه امرأة يقترب من وجهه... يقترب لاهثًا،

مطالبًا، ملحًّا، وبهاء جامد، فعضّت الرغبة كيانه. وإذا الصخر الرملي يلين. وإذا الشفتان ترتجفان. وإذا الهوى يسكر معربداً على الأجفان.. وانقضّ بهاء على وجه المرأة يحييه بالقبل!

أغمضت عينيّ، فسألني إن كنت أشكو من ألم ما، فتمتمت أن لا. وانصرفتُ، وبقيّة هذا النهار تنطوي بين يديه، فتقرِّبه من الساعة السادسة والنصف: موعد السينما. وتقرِّبني دائمًا من السرير: تحسَّست غطاء وسادتي بيدي، فإذا هي ترتدي اليوم غطاء جديداً. وألقيت رأسي عليها، وأغمضت عينيّ. ماذا تغيَّر في غرفتي غير غطاء الوسادة؟ كلّ شيء هنا لا يزال كما كان منذ ستّ سنوات: هدير السيَّارات. البناية الصفراء المقابلة. الأرض الشاسعة التي اشتراها والدي، والتي يضيع في رحابها بيت خشبيّ حقير. وقرقعة الترام الزاحف في الشارع الرئيسيّ خلف بنايتنا. والمرآة...

تحسَّست غطاء الوسادة بأنفي فإذا هو بارد لا أثر عليه لرائحة الكتب، وأوراق الامتحانات، وملوحة الدمع، والخصام مع أمِّي... على غطاء وسادتي الجديد: صورة وجه يغرق في الدماء، وصراخ نسوة، وترام نابح!

وفُتح باب غرفتي بهدوء، وأطلَّت أمِّي تسألني:

«لماذا تجلسين وحيدة؟».

وتقدَّمت، وأنا أدرس خطواتها البطيئة المتَّزنة: تتفوَّق أمِّي عليّ بأمر واحد، هو أنَّ فراشها معطَّر، دافئ، أمين، وفراشي موحش قاحل مخيف! ولهذا تتمتَّع أمّي، وغيرها من النساء المتزوِّجات، بتقدير المجتمع ورعايته وإعجابه!

وتعالى صوتها مجنونًا:

«أأعجبك غطاء الوسادة؟».

فأجبتُ بامتعاض: «لا بأس به». ثم أكملت بوقاحة:

فراشي كلّه يثير حنقي، فحين أدفن فيه جسدي، يخيَّل إليَّ أنَّني أدفنه في حفرة تنصبّ فيها مياه المراحيض! وينتابني خوف قاتل، وأقول: ربّما لن أفيق هذا الصباح، وفي كل صباح. ربّما سأموت في تلك الحفرة!».

وبدا الغضب على وجهها المستنكر، وأمرتني:

«بدل أن تنسجي أفكاراً منحطَّة كهذه، اهتمِّي بمشاكلك الدراسيَّة. لم أصادف في حياتي كلّها طالبة مثلك: تعمل، وتدخِّن، وتتردَّد على المقاهي والمطاعم».

«حياتي كلّها»... حياة أمِّي كلّها... ما أغبى أمِّي!

فحياتها ليست أكثر من يوم واحد: تتزيَّن فيه، تستقبل الزوّار، توزِّع الزيارات. تشرف على المنزل. وفي المساء تنام بجانب والدي! أهذه هي الحياة؟

وقلت بهدوء:

«تركت الجامعة!».

فأدارت ظهرها تجيب:

«هذا أفضل رأي كنت فيه مصيبة...».

فقاطعتها:

«تركتها لأنّني أردت تركها، لا لأنّك ترتاحين، أنت، إلى ذلك!».

وأجابت على الفور:

«وأنت، خُلقت للشارع أكثر ممّا خُلقت للجامعة! فاللّه ينكب كل أسرة بفرد مستهتر مثلك! لا تهمّني الحياة التي تختارينها!».

ودفنت رأسي تحت الوسادة، وتمتمت:

«أريد أن أثبت لنفسي أنّني...».

لكنَّ كلماتي ضاعت في دويّ الباب الذي كادت أن تحطّمه خلفها: ... «إنّني حقًّا أعيش».

ـ ١٠ ـ

فتحتُ عينيّ في الصباح فإذا غرفتي تغرق في شعاعات ضعيفة تتراكض مسرعة من السماء. وإذا المرآة أكثر أثاث غرفتي نوراً، وأكثره لمعانًا، وأكثره ثقلاً.

أنا أسكن هذه الغرفة. أنا أعرف بهاء. أنا تركت الجامعة. أنا أعمل في مؤسَّسة دعاية ضدّ الشيوعيَّة. أنا تخاصمت البارحة مع أمّي...

ولأجسِّم هذه المشاكل رحت أعطيها أسماء أثاث الغرفة:

بهاء: المرآة.

المؤسَّسة: المقعد.

الجامعة: جريدة الصباح.

أمّي: غطاء الوسادة.

وأنا: الفراش القاحل الموحش.

تمدّدت على ظهري وحدّقت في السقف، ثم رميت الشراشف عن جسدي الممدّد، ودفعتها بقدميّ إلى الأرض، وكشفت عن ساقيّ: تغمرني، كما تغمر الغرفة، حرارة تضايقني.

وتهادت الأفكار المجنونة من المرآة بسرعة: بهاء. من المقعد: الرئيس. من غطاء الوسادة: أمّي... فحرّكت يدي في الفضاء أستمهلها. لكنْ... الأفكار هنا: أحسّها في المرآة، في المقعد، في غطاء الوسادة... وأنا مستلقية أمامها على السرير.

تفيض الحرارة من هذا الجسد، وبهاء محروم يتلهّى عن حرمانه بمضغ حلويات المواضيع الجامعيّة، ويحارب الحرمان بساعات يفنيها على كرسيّ في صالة سينما، ويفسّر الحرمان بنظريات اكتسبها من هذا الريف الميّت، الناقم، المتديّن...

صوّبت نظرة إلى المرآة، فلاحت لي في أعلاها جملة معروفة قالها أحد الحمقى: «المرأة كالظلّ، إذا تبعتها هربت، وإذا تجاهلتها تبعتك». ورأيت بهاء تحت هذه الجملة يجري، وتجري خلفه عشرات القناني السوداء، المتحرّكة... ثمّ اختفت النساء وظهرت لي معاول تحفر صفحة الزجاج، وخيوط الشمس تبتعد تاركة في المرآة زوايا معتمة. وفي العتمة انتصب العمود الأسود وبيده مسدّس. وانطلق الرصاص من الفوّهة الضيّقة، وتفجّر الدم من الحفرة، والتفّ الحبل حول العنق!

تململت على السرير: حان موعد ذهابي إلى المؤسَّسة، وأنا لن أغادر غرفتي. أَوَلست حرَّة في أن أذهب إلى المؤسَّسة أو لا؟

لن أذهب.

رفعت الشراشف عن الأرض، والتفقت بها حين سمعت وقع أقدام تقترب من الباب، وتماوجت نفحات عطر والدي حولي، واستقرَّت على كلّ ما لمسه. لم أنتشل رأسي من الظلمة المحبوسة بين الفراش والغطاء. لكنَّني تحرَّكت تحت الشراشف. فقال والدي، وأظنّه اغتصب ابتسامة عاديّة، قبل أن يتكلَّم:

«هل أقفلت المؤسَّسة؟».

دفعت عنّي الغطاء بحركة ثائرة، وجلست أجيب:

«لا. لماذا؟».

فرفع حاجبه الأيمن، وقال:

«ظنّت والدتك أنَّك غرقت في الحفرة المزعومة، والساعة الآن هي العاشرة».

أخبرتُه إذن؟ وأمضيا كلاهما قسمًا طويلاً من الليل في جمع أفكاري، وتحليلها، ومحاربتها؟ وأظنّ أنَّ الوالد أعد محاضرة بليغة في أصول التهذيب والاحترام وجاء ليفرغها، في اللحظة التي أحاول إمساك زمام مشاكلي وحلّها.

لن أسمع حرفًا واحدًا...

وتتبَّعت انحراف نور الشمس، متزحلقًا عن المرآة، إلى الأرض. فجابهني قاسيًا: «ما معنى قصَّة هذا الشَّابّ؟».

ارتجفت: أولست أنا البرهان الحيّ على أنَّ هذا الرجل مغرور، متزعِّم، غنيّ، يعاقب...

وغادرت سريري وغطَّست جسدي في النور على المقعد، والوالد يدور ضجرًا في مكانه، وتمتمت: «هو زميل يهتمّ بي وأُعجب به».

ودُهش، ثم راح يضرب كعب حذائه بالبلاط... وجمعت جسدي كتلة واحدة تنبض في هذا النور المتألِّق. واقترب والدي. ثم شدَّني بعنف يسحبني عن الكرسيّ مهدِّدًا:

«أنت وقحة! من أجل هذا الشابّ تركت الجامعة، من أجله تتغيَّبين عن المؤسَّسة، من أجله تسهرين الليالي في علْك هذه الأفكار؟».

نزعت يده عن ثيابي، فانقضّ على ذراعي يطردني من عالم النور... فتملَّصت من قبضته ورجعت إلى العالم المتلألئ على المقعد، وصارحته باكية:

«أنت تملكني، فلهذا تزداد الآن قساوة. أنت تجمع لي ثروة، فلهذا تعتزّ وتتمسَّك بحقوق ملكيَّتك لي».

وتفكَّكت التقطيبة المهدِّدة على جبينه، ثم تلاشت في زوايا الوجه: البكاء. هذا الغبيّ يضعفه البكاء. فاستدار وتركني مردِّدًا:

«سنرى... سنرى...».

لا يهمّني ماذا رأى والدي، وما سيرى. الأكثر أهمّيّة عندي هذه الفنون القيّمة في أساليب الإقناع التي تخطر مدلّلة على وجه بهاء.

فبعد أن غسلت وجهي بمياه مثلّجة، وبعد أن ارتديت ثيابي بتيه واندفعت مذعورة إلى المقهى، أصطدم بالناس ولا أراهم، اعترتني إحساسات غريبة: إنّ جسدي يتمدّد، ويرتفع ويتعالى، ويحتكّ بالسماء... والناس ينكمشون، وينحطّون، ويلتصقون بصفحة الشارع السوداء. ولم أسمع في اندفاعي ضجّة السيّارات، وبقيّة الأصوات... وصلت إلى «العمّ سام»، ولبثت هنيهات متّكئة على الباب، يحملق الساقي في وجهي عجباً.

كان بهاء ينتظرني والقلق ينام تحت أجفانه المسبلة، ليتحرّك مرّة بعد مرّة على طرف السيجارة الجمري. وكان الملل يرقص على طرف حذائه، والصراع الذي يدفعه إلى اللامبالاة بي، وإلى الهرب، يصوّر هدوءاً مصطنعاً على يده القابضة على جريدة الحزب.

نظرة واحدة، اكتفى هذا المغفّل بنظرة واحدة، ليقضي على الملل، وليداوي القلق، وليقوّي من عنف الصراع.

سكنت حزينة على الكرسي، فمدّ رأسه صوبي حتى شعرت بأنفاسه تسلخ لحماً من الوجه تتغذّى به، وسألني:

«لماذا ترتدين هذه الثياب الصبيانيّة؟ ألم تعثري على تفصيلة تناسب تقاطيع جسدك غير هذه التنانير، وتلك القمصان؟».

وكسماعي وصفًا متقنًا، لفعل الخمرة في رأس محتسيها، دبدبت نمنمات نشوة في عينيّ، فتعكّر لونها.

أهذه بوادر استجابة لإثارة؟

ثم تساءلت، والطرب يعزف ألحانًا على الشفتين المهيَّجتين: لماذا لا يرحمني ويرحم نفسه؟ لماذا لا أمارس حقّي في الحياة، ويمارس حقّه؟ لماذا لا يقرّب رأسه ويلصقه بوجهي؟ لماذا لا يناغي الأذن الفائرة، ويدغدغ الرجفة مخفّفًا الهيجان على الشفتين، ويداعب الأنامل، فيساعد الارتباك على الرقاد عند رؤوس أصابع اليد اليسرى، ثم يفكّك أزرار القميص الصبيانيّ الفضفاض، ويمزّقه إربًا، بين قدميّ وقدميه، ثمّ يدعوني إلى غرفته، فأتبعه لنجمع مبعثرات حياتي إلى مبعثرات حياته ونخلق الحوادث ونرعى النتائج، ونغيب في خضمّ حرّيّتنا!

وليخفي أفكارًا مماثلة تكدِّره، استعان بسيجارته...

وبماذا أستعين أنا؟

وأبعد رأسه. وظلَّ رأسي مصلوبًا في الفضاء. ثم قال، وهو يود أن يقنعني بأنّه جاء لا لشوق إلى رؤيتي، بل لاستشارتي - كزميلة - في أمر:

«حصلت على وظيفة محترمة في المملكة السعودية. سأترك الجامعة لأستغلّ هذه الفرصة فأجمع بعض المال...».

هو يبتعد؟ وأنا أعود إلى الوحدة، والفراغ؟ لا!

إنّه الآن امتداد لذاتي، وأنا لست خطًا نسطّره ثمّ نمحوه. لست كرسيًّا نبدّل مكانه. لست سراجًا يُستضاء به ثمّ يُطفأ. لست زهرة نستنشق عطرها ثم ندوسها بالقدم. لست دمية مبتذلة، نلعب بها ثمّ نحطّمها. لست قنّينة نشرب منها ثمّ نكسرها!

أنا الحياة، أنا كلّ الحياة بجذورها وتمرُّد الحرّيّة فيها!

إنّها إرادتي منذ البداية في أن أتيح له الرتوع في خضمّ حياتي، وإنّها إرادتي في أن أحدّد له لحظة موافقتي على انسحابه.

لا!

لم أصرخها مستنجدة به، متشبّثة بثيابه، راكعة تحت قدميه! إنّما حملت الصرخة على كفّي الذي يعصر حقيبة يدي. وحملت جسدي المتألّم على رغبتي في ألاّ أذوق طعم الفراغ الآن، لأنّه سيتعمّد دفعي في غياهبه! لم أراقب تأثير استعدادي لتركه، بعد خمس دقائق من حضوري، على وجهه ورأس سيجارته. وكما شقّ موسى طريقًا له في البحر الأحمر، كنت أشقّ لي مسلكًا في بحر خواطري المتدافعة... إلى البيت.

- ١١ -

فتحت الصندوق الأزرق، الضائع في الطابق السفلي، فسقطت على الأرض بين قدميّ رسالة بيضاء!

التقطها، ورحت أقبّلها! ثمَّ أخفيتها في الحقيبة، وهرولت إلى مكتبي واتَّصلت بالرئيس أبشِّره بالحدث الجليل، الأوّل من نوعه، في هذه المؤسَّسة!

فأمرني الرئيس:

«اطّلعي على شكوى صاحب الرسالة، لمعالجتها في الحال» ثمَّ استدرك يخفِّف من حماسته:

«هذا إذا كان الأمر هامًّا!».

وبأصابع وجلى مزَّقت الظرف، فإذا داخله ظرف آخر من باريس كُتب عليه اسمي. وعرفت الخطّ: إنَّه خط وليد.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

«زميلتي...».

وحاولت أن أقلب الصفحة الأولى لأتحقَّق من اسم المرسل فلم أتمكَّن، لأنَّ عينيّ تعلَّقتا بالكلمات المتسلسلة، وإذا هما تتوقَّفان هنا، وتحملقان هناك. وبين هنا وهناك كانتا تقسوان، أو تلينان:

«كانت صفات المرأة المثالية حلماً في خاطري، لم أعتقد بأنَّه سيتحقَّق يوماً، إلاّ حين وجدتك تعملين بيننا. فراقبتك عن بعد. وأحببتك بصمت. وعشت مع طيفك ليالي مسهّدة، حيرى، منادية!

«تعتقدين أنني شاب مراهق، أحببت فيك جسداً. لا، حاولت أن أتفهَّمك بمراقبتي الصامتة لأحاديثك، وحركاتك، وأسباب حياتك. كما حاولت الابتعاد، وإبادة هذه العواطف. فسافرت في الشهر الماضي إلى باريس ـ أظنّك لم تشعري حتى بتغيُّبي. أليس غريباً أن يحبّ أحدنا شخصاً، فلا يعلم هذا الشخص بوجود من يسبِّب له عذاباً، وصراعاً، ووحشة؟

«حسبت أنَّ باريس ستصرفني عن هذه الأحاسيس الغريبة... لكن، أتفهمينني إذا قلت لك: إنّني في فراش اللّذة كنت أحلم بك؟ كنت ألمح خلف جسد الفرنسيَّة الممدَّدة جسدك نابضاً، مانحاً، نشوان؟

«ورجعت إلى بيروت بعد أيَّام قصيرة، لأنَّك أنت أقوى منّي! أنت مجرمة! أنت مسؤولة عن مؤثِّرات وجودك في تحويرها مجرى حياتي!

«أنا لا أستجديكِ التفاتة، أنا لا أؤمن بالحبّ من أول نظرة، أنا لا أريد استملاكك. أنت لي كمال!

« يسعدني، حين ترفضين مشاركتي الحياة، أنَّني حقَّقت ـ على الأقلّ ـ أمنيتك السخيفة: أن تجدي رسالة في صندوق فارغ!

وليد »

اضطربت، والرسالة مشلولة الجوانب، ترتجف بين أصابعي. ودرت حول المقعدين دورات عديدة. أنا مسؤولة عن مصير هذا الشابّ. أنا مجرمة، عكَّرت وجوده الآمن!

اجتاحتني موجة غضب عنيف، حين بُعث أمامي بهاء، تكاد عيناه تبتلعانني!

دائمًا هو: دائمًا بهاء يحشر نفسه في أيَّة مشكلة تعترضني.

ارتميت على المقعد، واستدعيت ندى، المحرّرة في المؤسَّسة، وطلبت منها إعطائي فكرة عن « الزميل العاشق »... لكنَّ لندى ابتسامة باهتة، لحظة رأيتها على فمها شعرت بالضيق وبعدم الثقة بها... فصرفتها بلباقة، بعد أن اكتفيت بقولها: إنَّه شابّ مثقَّف، ذو مكانة أدبيَّة، ومركز اجتماعي مرموق.

وتاه فكري في الفراش الأنيق، المعدّ في أحد فنادق باريس الماجنة: « شابّ مثقَّف » يطارد فتاة الرصيف، التي كانت منذ لحظة تصغي لوقع أقدامه في المنعطف المقابل... وتناغي الشقراء الجائعة رغباته بمشيتها المبتكرة وسيقانها الناصعة... ويسرع « الشابّ ذو المركز الاجتماعي »، ويسرع حتى تلامس كتفه كتفها... ويهمس في أذنها: نعمت مساء! فتفتِّش العينان عن الفم الجائع، وتعيد الهمس بخفر:

نعمتَ مساءً! وتتأبَّط ذراع الشابّ «ذي المكانة الأدبيّة»، لتساعده على أن يستوحي خواطر غزيرة من الجسد المذبوح، العاري، الضائع!

وفي الزاوية لاحت لي صورة فراشي القاحل، المنتحب، والمصباح الملتهب طوال الليل، والسكون المخيف، وذكريات النهار المدفونة عند الشفقَ الأحمر، وفي الوسادة!

ثمّ تفجَّر صوت بهاء على مهل... على مهل... من المقعدين والأوراق، والباب: تربض غرفتي على أحد سطوح بنايات رأس بيروت. آوي إليها بعد منتصف الليل، بعد أن ينام السكّان، وتخفّ حركتهم. تعجبني هذه الحياة الحرّة، فأنا لا أحسّ بأيّ رباط يشدّني إلى أيّ مكان، أو أيّ شخص معيّن!

أيّ مكان، أيّ شخص. الأرض كلّها له. الناس كلّهم: إمّا أعداء، أو أصدقاء، أو خونة، أو أشدّاء، أو... أو. هو ذائب في الكلّ، مضمحلّ فيه... يسعى في أثر حرّيّته.

أمامي منفضة سجائر. مددت أصابعي. لمست حافّتها الملساء: هذه حمراء، هذه نظيفة، هذه على طاولة لمّاعة، صنعها نجّار فنّان وغطّى صفحتها بقطعة زجاج. هذه في المؤسّسة، لي الحقّ في استعمالها، لا في خدشها أو كسرها، أو استملاكها. لم يقذف بهاء مرّة هياكل عرائسه البيضاء المغبّرة في غياهبها.

رنّ جرس التلفون.

لن أسحب أصابعي عن المنفضة. لن أمزّق الرسالة. لن أرفع سمّاعة التلفون السوداء الباردة إلى أذني الهائجة. لن أبدي حركة.

أريد أن أحتفظ بكلّ هذه الأحداث لي. أريد أن أجابهها، أن أفتّش لها عن مجارٍ مناسبة، أدفعها فيها...

رنين التلفون يضايق يدي التي منحتها يومًا حرّيّتها. ها هي تنكمش ضيقًا. حرّكت أصابعها. أبعدتها قليلاً عن حافّة المنفضة. انقضّتْ على السمّاعة. ضربتها بعنف. رفعتها بقسوة فتعقّد الشريط الأسود، ثم فكّكته اليد الأخرى... أرخيت رأسي على الحفرة في السمّاعة، ومن الثقوب الصغيرة فيها، انبعث صوت الرئيس ضجرًا يسألني عن الرّسالة.

مزّقت سمعه بضحكتي الحادّة، فصمت.

هل سالت في أذنه، أو فمه، دمعة من هذه القطرات التي تفيض في عينيّ وعلى وجنتيّ؟

أنا مشدودة إلى المنفضة، وإلى الرسالة، وإلى الساعة، وإلى الرئيس، وإلى أمّي، وإلى أبي، وإلى بهاء. لا أستطيع حراكًا. وأنا لا أستطيع أن أعيش في اللامكان، في اللازمان، في اللامعيّن.

«أين الرسالة؟».

سأقطع الحبل الذي يربطني بالرسالة...

«شكوى؟».

شـ... كـ... و... ى...

صبّ حروفها بإعياء في رأسي، وفي كلّ حرف، كانت تغلي برك خوف، تقرقر، وتتراطم.

وتسرّب الخوف إليّ، عبر الشريط الأسود، فاشتدّت غزارة الينبوعين في عينيّ...

«تفضّلي إلى مكتبي!».

جفّ السائل المالح على المآقي. تدلّت السمّاعة في الفضاء. تمدّد وجودي في الغرفة حتى ملأها. وتمدّد. وفاض. وتسرّب إلى الخارج من الشبّاك وفتحة الباب... خطوت فإذا أنا أحتاج إلى مساحة أرحب تستوعب كبر خطواتي. وقفت أمام الرئيس. ضاقت غرفته الشاسعة بوجودي الذي يستمرّ نموّه. أنا وسط الغرفة، لكنّني أحسّ بأنّني ألتصق بالرئيس، وأرى فقاقيع الخوف على سطح البرك في شفتيه، وعلى جبهته.

«ومن ماذا يشكو هذا المجنون؟».

جاءني سؤاله المهدّد، باهت النبرة، يخترق وجودي الذي طمره، فلم أعد أراه!

«من ماذا يشكو!».

لم ألمح التساؤل الجزع، يجرف هدوءاً مسخاً، تكدّس على الفم... إنّما أتحسّس صوت الرئيس، وأتحسّس حركاته، وأتحسّس انفعالات وجهه!

وجودي يزداد كثافة، والغرفة محكمة الإغلاق.

ستتحوّل الكثافة بعد لحظات إلى مادّة، والمادّة إلى ثقل. وسيفتّت الثقلُ الرئيسَ ذرّات صغيرة... ثمّ يذيب وجودي الذرّات، ليمتصّها!

«ماذا ينقصه، آلة لتكييف الهواء؟».

آلة!

وشقّت كلمة «آلة» حفرة في مكعّب وجودي الذي اتّخذ شكل الغرفة.

آلة...

ومنها، رأيت عيني الرئيس مزرابي نقمة سوداء، كريهة، تتهيّأ للانتقام. وعلى فمه تجمّع حطام بناء المؤسّسة: جلد مقعد: حجر مدهون بالأخضر. باب الصندوق الصغير. بلاطة رماديّة من درجات السلّم. حرف الياء من آلة الطباعة.

آلة...

والترام آلة! والترام ذبح في صباح أحد الأيام شاباً: قصّ رقبته من الوريد إلى الوريد... تعالى الصراخ. اشتدّت حرارة الشمس. تجمّع الناس. قهقه صاحب الدكّان المجاور للجثّة السابحة بالدم:

قضاء وقدر!

كُتب على جبينه أن يموت في هذه اللّحظة، وأن يدهسه ترام!

آلة...

آلة لتكييف الهواء، لامتصاص العرق عن وجوه، وسواعد، وصدور آلات بشريّة تتحرّك طيلة النهار، في هذه المؤسسة.

امتداد ذراع. قطرة عرق. دورة من اللولب المعدنيّ. تطاير الأجنحة الفضّيّة. تحرّك الهواء البطيء في الغرفة العابقة بروائح السجاير

المحروقة: جفاف القطرة، احتباسها بقعة صفراء تحت الإبط. ثمّ امتداد ذراع... ثمّ دورات من اللولب...

آلة تقطِّر العرق وآلة تجفِّفه!

«من ماذا؟».

سدّ تكرار السؤال الحفرة. وفتح في نفسي حفراً أعمق أغواراً، وأحلك ظلمة، فإذا أنا: آلة تخدم مصالح الدول المناهضة للشيوعيّة.

«من؟».

والرئيس آلة: بوق كبير منصوب على رأس بناية ضخمة، تفنّنت الدعاية في اختيار موضعه، وأحاطته بالألوان والأزهار والأشخاص.

«من...؟».

سؤال حادّ، مهدِّد، سينتقم!

«من...؟».

لها ثمن: جنيهات، ودولارات، وقضيب زنبق في الشتاء!

«من...؟».

تأكل منها نساء، وأطفال، وعشيقات، وتجّار، وفنّانون... وأنا!

«أين الرسالة؟».

الرسالة...

مددت أصابع يدي، فسمعت صوت تمدُّدها: طق. طق. طق. طق... مددت ذراعي كلّها، فانطلق أزيز حادّ بدَّد الثقل ثمّ

الكثافة، فإذا أنا أرى الرئيس كتلة خوف صفراء تتلوّى ألمًا في اقترابها منّي!

همهمت، وكأنّ صوتي دقّات طبل، في نشيد حماسي ثائر. انتفضت. وغلى الدم في قنواته المطّاطة ضاربا رأسي، ووجنتي.

«الرسالة لي. لي أنا!».

واسترحت على المقعد فخورة بهذه الملكيّة. لا، المقعد بارد. المقعد أداة. المقعد جنيهات. المقعد دول أطلقت على غشاوة أساليبها الاستعماريّة صفة: ديموقراطيّة!

هببت عن المقعد السامّ، والرئيس معلّق بالورقة البيضاء، المنزوية رعبًا في يدي اليسرى:

«ملك لك؟ لك، أنت؟ رسالة عاطفيّة... أحد الموظّفين؟ أوه... أوه...».

ورمى جسده على مقعده الكبير، وصفّق مقهقهًا، مستبشرًا، فاختفت إلى حين كتلة الخوف الصفراء.

واتّخذ من الرسالة العاطفيّة ركيزة متينة، اشتدّ عندها وتفوّق ماهرًا في تمالك غضبه، وارتباكه. الرسالة ذاتها، التي كانت للحظات هوّة داكنة، خذلت قواه وعرضت أمام عينيه أهوال فنائه... فداعبني مشجّعًا:

«أوه... سترحّبين به. ستتعاونان معًا هنا، في عملكما وهناك في بيتكما الزاهر ستمنحان المؤسّسة سمعة طيّبة...».

ليكفّ عن الكلام القذر! ليخفِ هذه الابتسامة المنتصرة ليخرس هذا الطنين في جسدي كلّه! أنا أتزوّج الزميل؟

معنى ذلك: آلة ستحتكّ بآلة، فتتوالد من احتكاكهما آلات صغيرة، لها خشخشة الفئران في صندوق كتب قديمة في زاوية مكتبة عتيقة!

«هل سترفضين؟».

هذا الرئيس الوقح. ما شأنه بي، رفعت رأسي وأمرته:

«ليس لك الحقّ في أن تتدخّل بأموري الخاصّة...»

وقاطعني، وهو يدفع إلى يدي سلسلة مفاتيحه:

«أنت خجلة!»..

وزرّر سترته، يزفّ إليّ بشرى:

«ستقومين منذ الآن بمهمة السكرتيرة...».

أنا سكرتيرة: آلة سرّيّة؟

تساءلت فزعًا، واستغرابًا، وهو يتابع شارحًا:

«باشري بترتيب هذا المكتب الفوضوي. سأعود في الخامسة مساء».

واختفى.

نقلت قدميّ. اعتراني زهو سخيف. ضحكت للأوراق النائمة على الزجاج الثمين. درت في جوانب المكان الفسيح. فتّشت في

الزهرية عن عرق الزنبق، فإذا قعرها جافّ. تسارعت دقّات الدمّ على صدغيّ. نقرت جلد المقعد، قبل أن أجلس عليه. غطّست رأس الريشة الذهبيّة بالحبر الأخضر وبالذهب، وبيناعة الأخضر صمّمت على أن أستقيل!

هذا أنسب وقت، وأحرجه، وأقساه، يمنح استقالتي خطورتها وقيمتها...

سأستقيل، بينما الرئيس أمام مائدته في غرفة الطعام يزدرد غداءه بقابليّة عجيبة مطّطت جوانب عيني زوجته.. سيمكث ـ خلافاً لعادته ـ زمناً على كرسيه، ينزع بالعود المصقول خيوط اللحم العالقة بين أسنانه. وسيروي أحاديث مزعجة لأطفاله المستغربين... ثمّ يترك المائدة، ويتمدّد على السرير، والزوجة تعيد صبغ الشفتين أمام المرآة، لتتقدّم منه أنثى نهمة، تستفسر بدلال عن السرّ:

«ألست على عجل يا حبيبي؟ هل ستتفرّغ لي، فنقوم بنزهة إلى الجبل؟ هل ستحلّ الآن شريطة شعري الأشقر؟».

سيبعدها بإشارة ضجرة من يده. وسيفهمها أنّه انتشلها، هي والأطفال، من كارثة أعتقد أنّها حُبكت بعقول الموظّفين الحمقى. وسيزفّ إليها خبر تعيين سكرتيرة له تسيّر في غيابه أعمال الدعاية، من على مقعد ستشاركه الجلوس عليه دولتان وثلاث وأربع وخمس... وسيطلق قهقهة عالية، حادّة تغضب ذات الشريطة الحمراء، وسيتيه نظره في سقف الغرفة، متمتماً:

ستسير الأعمال بمرونة أكثر، وانتصار أكيد، وهي بيد امرأة.

«امرأة!».

وتعضّ الغيرة الحمقاء الزوجة، وترمي صدرها الذاوي على صدره، وتولول معاتبة ثم دامعة. ثم مهدّدة:

ستمضي وقتك طوال النهار بجوار تلك الشّابّة. آه، لو كانت هي ابنتي لقتلتها! لمنعتها بأيَّة وسيلة من العمل وحيدة مع رجل! إنَّها...

رويدك، رويدك، ذات الخدّ الرخاميّ، فأنا سأستقيل... سأستقيل...

وسطّرت بالأخضر:

«سعادة الرئيس الأفخم!»

يعشق الرؤساء الألقاب، بقدر ما أخجل من استعمالها. يخيَّل لي حين أطلقها على أحدهم أنَّني أشتمه، أو أحقّره... لن أكذب على نفسي. شطبت الجملة، وكتبت:

«أيُّها المقعد الجلديّ!».

لكن هل يفهم ما معنى كونه مقعداً جلديًّا؟ لا.

مزَّقت الورقة، وسحبت من الدرج ورقة بيضاء غيرها، وخططت: «حضرة الرئيس» وبدون محترم. سيغضبه نقصان صفة الاحترام. «أريدك أن تعلم أنَّني أقوم ببطولة رائعة، وأنا أتقدَّم إليك باستقالتي من عملي في المؤسّسة، مع أنَّني أحتاج إلى المال».

فكَّرت: كيف أترك العمل. من أين أحصل على المال؟ أأعود إلى قيد والدي؟

وصمَّمت: سأفتِّش عن وظيفة غيرها.

وعدت إلى إكمال الرسالة:

«... وإلى مهمّة تبرز إمكانيّاتي...».

أغمضت عينيّ، أضمّ فيهما ابتسامة خفّاقة: سأعيش بعد الآن لبهاء، له وحده!

ثمَّ تابعت:

«لست آلة. من قال لك إنَّني...».

استدركت. لهجتي جافّة. محوت «من قال لك إنَّني» واختتمت: «آسفة، إذا فشلت فترة التمرين».

وبعد أن حفرت اسمي في أسفل الورقة نزلت إلى الطابق الأرضي، حيث يتدلَّى الصندوق الأزرق الصغير.

فتحته بهدوء، عكّرتْه بعد حين رجفة خفيفة، بعد أن تخيّلت الشبه العجيب بين باب الصندوق المجهول في مؤسّسة أعمال، باب جهنم الذي فتحته مرّات عديدة ـ بأحلامي ـ في الصغر.

ولاحت لي في الصندوق، كما كانت تظهر لي في أحلامي، حمم تغلي، ونيران تتشامخ، وجذوع أشجار تذوب جمراً، وشواء يظلّ طازجاً، ما دام الباب مفتوحاً، يعبِّئ الأنوف روائح خانقة. ثمَّ الأجساد البشريَّة: جسد معلَّق برقبته، لأنَّه اغتال على الأرض جاره. جسد مدَّدت الحرارة لسانه، واستغلّت مسخه وعاء لإضرام النار فيه وتوزيعها

في كلّ مكان، لأنَّ صاحبه كان كذّابًا. أجساد... أجساد... أجساد بشر أغراهم الشيطان، فساروا إلى مصيرهم الموعود: لا يفنون في جهنّم، إنّما يُبعثون من جديد كلّما احمرّت أجسادهم، وتتفسّخ وتنزّ دمًا، ثمَّ تتفحّم وتتفتّت رمادًا!

باب الصندوق يلوح لي أيضًا كبيرًا كباب جهنم. ستختطف حرارته سلخات رؤوس أصابعي. لا، لن أمدّ يدي إلى جوفه لأترك الظرف الأزرق الذي يحتضن استقالتي، ورسالة الزميل العاشق: ستلسع يدي حيّة رقطاء، تكمن لي في مجاهله المقفرة. وستشتعل النيران في جوانب بطولتي فتميتها طفلة تزخر بالحياة. لا... ستلتهم النيران الخشب. ثم تركض على السلّم الحجريّ، فارشة على درجاته وشاحًا أسود. ستخلع أبواب المكاتب، وستهزأ بالحاجب، ومفتاح مكتب الرئيس الأصفر. وبومضة عين ستغبّ المقعد الخشبيّ الخطير، وستخيِّر الرئيس بين الهرب سليمًا، أو العراك الذي سيموت فيه، أو يخرج منه مشوّهًا. وسيطلع الفجر، متجاهلاً ما خرَّبه الليل على الأرض... سيدوس الفجر أنقاض المؤسّسة، تاركًا مهمّة التصرُّف بها إلى الليل.

ابتعدت عن الصندوق.

فاصطدم نظري بالبوّاب، كتلة بنّيّة تتّكئ على حافّة المدخل، شاردة، وقد ترك الشرود ابتسامة اطمئنان على جبينه: ستحترق الابتسامة إذا احترقت المؤسّسة. وستصعق ندى، وهي تراقب ألسنة اللهب تصغّر حجم لقمتها، ثمَّ تضيّعها كلّها:

دسست الظرف الأزرق في حقيبة يدي.

وغطست في ضجّة الشارع الكبير، فإذا أنا خفيفة... خفيفة، لدرجة شعرت عندها بأنّني سأطير، سأحلّق. أنا كائن كان له جناحان مقيَّدان، واليوم تحرَّر من قيدهما. البنايات متشامخة بكبرياء، يفرفر في مسالكها عمّال، وموظَفون، ورؤساء، وآلات... واندفعت السيارات، كحشرات، تعرقل سرعة أفكاري. وسيطرت أرجل المارّة على انتباهي: تتقدّم، ثمَّ تتراجع، تتقدَّم، ثمَّ تتراجع... أيديهم تعلو، ثمَّ تهبط، وتستقرّ في الهواء، ثمَّ تهبط... تصافح، ثمَّ تفرك الأجفان، ثمَّ تنظِّف الأنوف، ثمَّ تحكّ الرأس، ثمَّ تهبط... ثمَّ تشير إلى واجهات المخازن، ثمَّ تهبط، بسرعة نادمة.

هل أطير؟

تمنحني دفقة الوعي المنير في هذا الشارع تفوُّقًا: أنا أرى كلّ هؤلاء الناس. أتحسَّس أصوات الأدوات. واشتدّ نور وعيي حتى اختفت أمامي معالم الكون: لا سماء، لا أرض، لا أوّل، لا آخر، الحياة وقت، وقت يدبّ إلى المجهول... لا، لا يدبّ إلى المجهول، إنَّما يسير إلى حيث أريد، أريد. أنا الوقت، أنا خصائصه لأنّني أنا وحدي التي أضفي عليه صفة التمهّل، أو التباطؤ، أو الرقّة، أو المأساة، أو الرحمة...

لم أسمع، كالعادة، وقع خطواتي على درجات بيتنا. كما أنّني شققت الجدار؟

بيتنا...

لكلّ منّا بيت: مأوى نستتر تحت سقفه، ككلّ الحيوانات.

والبيت هذا، لأمّنا، لأبينا، لزوجنا، لعشيقنا...

لماذا عدت اليوم إلى البيت؟ لماذا يجب أن أعود كلّ مرّة إلى البيت؟ لماذا يجب أن أنتظر رجلاً يتزوّجني، ليفتح لي بيتاً؟ لماذا يجب أن أسكن كلّ مرّة مع شخص آخر يحمي جسدي، وهو الذي يأكله. أو يحمي مالي، وهو الذي يسرقه؟

لماذا يجب أن آوي في بيت، لا على الرصيف، ولا في حقل، ولا في قصر، ولا في مستشفى؟

سأغيّر طريق بيتنا. سأغيّر مكان مأواي. سأتسلّل في الظلام إلى أعلى طابق، في أعلى بناية من بنايات رأس بيروت لأنحشر في الفراش وأغفو على صدر بهاء. لا، لن يزجرني، لن يؤلمني، لن يستغلّ اختياري الواعي. فهو يفهم وعيي. يفهم حرّيّتي. يفهم أنّني في تلك الليلة على الأخصّ، أطمح فقط إلى تغيير مكان رقادي، واستبدال وجوه محيطة بي، أمقتها، بوجه يحرّك في نفسي ملايين العواطف والإثباتات.

ـ ١٢ ـ

في المسافة القصيرة بين البيت والمؤسَّسة، تجمّع وعي يكمن في حقيبة يدي حيث ينتظر الظرف الأزرق مصيره...

حتى في مكتبي الصغير الأنيق، لم يحاول وعيي تحليل نتائج استقالتي: بُعدي عن الأشخاص الذين أطلّوا زمنًا على حياتي وفقداني المبلغ الدسم الذي ساعدني على كسب أطراف حرّيّتي.

يقام فرح، خلف الباب الذي يفصل مكتبي عن مكتب الرئيس: ضحكات رجل مثيرة، جارحة. ونهنهات امرأة تستجيب للإثارة، وتتحمَّل جراحها بتفنُّن محترف...

يسبح الرئيس والمرأة في بحر أمل جديد. والساعة مثابرة في إزاحة الحاضر، ورميه في نسيان الماضي.

وأنا أعدّ الدقائق... أنا الوقت: أنا أملك بهجة الرئيس، وأنا قادرة على تصغير أمَدها، أو إطالته.

الساعة السادسة إلاّ عشر دقائق. وفي صعيق الدقات الستّ سأقتحم الفرح الذي يقام خلف الباب، لأنشب معركة.

ضحكتُ معتزّة، ثمَّ جفَّت الضحكة حين تنبَّهت إلى أنَّني لن أستطيع اليوم لقاء بهاء في المقهى. بهاء محروم، ينتظرني مع عذرائه البيضاء على كرسيّ. وزملاؤه من طلاّب الجامعة لا يكترثون لثيابي، ولا لانفراده. الحقيقة أنَّني وبهاء لا نثير أيّ انتباه أو فضول. إذ، لا يمكن أي رائد دائم «للعمّ سام» أن يحدِّد مدى أو نوع العلاقة التي تربط هذه الفتاة وقدح قهوتها بهذا الشابّ الأسمر وسيجارته، وجريدة حزبه.

نبَّهتني طرقات عديدة على الباب، بينما الساعة تقترب من السادسة إلاّ خمس دقائق. وانفرج شدق الباب عن عملاق أبيض، تتدلَّى بين ذقنه وشفتيه ابتسامة شرهة، فتذكَّرت أنَّني رأيت هذا الرجل، لكن أين؟

وساعدني على معرفته، قائلاً:

«أنا مدير المؤسَّسة، أرجوك أن تستأذني لي بالمثول أمام حضرة الأستاذ».

مدير؟ ويستأذن قبل الدخول إلى مكتب رئيسه؟

هل أرسله هذا «المقعد المهزوز»، ليعلِّمني كيف أمارس السكرتيريّة؟

فتّشت في قرص التلفون عن الرقم الثامن، فلم أجده. الغضب يشتّتني، وأنا أودّ الاحتفاظ ببرودي إلى ما بعد الساعة السادسة. واقترب منّي «المدير» ومدّ يده بعلبة تطلّ منها سيجارة بيضاء. رفعت عينيّ إلى وجهه: أنا أمقت هذا الرجل. أنا أشمئزّ منه. فرفضت السيجارة، وعددت الأرقام بإصبعي: الأول. الثاني. الثالث. الرابع. الخامس. السادس. السابع. الثامن... الثامن، ها هو: الرقم الثامن هو نمرة تلفون الرئيس داخل المؤسّسة. غرزت أصبعي، أبدأ ببرمه، فجمّدته ملاحظة المدير:

«خاتمك الفضّيّ بديع، لكنّ ضخامته لا تنسجم مع يدك النحيلة الناعمة».

لبثت يدي ميتة لا تتحرّك، وأصبعها تنتظر في حفرة الرقم الثامن. ملاحظته الوقحة تعضّ يدي، وتتحسّس راحتها... عليّ أن أبيّن له عدم اكتراثي به، وبأقواله، فأجبت:

«أتعمّد دائمًا جمع الأضداد لأظهر قيمة كلّ منها بجانب الآخر».

فاحمرّت أذناه، وصارحني:

«كل رجل، حين يعيش في عالم يدك، يندفع مرغمًا ليحرّرها من هذا القيد المعدنيّ الثقيل الذي يؤلمها. كلّ رجل يودّ أن يدمي يدك، ويصلّي عليها في آن واحد. أنصحك بخلع هذا الخاتم، أثناء دوامك، في المؤسّسة». وتوارى...

ماتت يدي على قرص المذياع الأسود، وتطايرت من الخاتم شعاعات بيضاء... استعنت بأختها اليد اليسرى لحملها، وإخفائها تحت ورقة بيضاء أمامي. كلّ الناس، وكأنَّهم يدركون صراحتي، وجرأتي، وتحرّر معتقداتي، يواجهونني في أوّل لقائي بهم بصراحة وجرأة وتحرّر. كأنّي بهم يحاولون الوصول إليّ أو التساوي بي، أو التأثير عليّ.

وبعثتُ يدي إلى الحياة. واضمحلّ تمثال المدير في رأسي... وفتحت الباب الذي يفصل مكتبي عن الرئيس، وقفزت إلى ساحة الفرح، أُنشب فيها معركة. فتلقّاني الرئيس بضحكة تلحّ أكثر... وأكثر... في إثارتها. حتى خطر لي أن أنقضّ على وجهه، وأطبق على فمه أمزّق شفتيه بأسناني، وأزرع ظفراً في كلّ ناحية من وجهه، ثم أرتاح على الأرض بجانبه، أجفّف بمنديلي الأبيض الهفهاف لطخات الدم على صدره، ويديّ، وأسناني.

لكنَّ زوجته هنا: قبالته، ينزلق على قدّها الدقيق ثوب أزرق للسهرة، عاري الكتفين، وقد غرست في القطعة الصغيرة بين نهديها، عرق زنبق أبيض فوّاح.

كلّ ما في هذه المرأة الشقراء يستعدّ لليلة تُجمع فيها الغرائز، فتلتهم كلّ لذّة إلى أن يطلع الصباح. وفي هنيهة صمتها، كانت تقارن بين شعرها: شلاّلات أنغام وأضواء، وبين شعري القصير، المظلم: ثورات تمرُّد ومقاومة. بين جسدها العبقريّ، المجرَّب، الناجح، وبين جسدي الأبله المنزوي الفاشل. بين طراوة قسمات وجهها وتيه أنفها في عطر

ثمين، وبين قساوة الحيرة على وجهي، وجدب الرائحة الثمينة خلف أذنيّ... وإذا بها تخرج من المقارنة باستنتاج هيّن، هو أنّني طفلة. لست أكثر من طفلة شرسة، إذا جاز إطلاق صفة على طفولتي.

في تلوّي رقبتها على ظهر المقعد، انزلق الثوب على نهديها، وتمسّك فوق الحلمتين يخاف السقوط... ونما عرق الزنبق بضعة سنتمترات، فلم تسارع هي لنجدة الثوب، ومنع الزهرة من النموّ. ولم يتنبّه هو إلى مناداة النهدين والثوب والزنبق.

هي تعرف أنّ جسدها يعيش... وهو يطمئنّ إلى أنّه قادر على دخول حياة هذا الجسد، في كلّ آن... أمّا الجسد، فهو يفرض وجوده على كلّ إنسان، مستقلّ عن إرادة مالكته، وممتلكه.

بحركة لاواعية، شبكت ذراعي حول نهديّ، حين شعرت بسريان الخفقة فيهما. لا، لن أنزل جسدي إلى مرحلة الابتذال هذه. لن أعرّيه أمام أعين كلّ الناس. سأرفعه عن عالم الطبقة الغنيّة، المنحطّة في مجتمعنا، وفي كلّ مجتمع يتاجر بالأجساد. وسأحلّق به أيضاً عن أوساخ جيف المتعصّبين العميان من الطبقات الفقيرة، التي لا تمتلك في الحياة أكثر من أجسادها وكتاباً إلهيًّا.

وانساب صوت المرأة الشقراء، عذب اللهجة، ساخن الكلمات:

«لننجز مطاليب الآنسة قبل ذهابنا».

فصبّ الرئيس على وجهي نظرة متسائلة سئمت الاستقرار وقال:

«نعم... نعم...».

وقاطعته:

«طلب المدير مقابلتك...».

فقطب جبينه، واستمهلني بيده:

«لينتظر إلى الغد... أعرف ماذا يريد». وخرس منقّلاً نظره بين وجهي والظرف الأزرق الذي مددته أمامه.

«ما هذا؟».

فحدّقتُ بالمرأة، وأجبت:

«افتحه».

«سأفتحه، لكن ما هذا؟».

«افتحه».

بدأت المعركة بخوفه، ثمَّ اهتزّت أرجل المقعد الذي يغوص فيه وانعكس الخوف على وجه الزوجة، فامتعض واصفرّ. ثم أضمر الخوف النهدين، ثمَّ هدَّد الزهرة بالذبول. فأولعتُ النار في طرف الظرف، وأنا أردِّد:

«هذه استقالتي... استقالتي...».

وتحكَّمت بجمع كلّ قواي حين أكسبني ذعر الرئيس أهمّيّة، كأنّني حاكم بلاد صالح، هيَّأ لوطنه استقلالاً وازدهاراً سياسيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا، وهو الآن يتركها لعبث المستغلّين، الأعداء المهدّمين.

كأنَّه ينازع الموت في كلّ كلمة، فسألني:

« وما هو الدافع؟ »

أيفهم موقفي إذا شرحت له الدوافع العديدة لاستقالتي؟ ثمَّ هذه المرأة، هل تدرك ما معنى مكافحة الشيوعيَّة في الشرق الأوسط، وما معنى الاعتداءات المستمرَّة على حدودنا العربيَّة، يقترفها مجانين هم ثمرة جنون الحكم النازيّ؟ وما هي غاية الدول غير الشيوعيَّة من سكوتها، وعقدها الاتفاقات العديدة مع نفايا البشريَّة؟ ثمَّ تمنّع كلٌّ من أميركا وبريطانيا وفرنسا عن تقديم أيَّة مساعدة لنا... بينما هي تحارب من عندنا، من هذه المؤسَّسة وغيرها، كلّ دولة كبرى أو صغرى تتلطَّف، باسم الصداقة والسلام، أن تمسك بيدنا في نضالنا لإبادة الجرثومة الخطرة؟

فكّرت: هذا أسلوب خطابي يثير السخرية، فلم أتفوَّه. وتبسّمت، فذُعر الرئيس!

« ها هو! »

أجبته بإشارة من يدي إلى الظرف... فلم يجرؤ على فتحه، كأنَّ في الظرف ـ كما في الصندوق الأزرق الصغير ـ حيّة رقطاء جائعة، ستبتلع يده.

ثمَّ حدث ذلك بسرعة عجيبة:

هزّني الرئيس بعنف. وشدَّني بكتفيّ وراءه. وسحبني. وفتح الباب الرئيسيّ الكبير. ودفعني في ظلام السلّم، وشتمني بفجور. واستدار يهرب. وأقفل الباب!

وبعد أن تنشّقت رطوبة هواء الليل في بيروت، استفقت من وهلتي على ألم مبرح في كتفيّ، واختناق مميت في صدري.

فبكيت... بكيت وأنا مفتّحة العينين، أغمر الأضواء الهاربة من مصابيح السيّارات.

ولم أغمض عينيّ إلّا في الظلمة على السرير، وفي بيتنا.

القسم الثالث

٢ - ١

- ١ -

لم أتحمَّل رؤية والدي معتزًّا، وهو يدسّ بيدي مبلغ مئتي ليرة: ثمن فستان أنيق من محلّ «خوري» مكافأة لي على ترك العمل، بينما وقفت أمّي خلفه تغمز لي بعينيها أن: ستبهرين الأنظار، ستزدادين روعة في هذا الثوب. ثم أمسكت يدي تأمرني: قبِّلي والدك.

طبعت قبلة امتعاض على وجنة والدي وغادرت المنزل. فصاحب الثوب الأنيق ينتظرني. والليرات تتململ ضيقًا في حقيبة يدي. لقد بعثرت كمِّيَّة وافرة منها بعد تركي العمل.

أمّا الثوب الأنيق، فقد ابتكره بيت من أشهر بيوتات الأزياء في باريس. وما رأته أختي على جسد عارضة الأزياء حتى فكَّرت هي وأمّي أنّ هذا الثوب لم يصنع إلاّ ليبرز مفاتني:

إنَّه ثوب أبيض...

انتصبت أمام واجهة المحلّ أحدِّق بهذا الثوب الأبيض. كيف عرفت أمِّي أنَّني أفضِّل الثياب البيضاء على غيرها؟ أتعرف أيضًا أنَّني سألبسها يوم تموت هي، أو أبي، أو أحد أقربائي، وأنَّني لن أقرِّب اللون الأسود من جسدي؟

تقدَّمت من مدخل المحلّ.

صاحب الثوب الأنيق يتمنَّى لو أسرع وأعدّ له المئتي ليرة، وأحمل الرزمة وأغادر المكان فوراً. أمّا أنا، فسأرمي الأوراق الماليَّة في يده، كما نرمي كلّنا أوراقًا وسخة في سلَّة المهملات. هذه الأوراق ليست لي. لا تربطني بها أيَّة صلة، لهذا لا يهمّني كيف تختفي. كما أنَّ الثوب ليس لي، إنَّه للأعين التي ستمتصّ لذّة من هنا وسعادة من هناك.

وتقدَّمت من واجهة المحلّ، وأدنيت أنفي وفمي من زجاجها فعلقت عليهما ذرّات غبار ناعمة. تراجعت، وأدخلت ظفر سبّابتي بين السنين الأماميّتين. أنظار من سأبهر في تمايل الأضواء على جسدي؟ ثم أنا، أنا لا أكترث لهذه المخلوقات الغريبة، التي تتزحلق على غشاء حياتي الخارجيَّة.

لماذا لا أشتري ثوبًا له، لبهاء فقط، فأخفِّف من أوجاع حرمانه؟

ستغضب أمِّي أن استبدلت بهذا الثوب الأبيض للسهرة ثوبًا أحمر للنهار. ستقول إنَّني، دومًا، أتحدَّاها. لكن، ما دامت هذه

الليرات ليست لي وما دام الثوب ليس لي، فلماذا لا أمتلك ثوبا من باريس؟

باريس... باريس...

وفجأة، تسلّط على انتباهي شعور وطني خطير، هيَّجه حوار بين مارّين في المشروع الأميركي، وإضراب أصحاب الأفران لرخص الطحين، وموسم القمح القادم. فلم تعد الليرات عندي أوراقًا وسخة. شعرت كأنَّ هذه الأوراق تحرَّكت في جوف الحقيبة: انفجرت ليرة. الليرات رصاص... انفجرت ليرة ثانية! ثقلت الحقيبة، واشتدَّت قساوة الحرارة في جلدها! بعد قليل ستنفجر مئتا ليرة. الليرات رصاص... كيف سأطيِّرها إلى شمال أفريقيا؟

واشتدّ دوي هائل حولي... بعد قليل ستنفجر الليرات كلّها!

استدرت لأهرب، فسمعت صوتًا مبالغًا في رقّته يردِّد:

«الثوب الأبيض... أليس هو رائع؟ لكن، لكنَّ صاحب المحلّ قال إنَّه بيع في حفلة العرض». وقالت بالفرنسيَّة: «أليس هذا مؤسفًا؟».

التفتُّ، فإذا خلفي حسناء تخاطب شابًّا يلفّ كتفيها بذراعه.

تفحَّصت الشارع الذي أنا فيه، فإذا أنا في بداية الحيّ اليهوديّ: انفجرت ليرة ثالثة! وانطلقت ألسنة الخوف لَماعة من الثوب الأبيض في الواجهة، من شبابيك البنايات... فركضت... ولا ريب أنَّ نظرات

هذين المشرَّدين، ونظرات كل سكّان «وادي أبو جميل» كانت تتبعني مستغربة!

وما بلغت المنعطف، حيث حاووز المياه، حتى تمهّلت في ركضي، ثم وقفت، ثم فتحت حقيبة يدي أتفقَّد الليرات. ثم رجعت إلى واجهة المحلّ أتسمَّر قبالتها...

في معمعة الاستنتاجات الغريبة، التي بدأ يحبكها رأسي المتعب، أطلّ رجل وسيم وجهه، وابتسم لي مرحِّبًا.

عرفت أنَّه صاحب المحلّ: من أين جاءتني صورته الطريفة هذه: باخرة تقلّ في جوفها مئتي رصاصة إلى شمال أفريقيا!

«تفضَّلي...».

لم أعر ترحيبه المتقن اهتمامًا، إنَّما تقدَّمت من زجاج الواجهة. هل يراني حقيقة أداة تفجير؟ هل يعتقد مثلي بأنَّ الليرات رصاص، هل يحس هو بأنَّه شاحنة أسلحة؟

«تفضَّلي...»

وتوارى واثقًا من أنَّني سأتبعه إلى حيث يريد، وإنَّني سأدفع أيّ ثمن يفرضه لأحصل على ثوب من باريس، ظنًّا منه أنَّه يرحِّب: بأختي، عميلة دائمة نشيطة للمحلّ...

خبَّأت في كفِّي ضحكة ساخرة: هل يكفي هذا التشابه في الملامح لأكون مبتذلة كأختي؟

وأطلقت ضحكتي من مخبئها، وأنا أنقل خطى معتزة إلى حيث يجاهد بهاء بمرارة التظاهر بسيطرته على قلقه.

اندفعت إليه فرحة، أصرخ:

«قمت منذ دقائق ببطولة».

فانتشل رأسه من شبكة السطور السوداء، المحبوكة على جريدة الحزب. وانفرجت شفتاه عن ظلّ ابتسامة، فتبدّد ظلّ الخوف المستملك فيهما، وسألني:

«هل كنت تحلمين، أنت، كما كنت أحلم، أنا؟».

ففتحت فمي أودّ شرح دهشتي... لكنّه حرّك يده في الفضاء يستوقفني، شارحًا:

«في تأخُّرك رأيت أشباحًا يتسلّلون في الظلام... أقدامهم حافية. جلابيبهم مرقَّعة. رؤوسهم مكشوفة. أكواخ تزحف صوب أكواخ. أطفال أدمى فراش القشّ طراوة أجسامهم. نساء ننزعن العباءات في خدورهنّ، فإذا أجسادهن زرقاء من عنف قيد يكبِّلها!».

وضحك بخبث:

«وقفت أطول مدّة ممكنة، عند النساء!».

فشاركته ضحكته، وهو يكمّل:

«وتشقّق التراب العطش، يفتح في الأرض حفرًا عميقة، واسعة، معتمة... وعصفت في الحفر رياح ناقمة، حطَمت أبواب المدارس في

بعض البلدان، فسمع التلاميذ في إغفاءاتهم المتوتّرة قرقعات الألواح، والمقاعد، ومنبر الأستاذ، وهي تكسّر بعضها بعضاً... فجلسوا في فراشهم يبصقون المأكولات السامَّة التي أفرغها الاستعمار في رؤوسهم الجائعة.

«بصقة: الشعب البريطاني شعب مسالم، يحترم القانون، والحرّيات.

«بصقة: قطرنا العربي مدين للتاج السامي، بوفرة موارده وارتفاع مستوى حياة الفرد.

«بصقة: يمدّنا الفكر الإنكليزيّ بشعلة ثقافيَّة خالدة..

«بصقة: وبصقة... جبال بصقات تكوَّمت، كتلال بيضاء متلألئة تحت نور المصابيح الغازيَّة الشاحبة!»

«حلم مخيف؟ أليس كذلك؟»

سألته، فلم يجب. إنَّه في قلب الحلم. إنَّه أمامي شخصيَّة وهم، في كابوس قاتل. وتابع:

«واستمرَّت الأكواخ في زحفها، ثم انتظمت صفًّا واحداً تحرسها شجيرات النخيل. وتدحرجت كالبراكين المدمِّرة إلى المدينة، تشعل الحماسة فيها ابتهالات نساء خدشت صفحة السماء الفضيَّة. نداء الأطفال يستنجدون عطفًا بالأمَّهات الثائرات على حياة الحريم، فيموت النداء في حناجرهم... نشيد الانعتاق يتدفَّق

كالحمم من عيون الرجال، وآذانهم، وأفواههم والموكب زاحف إلى المدينة.

«في المدينة تحمي المملكة الفتيَّة، المملكة العظمى!

«في المدينة، العاصمة، يأكل الناس ويشبعون!

«في المدينة، ينام الأطفال على أسرّة من ريش فاخر!

«في المدينة، يُشرى الطالب المتفوِّق بمنح، ليخدم أسياده الخونة في المستقبل.

«في المدينة، يُسمح للشابّ أن يصاحب المرأة، وأن يعاشرها، في الخفاء، خلف المسارح، في علب الليل!

«في هذه العاصمة، وفيما الناس في غفلة، وفيما الدكتاتور الخائن يتَّصل لاسلكيًّا بالسفّاح المجنون... انفجر البركان! فسمعت صداه في مياه النهر النشوى في تمايلها للقاء حبيبها عند النهر الآخر... كنت أنا أدور حول النهر، فأطلقت صراخًا بهيجًا وأكملت الدوران... والجموع تزحف صوبي، والنهر العظيم يترنَّم بنشيد حريَّة موعودة...».

سكن!

فعاد إليَّ الوعي!

فتَّشت يداه عن سيجارة وعلبة كبريت. واستمدَّ من السيجارة هدوءًا. وبقي ساكنًا، تشدّ انتباهه شبكة سوداء على جريدة الحزب.

وفي ارتباكي نقّبت عن كلمة مناسبة، أساعده بها على نسيان هذا الكابوس المرعب، فردَّدت:

«من المفرح أنَّك رأيت هذا الكابوس في نومك».

وكأنَّني غرست في عينيه قضيبًا، فارتعد وأبعد رأسه، وأفنى سيجارته الشابَّة على طرف المنفضة، وصرصر أسنانه يجيب:

«رأيت هذا الحلم الآن... الآن... الآن... وأنا أطالع أخبار اليوم، وروّاد المقهى يضحكون، ويطرقون أقدامهم بالأرض، ويرقصون أقداحهم في صحونها، وأنت تمضين وقتك مع رجل آخر!».

«رجل آخر؟ أي رجل؟».

فاصفرَّ وجهه موضحًا:

«أليس لك أصدقاء، تتنزَّهين مع أحدهم على مقعد بين أشجار «الكورنيش» الوارفة؟ أو تشهدين بجوار غيره رواية على الشاشة؟ أو تثرثرين مع ثالث. ورابع. وخامس...».

إنَّه محروم! فهيَّأت تحدِّيًا أشدّ قسوة، حين سألته:

«أوليس عملي في مصاحبة الرِّجال، أفضل من عملك في أحلام اليقظة؟».

الجبان!

استمدَّ من سيجارة عذراء، أشعل طرف ثوبها، جوابًا:

«أنت تعيشين في أسطورة وتلزمك دروس عديدة في وظيفة الفرد، وقيمة المجموع...».

وقاطعته مستهترة:

«لا حاجة بي إلى الانخراط في حزبك الغرير، وأنا أعرف واحداً ضمنه: أعرف أنت!».

وأجاب منتقماً:

«هل تعتقدين أنَّ حزبي يلملم العقول الأسطورة ليقوّي من تفشّيه، وتغلغله وخلوده؟»

كنت سفّاحة حين زدت على حرمانه حرماناً من رقَّتي وصمتي ورضوخي ووفرة خيراتي... فابتعدت، بعد أن أحكمت ربط رأسه بالشبكة السوداء!

- ٢ -

حين نزلت إلى الشارع انتابني شعور بالغربة، مع أنَّها ليست هي المرّة الأولى التي أنزل وحيدة إلى الشارع: فالشارع قطعة منٍّي، وفي الشارع وحده أُظهر لأكبر عدد من الناس أنَّني بينهم على الأرض.

نقلت قدمي على رصيف بيتنا، فأرعبني اللون الأسود اللمَّاع الذي بين البنايات الخرساء... نقلت القدم الثانية، ووقفت ملتفتة حولي: إلى أين يصل هذا الطريق؟ من يسكن في تلك البنايات الخرساء؟

لبثت دقائق مسمَّرة. واشتدَّ عصف ألم الغربة في جسدي، وراح يدفعه كيف شاء... كأنَّ هذا الطريق يد وحش، لا يرويه إلاَّ الدم. هذه أقدام تقترب منِّي، تضرب الأرض خلفي كأنَّها تضرب حاجزاً تبغي تهديمه للوصول إليَّ. ثمَّ سرعان ما خفت أكثرها، ولم أحسّ إلاَّ بعينيْ

رجل واحد تحفران أوكاراً لهما في رأسي، ورقبتي، وظهري، وساقيّ وقدميّ. فتوقّفت عن السير. ووقف الرجل خلفي لحظة، ثم اندفع في ركضه، وتجاوزني مسرعًا باتّجاه العمود الأحمر، عند منعطف الشارع.

يلمع العمود في النور، فأدهشني ألاّ يستوقف لمعانه الحادّ هذا الرجل، كما استوقفه جسدي. واقتربت من اللّوحة، ومددت رأسي أقرأ:

«ملجأ».

فردّدت: لماذا لا أدخل إلى هذا الملجأ؟

واستدرت، فوراً، باتّجاه القوس الأبيض المرسوم على اللوحة الحمراء. وسرت إلى مدخل البوّابة. وقفزت درجتين من درجات السلّم. وإذا بشرطي يسألني:

«من تطلبين؟».

فانتابني امتعاض مزّق شفتيّ، وبعد همهمة قصيرة نجحت بسؤاله:

«هل هذا ملجأ؟».

فضحك، وأجاب:

«أجل، هو ملجأ، ولكنّه ليس لفتيات الشارع، هو لأيّام الحرب... الحرب المنتظرة!».

«أيّة حرب؟».

حدجته بنظرة ساخرة، لا تخلو من بلاهة وطفولة، وابتعدت أردِّد: ملجأ، حرب، سلاح، ملجأ... وعدت إلى اللوحة الحمراء أتفحَّصها من جديد. ثمَّ تركتها مخترقة شارع كليمنصو.

لماذا لا أفتِّش عن الغريب الذي قال إنَّني لا أصلح لإبداء رأي قيِّم في السياسة، كقيمة رأيي في الأزياء والعطور؟

أمّا بهاء، فسيعلق في أذنه سبب تافه لاستقالتي: رفضت التعاون مع المؤسسة لأنَّها تحارب التغلغل الشيوعي، وأنِّي أحرص على إرضائه وتقديس مبادئه... لهذا لن أخبره عن استقالتي.

أنا أمشي على الرصيف، أزحلق كفِّي على حجر تصوينة الجامعة الخشن، فلفتت حركتي الساذجة انتباه بعض المارّة. هؤلاء الناس لا يعرفون ماذا فعلت منذ أيّام في المؤسّسة، ولا إلى أين أسير، ولا من أحبّ، ولا آرائي فيهم، في اللّه، في كل الأحياء. إنَّهم كهؤلاء الطلاّب، لا يرون إلاّ ما يظهر لأعينهم.

دخلت الجامعة فوجدت الطلاّب، كعادتهم، يتناثرون كومًا، كومًا، في كل شبر من أمكنة الجامعة، وأنا أرهب أن أشقّ طريقًا لي في خضمّ نظراتهم المتجاهلة، المتفحّصة، المعجبة... ولم تعترض اندفاعي إلى الساحة، عند مدخل المكتبة، أيَّة ذكرى من بقايا تردُّدي شهورًا على هذا المكان...

ورأيته.

لا، لم يسترح نظري على قامة الغريب السخيف. إنَّما فكَّ نظري بهاء من سلسلة حلقات حبكها نفر من الطلاب، راحوا يثرثرون، ويتضاحكون، ويهيِّئون مشاريع رحلة، أو سهرة في أحد الأكواخ.

لم يكن يضحك. ولم يكن يثرثر. ولم يكن يهيِّئ المشاريع ولم يكن يعي حتى ما يجري حوله. كان يملأ الفضاء الأبيض بقامته، وكان رأسه يلمس أديم السماء. وكانت الشمس تثبِّت دليل وجودها على كتف غرسة خضراء بجانبه.

هذه هي المرَّة الأولى التي أراه بعيداً عن المقهى. لم أعرفه للوهلة الأولى. عهدي به عادي، عادي جداًّ: يرتدي بذلات قاتمة الألوان، ويعقد ربطات عنق باهتة تتنافر ألوانها مع البذلات: أحمر وبنيّ، أزرق وأخضر. يستحيل على من لا يراه في قاعة درس أن يصدِّق بأنَّ هذا الذي يلوِّح بيديه الفارغتين في المقهى، أو على الطريق، أو في الترام، طالب جامعي.

إنَّما تقاطيع وجهه، حين نتعرَّف إليه، أو بالأحرى، حين يودّ هو أن يتعرَّف إلينا، لن تفارقنا، كما لا تفارقنا صورة شعاعات الشمس...

لا أدري لماذا لم أجرؤ على الاقتراب منه.

هذا المكان غريب عن مواعيد لقائنا، كأنَّه سرير جديد، في غرفته هو المفتّحة الشبابيك على ميدان سباق. ولكي أقترب منه، أنا مجبرة على نزع أثوابي قطعة قطعة فألتصق به عارية وضجيج الناس يتعالى استغراباً من الميدان... وهو، قصداً منه إلى إظهار خطورة عريي، يحتفظ بثيابه. يحتفظ حتى بربطة عنقه!

رآني فهزَّ رأسه يستفهمني، ثم يدلّني على مكانه.

لم أتحرَّك. أخذت بالمقابلة بينه وبين ضوء الشمس على قمَّة الغرسة الخضراء. وكان هربًا عسيراً بلّل جسدي بالعرق قبل أن أستريح على كرسي في المقهى. وطلبت قدحين من القهوة: سيتبعني بهاء إلى هنا.

وتدفَّق بهاء بالنور على مدخل باب «العمّ سام»، كما انفجر النور من ضوء الشمس على قمَّة الغرسة الخضراء منذ حين... فتلقّتْ حولي أرفرف بالنور. أفتِّش عن روّاد المقهى، في تأثُّرهم بالخيرات الوافرة التي تنبع من عيني بهاء... فإذا هم بعيدون عنّي وعنه، لا يكترثون لي وله.

تبسَّمت له فلم يبد على وجهه أنَّه يكتفي منّي، اليوم، بمجرَّد ابتسامة عابرة، فظلَّ جامداً على المدخل. ثم ابتعد عنه قليلاً، كما انحرف ضوء الشمس قليلاً على الأرض، هابطًا عن قمَّة الغرسة الخضراء. كان التردُّد يجول عند قدميه، مفكِّرًا: هذا المكان لها هي، وأنا أتبعها صاغراً إلى حيث تريد. هذه المرأة التافهة دفعتها ثقتها بانصياعي في تحقيق أوامرها: إنَّها طلبت لي قدح قهوة!

واستدار ينوي الابتعاد عنّي. فانفجر الغضب في أناملي وكدت أقفز عن الكرسي لو لم يواجهني من جديد، يتحقَّق من أنَّني أرتدي ثوبًا جديداً: ثوبه الأحمر!

فاقترب، واقترب من مائدتي وسيجارته تئنّ في جحيمها:

لا أتحمَّل رؤية بهاء بعيداً عن منفضة سجائر، وكرسي وقدح قهوة.

أحسنَ تركيز الكرسي قبالتي وغمغم بعد أن فقد تردُّده وعقله وكل وعيه، في الثوب الأحمر:

«أنت تعرفين، إذن، أنَّني أحتاج اليوم إلى قدح قهوة؟».

وأشار إلى الثوب الأحمر، فضحكت مرتبكة. وتمدَّد الصمت بين شفتيّ وشفتيه... ليكفّ عن تقطيع خيوط ثوبي الأحمر الذي اشتريته له، له هو فقط.

إنَّه له، يملكه. ليتأنّ في سحب الخيوط بعينيه، وترك أجزائه ترتجف عارية في جسدي، خفَّاقة، تستعطف.

فليأمرني: اخلعي هذا الثوب، بدل أن ينزعه خيطًا... خيطًا... عن الساقين والنهدين، والعنق. فليقل لي شيئًا. الثوب يشدّ على صدري، الذي تعوَّد التحليق حرًّا في فضائه. الثوب يعصر ساقيّ، ويقيس مقادير الفنّ في صقله واستدارته وخطره. الساق ذاتها، التي كانت تضرب الفضاء تيّاهة، لا تُعدّ لها خطوات، ولا تعترف بمقاييس. الثوب الأحمر معناه خلاصة آخر سويعات ضيق أفنيتها في المؤسَّسة.

لن يتكلَّم. وعيناه تستمدَّان، وتنتشيان!

ضربت البلاط بكعب حذائي المرتفع، فتنبَّهت عيناه ـ ولم يعد يعي فيه إلاّ العينان ـ إلى أنَّني رفعت الرائعتين على عرش أبيض، ليتسنَّى له السجود تحتهما ـ بعينيه ـ مرتاحًا... فيوجد للمرَّة الأولى في تاريخ الإنسانيَّة: ساجدًا إلهًا، وإلهًا عبدًا.

وماجتْ حولي همهمة حزينة، تقطَّرت حمراء من بين شفتيه. بينما استرخت أجفانه فوق الحدقتين المستغرقتين في اختطاف اللَّذة عن الساقين. ثمَّ اشتدّ خفوت الهمهمة. خفتت الهمهمة... خفتت. إنَّها الآن رعدة شفاه، إنَّها صلاة... فشممت، للتوّ، رائحة معابد أُغلقت شبابيكها على غرف فُرشت أرضها وجدرانها بسجاجيد فارسيَّة، مزخرفة الحواشي. وهذه السجاجيد نذرها عظيم للمعبد يوم عجز الأطباء عن شفاء ابنه من مرض خبيث. وفي لوعة الوالد وذعره من موت يضيّع أملاكه، صرخ مستنجداً بالأولياء: «سجاجيد أيُّها الأولياء!» وركع!

وتشاور الأولياء في ما بينهم، وهم يتكتكون حبَّات سبحاتهم الفضِّيَّة بعضها ببعض، وأجمعوا على أن يكرِّسوا للسجاجيد صلاة كلَّ يوم!

في حركة شفتيْ بهاء المنتظمة عرفت أنَّه، مثلي، يشمّ النذر، فإذا شفته السفلى تأكلها فورة تمنّياتها، وإذا الشفة العليا جامدة راضخة، وجلى!

الشفة العليا في السماء، والشفة السفلى على الأرض. الأولى في الصراط المستقيم، وفي جنّات عدن، في عرش تحفّ به الملائكة، في يوم الحساب... والثانية، هنا في المقهى، تتزحلق تيّاهة، بين الحذاء الأبيض وساقيّ المرفوعتين على قمَّته.

وفي الفضاء، ما بين سماء شفتيه وأرضهما، علا عزف لهمهمة، شفة تقول، ولمعان القبب الذهبيَّة يجرح وجه الشمس: ساعدني ربِّي

لأكون عبداً مطيعاً، لا يقتل، ولا يكذب، ولا يذوق المحرَّمات، ولا يحسد ذا نعمة، لأنَّك خلقتنا درجات... درجات...

وشفة، في اختناقها وتمرُّدها، تهدِّد: ربِّي، أنت آلة هناك. وأنا آلة هنا. سآخذ منك ما أحتاج إليه. وسأعطيك ما أريد. وسأمزِّق الحرير الأسود الذي يغلِّف وجه كل امرأة. وسأقتات من لحم هذه الساق المدلَّلة، التي تغريني!

عزف، ثم حشرجة، ثم عواء. هذه هي الهمهمة. هذه هي الهمهمة. هذه هي أغنية ريفه المظلم: كلّها قيود. كلُّها أوبئة. كلُّها جفاف. كلُّها نزاع!

أخرجتني الأغنية من المعبد، فصرخت: كفى!

فلم يكفّ بهاء عن همهمته.

ترهقني هذه الألحان، تسحبني وراءها في طريق خيالات مظلمة، وعرة: من معبد إلى كوخ رذيلة، من سجن مظلوم إلى قصر حاكم لصّ، من عواميد ومشنقة إلى صحارى لامتناهية الحدود.

كفى!

لم يكفّ. إنَّه يدعوني. يعرف أنَّني أستعدّ لأن أغمض عينيّ وأمدّ رقبتي العارية، وأرتمي على صدره أشبعه لثماً، وهمساً... ثم أتطاول بشفتيّ، لأذوب ثم أفنى قبلة على الكرسي، على الطاولة، على وجوه روّاد المقهى، على أيّ حاجز يعترض امتداد شفتي... ليكفّ عندها عن الهمهمة.

فهمست: «أرجوك أن تكفّ عن النحيب، وإلاّ سأهرب...».

وكأنَّه تنبَّه إلى ضرورة جني المحاصيل التي أينع قطافها في فصل الثوب الأحمر، فتمهّل في تذوّق السجود على الساق... ثم رفع عينيه، معربشاً على طيّة الفستان، يتأرجح بين خياله الذي ينقّب تحت الثوب عن الفخذ، وبين حقيقة بروز النهدين.

أحسست بوزن نظراته بين رقبتي، ونهديّ...

وبينما الهمهمة تلفظ آخر أنفاسها في الفضاء، ما بين سماء شفتيه وأرضهما، ردّد:

«قبل أن تهربي، أنصحك بنزع الزرّين اللذين يحكمان إغلاق فتحة الصدر».

«ماذا؟».

نطقتها عيناي، ثم حبكتها في الفضاء أصابع يدي اليمنى.

وصفّق هو فرحًا، كأنَّه يستحلفني أن أنزعهما الآن... الآن. ثم قال:

«أنا أقترح كسرهما بعد نزعهما، وأنت الرابحة».

الربح؟

تمنَّيت لو أتاح لي فرصة أناقش فيها ربحي، وربحه في أن أفتح كوَّة يطلّ منها صدري متنشّقًا إعجابًا، سابحًا في كلّ عين، وبين معاقبتي له، وحيداً في الظلام، تفتّش عنه العيون.

«أين كنت البارحة؟».

تمدّدت العلامة المستفهمة كسلى على وجهه، وزادتني رغبة في التعلُّق، ثم الاحتفاظ به. وإذا كل ملاحظة يبديها سفينة تقلّني متبخترة في بحور عالم جديد له إطاراته، وسكّانه، وانفعالاته، وخصائص التجربة فيه.

وانتشلني من صمتي الضاجّ، متمتماً:

«أتعرفين بماذا أحلم الآن؟».

وضحكت حيري، أجيب:

«بالحوم على ضفاف النهر الساهر، وبمسدّس، وبالدماء تنفجر من عنف...».

فاستمهلني، يصرخ:

«أنت قاسية. ويحك، تمهّلي: أوتصدّقين أنّني قادر على قتل هذا الحاكم السافل؟ أنا شيوعي وأكره الشيوعيّة. أنا مشرَّد في الدنيا، تلاحقه سلطة بلاده الزائفة. أنا أكره النظام الفردي، وتتعارض أكثر مبادئ الحزب مع معتقداتي. أنا أكره القتل، ولكنّني مدفوع إليه. أنا أكره الجامعة، ولكنّني مجبر على دخولها. فهي السبيل الواحد إلى كسب النصر. أنا أكره نفسي!».

وأضاف:

«لا تجرّبي مرّة أخرى الاستخفاف بأحلام يقظتي. لا، أحلام يقظتي هي عروس حياتي، تساعدني على تقبُّل الحقائق الواقعيّة... إلى حين».

سيجارته، وأحلام يقظته عروس....

وأنا؟

وجالت برأسه أفكار مماثلة، فصارحني:

«تمنَّيت البارحة لو كنت أمامي لأعجن جسدك ضربًا بعصًا... كما كان يعجن «عمِّي» جسد زوجته!».

فشهقت، وامتقع لوني، وجمعت جسدي على الكرسي. إنَّه يتصرَّف بجسدي، في أحلامه، كأنَّه يملك هذا الجسد، كما يملك عمّه جسد زوجته. عذَّبه غيابي البارحة، وسيعاقبني بالضرب، بعجن جسدي بدمائه. وها هو الاستعداد يقوى على يده وفي عينيه. أكمل:

«كنت أسترق تفاصيل ما يحدث كل ليلة بين عمِّي وزوجته. ففي عصر كلّ يوم يتربَّع والدي بجانب عمِّي يجرعان فناجين الشاي ويفرفكان حبَّات سبّحاتهما على مهل. وكنت أتظاهر بأنَّني مأخوذ في الدرس، بعيد عنهما. فكانا يستغلاّن انشغالي بعرض تفاصيل مناقشتهما بدقَّة يبرِّران فيها سلوكهما مع النساء... كان عمِّي يضرب زوجته لأتفه سبب. هكذا كنت أطلق على السبب، أمّا الآن...».

وتوقَّف على وجهي يستجمع قوى معتقد كونُه من تجاربه الذاتيَّة الخاصَّة، وأكمل: «ليس بين المرأة والرجل أسباب تافهة تؤدِّي إلى تصرّف ما يقوم به أحدهما. كانت زوجته تعذِّبه... تعذِّبه... تعذِّبه...»

عبارته، ولهجته في نطقها، أوجع من ضربات عمود حديدي على صدره: عذَّبته البارحة، هل أنا مدينة له بالاعتذار؟ هل أشرح له

الداعي الخطير لتخلُّفي عن لقياه؟ لكن هل أنا مجبرة على ملاقاته كلَّ يوم؟

عندها، تلمَّست الخيط الشفّاف الذي يربطني ببهاء.

بينما هو يشدّني معه، إلى الريف المهمل، الذي استقى منه النظريات:

«كانت تحبُّه، لا، بل تعبده...».

وعاد إلى التوقُّف على وجهي، ثمَّ على صدري، ثمَّ على ساقيَّ، ينقِّب، كعالم أثريّ، عن المحبَّة في الوجه، والصدر، والساقين... ولا أعلم ماذا يجني من مهمّة النظرات التفتيشيَّة هذه؟ لا أعلم. إلاَّ أنَّني كتلة مشلولة الحركة على كرسي: يقيِّد وجهي الخيط الشفَّاف. ينزوي صدري خلف الخيط الشفَّاف. تكمن ساقاي داخل العقدة في الخيط الشفَّاف.

ثم تابع:

«يغريني اللون الأزرق المشبع بحمرة طفيفة، الذي كان يبرع عمِّي في وصفه، بقعًا متباعدة على جسد زوجته: ضربة عصًا، فلطخة زرقاء، ضربة فوقها، فمشحات حمراء. ضربة... وضربة، فيلتصق القماش باللَّحم البضّ. وإذا الجسد كلّه، كالغيوم الداكنة، عند الشفق، قبل الغروب بدقائق! وفي اللَّيل وفيما آثار الضرب لا تزال تغلي على اللحم الطري، تقفز هذه المرأة، كالأرنب الوديع، وتنحشر بجانب زوجها تستجديه غفرانًا!».

وقهقه بانفعال، يهمس:

«ليتني أنتشلك عن هذا الكرسيّ وأرميك من هذا الشبّاك إلى الطريق... فتتحطَمي!».

أغضبتني أمنيته الوقحة، ثمَّ أخافتني، فالتصقتُ أكثر وأكثر بالكرسي، أفتِّش عن سلاح أدافع به عن نفسي، إذا انقضَّ عليَّ، يتعمَّد إيذائي: إذا رفعني بين ذراعيه، سألفّ ذراعيّ حول رقبته. سأدفن رأسي في صدره. سأضغط جسدي على جسده. سأرطّب أذنه بلساني. سأغمض عينيّ، وأستريح... فتنام عندها أمنيته، وقساوته، وأحلام يقظته وعذابه.

وكأنَّ أمنيته تلحَ في ضرورة تنفيذها، وكأنِّي به خائف من ضعفه، حين أقاومه برقَّتي. وقف، ثمَّ سألني إذا كنت أودّ مرافقته، فرفضت. واتّكأ على جيبيْ بنطلونه، وأحنى ظهره، كأنَّه وُلد منذ قرن، وهو دخيل على هذا القرن، ودبدب عليهما إلى درجات المقهى القليلة، إلى الباب، إلى جوار المتسوِّل... إلى الشارع الكبير.

- ٣ -

ويوم آخر مثل البارحة؟

البارحة:

قفزت عن سريري، أطير إلى المرآة، أفتّش عن سرّ انشراحي، وعن مصدر الأمان النابت في زوايا عينيّ.

وشيئًا فشيئًا جرفني تيّار شعور ناعم، يسمّيه بعض الناس «السعادة». فصفّرت لحنًا فوضويًّا اقتطعته نتفًا مبعثرة من كلّ أغنية، ثمَّ جمعتها نشازًا أثار أمّي. فأسكتتني مهدّدة، وأنا أكمل الزوغان في البيت: من الحمّام أغتسل، إلى غرفتي أروّض شعري المشذّب، إلى الشرفة أسكب سيلاً خفيفًا من الكولونيا على ذراعيّ وفي صدري. ثم اخترت قميصي الأبيض الكتّاني لهذا الصباح الدافئ، وتركت نصف أزراره سائبة تستعطف يدًا تلفّ حول خصورها العروات. وطليت في

المطبخ أظافر أصابع رجلي، وسحبت فيهما خفًّا يكاد يطير هو أيضًا لولا شبكة الأظافر. ودوران اللمعة الحمراء.

وعلى الباب رميت نظرة اهتمام على وجه أمّي، فإذا هو مكفهرّ، ثمَّ حائر، ثمَّ دهش، ثمَّ هو يتحيَّن فرصة مناسبة ليستجوبني عن الدافع لكلّ هذا الاعتناء بمظهري؟ عن البهجة، عن العجلة، عن الغموض؟

لا تهمّني أمّي. لا أحبُّها. لا أحترمها. إنَّما اعتدت وجودها معي في البيت.

أرقصت الباب بيدي، فغابت عن عينيّ خصلات شعر الأمّ وأذنها اليمنى، ثمَّ غاب خدّها، ثم أنفها... ثمَّ كل الوجه.

ترى، هل سبقني بهاء إلى المقهى؟

أخاف هيجانه الذي يولّده تأخُّري للقائه. أخاف، كلّ مرَّة، أن تعود إليه رغبته في ضربي وإيلامي. أكره... أكره زوجة عمّه!

تنبَّهت إلى أنَّني محاطة بجوّ غير عادي في هذا الشارع: السيّارات تندفع بجانبي، بصمت. والرصيف شبه مقفر.

نسيت أنَّني لا زلت في بداية النهار: الرجال في أعمالهم. والنساء في مطابخهنّ، وفي بيوت الأزياء، وعند الخيَّاط أو الحلاّق. والأولاد في مدارسهم. أمّا أنا فلا يشغلني درس، ولا يكبِّلني عمل، ولا تغريني فتشغلني ليلة دفء. أنا هاوية حياة. أنا أعشق الحياة.

أنا كالقاصدين شاطئ البحر ليعرضوا أجسامهم لأشعّة الشمس، فيُكسبوا بشرتهم صحَّة ومرونة. أستعدّ اليوم لتعرية أمانيّ،

وأحاسيسي، ومعتقداتي... لعلّها تكسب نقاوة ونضجاً وأهمّيّة، فأمارس بعد ذلك مع بهاء أو مع غيره، غاياتها.

لكن، لمَ هذه الأفكار؟

لماذا لم أتوصّل مع بهاء إلى أيّ تصرُّف إيجابي، طبيعي، لمسة يد، جملة غزل، نزهة، انفراد؟

دفعت زجاج باب المقهى واعتليت الدرجات الفسيحة وتمهّلت على أعلى درجة، أريح انتباهي على كلّ وجه من وجوه الروّاد. وكان آخر وجه لمحته، وجه امرأة يضيع بين قدح شاي، وقطعة «غاتو»، وإبريق حليب، وسكّريّة. فاخترت الطرف الآخر من المقعد الجلدي الأسود الذي تشغله هذه المرأة وقرّبت الطاولة الصغيرة قليلاً، ثم فتّشت عن الكرسيّ آمره بتنظيف هذه المثلّثة الشكل، الحمراء، من رماد سيجارة من كان يشغلها قبلي. فاسترعى انتباهي، من جديد، رأس رجل أثار فضوله اندفاعي الجريء، وحيدة، إلى مكان هو للرجال. الأنانيّة في عينيه، وعلى أصابع يديه المحبوكة بعضها ببعض.

لقد أصبتُ باختياري هذا المقعد بجوار المرأة. إنّها تحميني من أنانيّة رجالنا، بينما شلّة من الرجال الأجانب مأخوذة باستطلاع الصحف وبلع المرطبات.

أين الساقي العجوز النحيل؟ فليسرع، هذه الذرّات من رماد سيجارة على الطاولة تجسّم لي الرجل، الرجل الغريب الذي كان يجلس مكاني. أنا أتحسّس سخونة جسده على جلد المقعد. فليسرع، وليبدّد آثار هذا الرجل!

سكنت، مطرقةً، بعد أن لفّ النحيل بقايا الرجل الغريب بقطعة من القماش الأصفر. وعرفت أنّني مررت بتجربة خطيرة: إنّني لن أتحمّل الاحتكاك بأيّ رجل بعد الآن، غير بهاء!

أشعلت المرأة لفافة، فلم يظهر على وجه أيّ رجل استغراب وتحدٍّ. هي أجنبيّة، لا تنضمّ إلى نساء شرقنا، المسجونات في حظيرة الرجل. وامتصّت كوب الماء. وفتح أحد الرِّجال الشقر كتابًا، راح يقلّبه ببرود إنكليزي بين أصابعه المصقولة، فتساءلت: هل هذا الشاب إنكليزي؟ بهاء يكره الإنكليزي. فليغادر هذا الدخيل المقهى. ورأيت المرأة تتململ مكانها، ثمّ تمدّ ساقيها تريحها من شبكة عصبيّة. ودقّت ساعة الجامعة الربع الأول، ثمّ الثاني... من الساعة الحادية عشرة. لماذا تأخّر بهاء؟

قرّبت يدي من قدح القهوة وحاولت رفعه، فارتجف بين أصابعي. أبعدت يدي، وفركتها على إطار الطاولة المعدني الأبيض، ثمّ عدت إلى رفع القدح بالأصابع العشر.

في رحلة القدم القصيرة، ما بين الطاولة وفمي، رأيت المرأة تجمع أوراقها وتنادي الكرسون الشابّ. فنادى هذا بدوره الكرسون النحيل العجوز. وعدّت له ليرات، فأرجع لها منها قطع قروش. وضمّت حقيبتها إلى صدرها، وركّزت نظراتها على الأرض، واستدارت، وهبطت الدرجة الواحدة التي أراها من زاويتي... فاستجمعت كلّ قدرتي لأحتفظ بالقدح بين يدي.

أنا وحيدة في المقهى، أجاهد للاحتفاظ بعدم اشمئزازي من هؤلاء الرِّجال. إنّهم بعيدون، يفصل بيني وبين أقرب رجل إليّ، المقعد

الأسود. أحنيت رأسي أريح شفتيَّ على طرف القدح. قطرة واحدة انصبَّت في فمي. وجمَّدت القطرةَ، والقطرات البنيَّة التالية، ضجَّةٌ انبعثت من باب الدخول، ووقعُ أقدام متمهّلة. أغمضت عينيّ، وفي تسلّل دخان الإنكليزيَّة والأميركيَّة إلى أنفي عرفت أنَّ القادمين احتلُّوا المقعد الأسود الطويل، ومحيط الطاولة الحمراء المربَّعة الشكل.

الاشمئزاز... إنَّه يسكن ذراعي ونظراتي المسلَّطة على خزانة الأسطوانات. لا أتحمَّل جلوس هذا القادم الجديد بجواري. لا أملك نفسي: أشعر بالقيد الشفَّاف الذي يربطني به بهاء. عليَّ أن أرعى جسدي من أجل بهاء فقط. عليَّ أن أبتعد، أن أختار الأطر المناسبة لكلّ مكان أرتاده، حسب رغبات بهاء ومطاليبه ومعتقداته.

«هل تنتظر أحداً يا سعيد؟».

بدأوا يشاكسونني. تلهَّيت بشرب القهوة، ثمَّ بمصّ شفتيّ. وأجاب هذا الذي يدعى سعيد:

«لا بأس بها».

ضحكوا بمجون. يدفنون رأسي بغيمة دخان بيضاء. واستجمعتُ كلَّ شجاعتي أحدّد موقعي للخطّة، في تلك الزاوية، فإذا عشرات العيون تبرق في كثافة الغيمة. وبرشاقة تحسَّست موضع العروات، وأقفلت فتحة قميصي الأبيض: الفتحة لبهاء!

الساعة هي الواحدة: لن يأتي بهاء. سأغادر المقهى!

لكن، ربّما يأتي بعد دقائق.

لكن، كيف أسلخ جسدي عن طرف المقعد، وأحرِّك ساقيَّ، فتتعلَق عيون هؤلاء الرِّجال بصدري، وشفتيّ، وساقيّ؟

وفيما الشبّان بجواري يتجادلون بالإنكليزيَّة المطعَّمة ببعض عبارات عربيَّة، اتَّخذت رأيًا سديدًا: أن أتصرَّف كما تصرّفت المرأة الأجنبيَّة. ناديت الكرسون. عددت في يده ثمن قدح القهوة. وحملت حقيبتي. وقفت. تردَّدت لحظة قبل أن أخطو، حين علَق أحد الشبَّان:

«ألا تقول وداعًا أو إلى اللقاء، يا سعيد؟».

خلق تعليقه، تعليق هذا السخيف، ضحكة عصبيَّة في حلقي. فأطبقت شفتيَّ بقسوة أمنعها من الانفجار. وغادرت المكان.

كلّ ما يظهر منّي كان يبوح بالفشل: فتحة الصدر الموصدة. الشعر المتمرِّد، الأسود. الأنامل الهائجة التي لا تدري أين تستقرّ، وماذا تفعل...

درت في البيت بخطوات مريضة كأنَّني تائهة في هذا البيت أفتِّش عن إنسان تائه. فجاءني صوت أمِّي يهديني إلى غرفة الطعام.

وقفت على حافّة الباب، أتمرَّن على تقبُّل وجود أمِّي بجانبي في هذا البيت. دائمًا يجب أن أعود إلى البيت، أن أنام في هذا البيت، أن آكل في هذا البيت، أن أستحمّ في هذا البيت، أن ألتقي بزوج المستقبل في هذا البيت. البيت: أمِّي. أبي. أختاي، أخي...

لن أتحمَّل البقاء بجوار هذه التحف الباردة الصمَّاء.

تدفعني رغبة إلى الصراخ، إلى العودة للمقهى، إلى التنقيب عن بهاء، إلى الابتعاد عن هذا البيت.

رأيت أوّلاً شعر أمّي الطويل، ثم أذنها اليسرى، ثمّ خدّها، ثم أنفها، ثم يدها. ثم امتدَّت في الفضاء يد والدي ثمّ رأيت رأسيهما يتجاوران، يسبّحان، يغوصان في ساقية اطمئنان وسخة، ثمّ يطفوان على سطحها متعرِّضين لنور رضى زائف...

فتراجعت حانقة، حين تبسَّما لي ببلاهة. ألا يعلمان أنَّني لم أره اليوم، وأنَّني لأعيش يجب أن أراه؟ يجب أن أنجح هذه المرَّة، وقد خرجت من عالم الدراسة ومن جوّ العمل بخرافات...

ثم هل الكبرياء هي التي ألصقتني بالسرير طيلة ساعات بعد الظهر، وطوال الليل، فمنعتني من العودة إلى المقهى لرؤية بهاء؟

لا أدري، إنَّما تذوَّقت طعم لذَّة حلواً، لمجرَّد التفكير بأنَّ بهاء سيحيِّره انتظاره لي، كما حيَّرني. فعذَّبني انتظاري له.

أمّا اليوم: فلماذا لم يأت؟

أنا متضايقة. صحيح أنَّني تحصَّنت بالمجلّة التي اشتريتها خصّيصاً لمعركة الاشمئزاز بيني وبين هؤلاء الرِّجال في المقهى؛ إلاَّ أنَّني أغوص في تيَّار ذلّ.

بسطت المجلّة أمامي، وأخفيت رأسي خلف صفحاتها، بينما تدلَّت بقيَّة أجزاء جسمي تقاوم النظرات، وتجرحها العبارات، وتجرفها

رغبات شتَّى في اتِّجاهات معكوسة. ويقطعها صرير الرمل، تحت الأقدام المقتربة أو المبتعدة.

أين بهاء الآن؟

التساؤل الخائف لا يبرح رأسي. ليته يشقّ له منفذًا في الأذن فيصمها، ويريحني من هذا اللغط:

«إنَّها صحفيَّة. أتراهنَّ أنَّها صحفيَّة؟ ويدفع لها ثمن هذه الجلسات الوقحة بيننا ليرات غزيرة. مئات الليرات. إنَّها مجبرة على كسب قوتها. أعتقد أنَّ والدها ميت، وليس لها أخ يعولها. أتراها تتحمَّل مسؤوليَّة تردُّدها على هذا المكان؟ لا. ليست أجنبيّة. اسمع، لمحتها مرَّة في قاعة المحاضرات في الجامعة. انتبه، لا تمتصّ إلاّ محتويات أقداح صغيرة: ما معنى الأقداح الصغيرة؟ قهوة عربيَّة، يا أبله...».

أسندت المجلّة بيد واحدة، واتّكأت بيدي الأخرى على منفضة السجائر استمدّ منها أنسًا وعونًا على تجاهل المحيطين بي.

المنفضة زجاجيَّة بيضاء. قرّبت رأسي منها، فوقع نظري في لطخة حمراء تحتها. إنَّها هنا، أمامي، أكسبتها حمرة الطاولة الجلديَّة رهبةً وخطورةً. أرحت عليها أطراف ضيقي. إنَّها جزء من بهاء. إنَّها مثلي تنتظره.

إلى متى يطول انتظاري، وانتظار المنفضة، ثمَّ... انتظار الكرسيّ؟ أنا ساكنة. والمنفضة ساكنة. والكرسيّ الفارغ ساكن.

والضجيج يقوى ويتعالى حولي، وحول المنفضة، وحول الكرسي... فيلامسنا، لينزلق بعيداً مخفقاً في تعكير سكوننا.

المنفضة في أروع زينتها: نظيفة، تفوح منها رائحة الصابون. أمّا البريق الذي أولعه خادم المقهى فيها هذا الصباح بخرقته القطنيّة فلا يزال يضحك ممنّياً النفس بمتعة الذوبان في لهب السيجارة الناصعة، وهي تنتحر على حافّة الزجاج الأملس.

دبدبت أصابع يدي إلى المنفضة تتحسّس كتلة من وجود بهاء المشتّت، فإذا هي باردة، باردة جدًّا... جدًّا، أقسى من برودة أصابعي، فارتدّت على عجل، تلتصق بصدري.

لكنّ الكرسي يربض أمامي بعناد. يظهر مفتخراً بطول أناته وعناده.

أكره الكرسيّ الفارغ. أكره زوجة عمّ بهاء. أكره نظام الحكم في وطنه. أكره البيئة التي حرمته، فقطعت حتى الأشلاء المبعثرة في شخصيّته. قطّعتها ذرّات منشورة في عوالم الافتراضات، والأماني، والنظريات، والعقائد.

أكره البيت. أكره المقهى. أكره كلّ رجل ينظر إليّ.

أكره... أكره... أكره... أكره!

عندها، نضجت نقمتي وتهيّأت لتحطيم المنفضة والكرسيّ. فأطبقت المجلّة واختطفت حقيبتي وأسرعت هاربة، تاركة ورائي أجزاء من بهاء: المنفضة، والكرسيّ، وأجزاء منّي: نثرة لحم من شفتي في عين

رجل، وكمشة استحسان في ذراع آخر، وخفقة من نهد على شفة ثالث، وخامس.

هذا هو اليوم الثالث: أيلوح على وجهي الكمد؟ أتفضح العينان في الوجه سأم الانتظار، والإخفاق في اللقاء، واللوعة في البعد؟

كلّ ما في أمّي كان يرتعد حتى اقتربت من سريري تقترح. لا، لا تقترح، إنَّها تستنجدني رحمة بي ورحمة بها أن ألبِّي دعوتها الكريمة إلى سهرة صاخبة مسلِّية في بيت إحدى القريبات.

أشرت لها برأسي أن سألبِّي دعوتك الكريمة. فامتلأت بهجة، وتركتني مصلوبة النظرات على الحائط.

سأجرِّب السهر هذا الليل، وسأمضي في صعيق الموسيقى على دبيب هذه الثواني التي تنغل في أعصابي. كيف أخترق حجاب التكتكات البطيئة، لأقفز إلى السهرة؟

من نصب هذا المنبِّه على رأس خزانة ثيابي؟ تك... تك... تك.. تك... شرايين دقيقة، كحبال الشعر، تتقطَّع في جسدي. تك.. تك.. ستّون: تك، يعني دقيقة واحدة. تك... جرس الباب الخارجي يرنّ... رنَّ... تك... تك... أمِّي تنادي الخادمة: افتحي الباب... تك... تك. أزيز الباب وهو يغلق... تك. إلى الماضي، هيّا. تك. إلى... تك. الماضي... تك. ملايين التك، وأصبح في العدم!

أدخلت أصابع يديّ في أذنيّ، وتعمشق انتباهي على الحائط الأبيض. الحائط أبيض. وأنا سألبس ثوبي في سهرة اليوم، الثوب الذي صُنع في باريس.

•

نزلت عن السرير، فتلقّتني زوبعة: تك... تك... تـ.. ـك... تكتكتك. ودارت بي في جوانب الغرفة، فتخلّصت منها، وفتحت الخزانة، وأمسكت الثوب الأبيض، ونزعت البجاما، وفرشته فوق رأسي، كتلال زهرات فلّ وياسمين، فلم أعد أسمع خطوات مطرقة الوقت المجرم.

وانزلقت التلال البيضاء معي، وأنا أقترب من المرآة... وجثمت الدهشة على وجهي حين رأيت في المرآة نهديّ يدفنان فمهما، في تجويف أعدّه لهما الخيّاط الباريسي. وكتفيّ تضيعان في عريهما.

ارتديت. لا، لا يحقّ لي ارتداء هذا الثوب في سهرة اليوم، ورمي جسدي: أداة تخدير مبتذلة كالأسطوانة، والكأس، وسلّة الأزهار.

تك... تك...

جمعت الثوب عن جسدي ورميته في قعر الخزانة، فاستغرق تدميري للتلال البيضاء ثلاث دقات: تك. تك. تك. ودرت، ورأسي يملأ فضاء الغرفة، تسطير عليه صور انبعثت للحظة حيَّة: بهاء، ضحكته الطفلة. وجومه، أطياف أحلامه، غضبه، روعته في غضبته. ثمَّ... ثمَّ تلك الدخيلة على حبِّي، تلك المنافسة التي تقتلني غيرة: سيجارته!

أجل، أنا، في زحف تكّات المنبّه على أعصابي، أحسد سيجارة قريبة من يده وفمه!

فاندفعت، وأنا شبه عارية، إلى الصالون، ورجعت بعلبة سجاير، وتمدَّدت على سرير وطرحتها بجانبي، وباشرت للتوّ مهمّة الانتقام:

بعثرت عشرين سيجارة، وفتّتها ذرّة بنّيّة بجانب ذرّة بنّيّة. وتبسّمتُ انتصاراً وأنا أتخيّل وجه بهاء الأغبر يحدّق بيديّ الشرستين، ثم يستجمع أشتات قسوته ليهجم عليّ، ينجّي عرائسه العذراء البريئة من تهمتي الباغية، ومن براثن أنوثتي الجامحة التي مسختها الغيرة الحمقاء!

ونمت الابتسامة... ثم نضجت... وإذا هي ضحكة فجّة.

أدرت ظهري للحائط، وأغمضت عينيّ.

في الظلمة الفسيحة، ما بين شبكة الأجفان وسكون البؤبؤ، شقّ ندم يافع له سبيلاً. وتحرّك يطغى خطوه على ركض الوقت. فمددت ذراعي ألمس الحائط... رسمت على الحائط بلحم يدي: لماذا تركت العمل؟ لو كنت في المؤسّسة هل كان عذّبني غياب بهاء؟ كيف سأملأ كلّ هذه التكتكات، فأخرسها؟

ثمّ فتحت عينيّ أبحث متلهّفة على الحائط عن الملجأ الذي اتّقيت فيه شرّ ثقل الوقت، فإذا الحائط فرح بنقاوته، وبروده وبعده عنّي.

وقفت في زاوية الغرفة، ولففت الثياب حول جسدي، كأنّني أحرص على إخفاء وديعة غالية، اؤتمنت عليها وبذلت جهداً قاسياً في السيطرة على الرجفة الظاهرة على أصابعي. وأحكمت تعليق الثياب على خصري بحزام جلدي أسود... وأقفلت الباب، حابسة في غرفتي كلّ محتوياتها الصمّاء: فليبلعها المنبّه، المنصوب على رأس خزانة ثيابي... ويغصّ لها، ويفقد الحركة.

أقفلت الباب وابتعدت خطوات عن غرفتي... ثمَّ استدرت: هل أقفلت الباب؟ هل في الحقيقة نجحت في إقفال الباب؟ ربّما كان الباب مفتوحًا. مقفل، أو غير مقفل؟ مقفل... غير...

انقضضت على الباب أضربه بكتفي، فإذا هو مقفل.

واخترقت الممرّ على خيال مفتاح يعترض سيري، ونفذت إلى خياشيمي رائحة طلاء الأظافر، ثم سال حولي صوت الشقراء، صوت أختي الخافت، تطلّ منه رغبات أنثى، يطمئنها أمل أخضر:

«هل آخذ لك موعدًا مع الحلاّق؟».

وأجاب صوت أمّي، تمتزج نبراته الفوّارة بنبرات أختي الكامنة، المستعدّة:

«يحتاج شعرك إلى ترويض، لا تهملي موعد السهرة، ستلبسين ثوبك الأبيض...».

أقفلت الباب الخارجي، أحبس هذه المرّة أمًّا تتمّ نسج حياتها، وبنتًا تنسج حياتها على منوال الأمّ العتيق... وما صرت في أسفل السلّم حتى تساءلت: هل أقفلت باب غرفتي؟ لا لم أقفله. بل أقفلته. لا. بلى... يجب أن أعود إلى تفحُّص الباب: عليّ ألا أترك نثر التبغ عارية المعالم، منكمشة الأجزاء، بكماء في ضجيج استجوابات أمّي. لكنّني سمعت صرير الباب وهو يقفل، وسمعت أيضًا خشخشة المفتاح في القفل، ورأيت يدي وهي تمتد وجلة مشفقة على الموجودات الجامدة، المدفوعة إلى الإعدام بسكّين المنبّه القاطعة.

وما رفعت قدمي أستأنفُ سيري، حتى أدركت أنَّه يجب أن أعود إلى غرفتي... لكن، بماذا سأتسلَّح فأتَّقي سموم الأسهم المنطلقة من عيني أمّي وأختي؟ أيكون باب غرفتي، كباب دكّان بائع الحليب، فاتحًا شدقيه ينزلق الناس منه أحرارًا؟

وتقدَّمت من الدكّان، تكمشني بثيابي فكرة العودة للاطمئنان على باب غرفتي... فإذا صاحب الدكّان يعمل بحركة نشيطة، تجمّدها من حين إلى حين التفاتات فضوليَّة، يعلّقها الرجل مستفسراً عن سرّ، على شرفات البناية الجديدة، التي تستعدّ لنطح السحاب.

هذا الرجل يعمل: يستفّ الليرات فوق الليرات، لتتحوَّل يومًا إلى مئات... ثمَّ إلى ألوف... ثمَّ إلى مئات الألوف... ثم إلى بناية عظيمة تنطح السحاب. أما النظرة التي يصفع بها وجه ولده ليحثّه على العمل، فكانت تترك على خدّي الغلام توردًّا قاتمًا، وعلى فمه تمرُّدًا، وبين أجفانه تصميم عمارة جبّارة، وهيكل شركة كبرى يملكها وحده، فيها مقعد كبير يغوص فيه.

والرجال في البناية الجديدة يعملون، يتدلّون على ستائف من خشب، ويترنَّمون بأغنيات شعبيَّة، ويرفعون الماء في الجرادل، وينقلون الحجارة على ظهورهم، ويداعبون الرفوش في الهواء، خفيفة بين أياديهم، مع أنَّها محشوَّة بالرمل الأحمر.

أما صاحب العمارة فهو أيضًا يعمل: يعقد صفقات مع شركات أجنبيَّة لبيع الحبوب... ولا تتمّ الصفقات إلا إذا رفع التلفون إلى أذنه مرَّات عديدة، إلى أن تتعب الأذن، ويتعب الخيط الأسود، ويتعب

الحاجب على الباب، ويتعب السائق ودواليب السيّارة، وتتعب زوجته في إعداد المائدة، وفي مدّ يديها على وجهها لرسم الرتوش، وعلى خزانتها لتبديل الأثواب. ويتعب ولده في حفظ درسه، وإلقائه في حضرة الأستاذ الذي سئم حضور تلاميذ الأغنياء الكسالى، ويتعب الليل في تحمّل نور غرفته النفّاذ، الجارح، وهو يصفّي حساباته.

هؤلاء يعملون: يبنون مستقبلاً هنيئًا، وماذا أعدّ أنا للمستقبل؟ لماذا تركت عملي؟

لا يهمّني المستقبل قدر ما يعذّبني الحاضر: الدقائق الحيَّة! الدقائق...

إلى أين سأسير؟

أنا أمشي. أمشي على غير هدى... إلى... إلى أيّ مكان. إلى حيث تفنى أصداء زحف الدقائق حولي، لتدوّي آلات الطرب وتتفجّر من كلّ ركن في بيت إحدى القريبات.

وبهاء، أيضًا، يعمل:

هو طالب ذكي، يبذل كلّ قطرة من راحته رخيصة، في سعيه لنيل الشهادة الجامعيَّة. وهو، وإن كان لا يؤمن بقيمة الشهادة، يكافح لانتزاعها من يد العميد المحترم. إنَّه الآن في مكان ما في عاصمتنا الزاهية، يناقض معتقده واقعه، ويتغلّب واقعه على معتقده: يقول سأمزّق هذا الكتاب! سأحرق هذه المخدّرات التي ابتدعها المستعمر. لن أبتلعها، ووالدي وعمّي يتعمشقان على جذع شجرة النخيل الجني الثمرة: مانحة الحياة!

ثم يقرّب الكتاب من صدره، ويحني رأسه ليقبّله بحنان قائلاً: الحياة بين الحروف أجلّ قيمة من حياة تبدأ من جذوع شجرة، إلى أغصانها، ومن أغصانها إلى جذورها... حيث يقام عرس واحد في موسم واحد... أنا أعتنق المذهب الشيوعيّ!

يعدّ الحزب لبهاء مستقبله:

أنتَ كائن، وجارك كائن آخر. أنتَ تأكل البطاطا اليوم في المقهى، وأعظم رجل تعرفه يلتهم صحن البطاطا بلذّة وارتياح في مقهى ثان في المدينة. أنتَ نابغة، والحكومة ترعى مواهبك، وتهذّبها، وتسمو بها، وتستغلّها. وأنت بليد، والحكومة تستغلّ أيضًا خمولك في جرف الجليد عن الأراضي، لتحويل الصحراء إلى جنّة وارفة، وفي إذابة المعادن، وصقل الحجارة. أنت في حاجة إلى بذلة، وحذاء، وقميص. فما عليك إلاّ أن تحمل هذا المبلغ المخصَّص لك، وتقصد المكان المعيّن، فلا تتجشّم صعوبة الاختيار، إنّما تحصل هناك فوراً على قميص كقميص جارك، وعلى حذاء كأحذية كلّ الشبّان... لكن تنبَّه: إذا خطر لك مفاجأة فتاتك بربطة عنق زاهية، فستحرم شراء أشياء ضروريَّة، وأظنّك لن تطيق حرمانًا من التدخين طوال أيّام! إذن، ننصحك بقتل عواطفك، قبل انضمامك إلى عالمنا الأسمى! نحن نسمح لك بالزواج، على أن لا تمارس مع المرأة إلاّ اتّصالات جنسيَّة سريعة، في أوقات فراغ زوجتك من عملها في بناء المنازل وبيع المرطبات وتكنيس الطرقات... إذا كنت من سكان الاتحاد السوفياتيّ، أو متى حلا لك أنت أن ترفع عن جسدها الخمار الأسود، وتستدرجها إلى إفناء ما تبقّى لها من إنسانيَّة بين ذراعيك... لا تنس، أحكم ربطة الخمار بعد ذلك. ولا

تنس التأكّد من أنّك أقفلت الباب، بعد تركها! ولا تنس أن تعرّج على أكثر من بيت، إذا سئمت فتور ذات الخمار!

أنا أمشي...

استوقفتني فتاة كرديّة آمرة: «اشتري منّي حبّة علكة! إليك هذه العلبة الخضراء. لا، أنت تفضّلينها بلون الورد. لا، أنت تحبّينها صفراء، على نعناع...».

صرفتها عنّي بحركة متضايقة من رأسي، لكنّها ألحّت بوقاحة: «إمّا أن تشتري علبة، أو أن تدفعي خمسة قروش أجرة ملاحقتي لك، من أوّل الشارع، وإهمال زبائن كثر! هيّا، خمسة قروش... هيّا ادفعيها!».

صفعتها، وندمت للتوّ على صفعها.

إنّها تعمل! تعدّ مستقبلها! تصارع الدقائق، وهي التي لا تعرف للوقت ثقلاً. أمّا أنا، فقد تركت عملي. لماذا تركت عملي؟ لماذا تركت عملي؟

«بنت الكلب!».

هل أنا حقًّا بنت كلب، كما قالت هذه الطفلة الكرديّة الناقمة؟

بنت. بنت كلب. هذه الجملة سلاحها. فهل نسمّي شتيمتها انحطاطًا أخلاقيًّا شائنا؟ لكن، وهل أخلاق رئيس المؤسّسة أرفع من أخلاقها، وهو الذي طردني من مكتبه، كأنّني كلبة جرباء؟

فهمت الآن:

وقفت عائقًا في طريقه لتحقيق مستقبله، فنحّاني عنه.

ووقفت عائقًا في تحقيق مستقبل الكرديَّة، فانتقمت منِّي شاتمة.

الرئيس، والطفلة الكرديَّة، وبهاء، وبائع الحليب في دكّانه وصاحب العمارة، وأمّي، وأختي... أساليب متفرِّقة، تكدّ لتبلغ غاية واحدة: المستقبل.

ما هو مستقبلي؟

مستقبلي دقائق فارغة.

وجاء المساء.

ارتميت على المقعد بجوار السائق فشهقت أمِّي، وبهتت ألوان وجه أختي، وابتلعني السائق بسيول دهشة معكّرة تفجَّرت من زوايا عينيه. فأمرته: هيّا! فانقضّ على المقود يولع في السيَّارة حركة مضطربة، وإذا مجاري الدهشة تنحرف لتندفع في يدي الرجل!

وإذا أمِّي معركة أسئلة صامتة تضرب جوانب السيَّارة: «لماذا تلبسين ثوب الصباح للسهرة؟ أين الثمين الأبيض المناسب؟ كيف تنتعلين هذا الحذاء الخفيف؟».

وإذا الشقراء موضوع للفخر بيد الأمّ، تجابه به من يعيّرها بالبنت الشاذَّة!

وإذا أنا في رحلة خياليَّة ممتعة، مع بهاء، في سيَّارة!

الموسيقى...

القاعة كلّها تتوجّع، وتتلوّى تحت السياط المسلوخة من الأسطوانة السوداء، وظننتّها ابتلعت أمّي وأختي وأفنتهما... أين هما؟ أشعر بحنين، ووحدة... حدّقت في الأسطوانة الرقيقة فذُهلت، ورحت أنتظر من لحظة إلى لحظة تشقّقها وتناثرها في أرجاء البيت الماجن!

لا أسمع إلاّ هذه الموسيقى!

لا أرى إلاَ هذه الأسطوانة السوداء!

فابتعدت عن المكان...

وتسلّلت خفية إلى الشرفة وانزويت في ركن معتم، فلمحت حلقة شبّان يدخّنون في النور. ثم ترقرق صوت حزين في أذني:

«اشتركت في الحرب الفلسطينيَة...».

وسكن صامتًا.

أيكون المتكلّم قد لمحني في الضوء الخفيف الهارب من النافذة؟ رأيته يتقدَّم... اقترب منّي... سألني:

«أتفتّشين عن أحدهم؟».

وتلفّتت رؤوس ستّة. وبرقت في الظلمة الشفّافة أطراف سجاير حمراء ستَ تعصرها أصابع فتيّة، مدمّرة. فلم أجب.

لماذا لم أجبه؟ تقدَّمت منه بدوري وجلست على حافّة الشرفة، فأشعل سيجارة.

يده ترتجف، ويقبع الانفعال على شفتيه، فتكلّم الاستعطاف في عينيه وعلى يديه وهو يخطو صوبي. فجمّدته سائلة:

«هل كنت جنديّاً في الحرب؟ هل... لا، كنت ضابطًا؟».

وسألته عجلى، بعد أن نضجت فجأة أفكاري السياسيَّة:

«هل قتلت كثيراً من الصهاينة؟».

ذعر. هل كان ينتظر منّي اقتراحًا بالابتعاد عن هذا الركن: ساحة حرب. وعن هؤلاء الشبّان: نسيج يحطمه؟ هل كان يتأهّب لدعوتي إلى الذوبان في تلك الرقصة المجنونة؟

تقلّص على الحائط كتلة خوف، تهتزّ، وعلت قهقهات سائر الشبّان. وتصنع بعضهم تقطيبة حزينة. وأجاب أحدهم مازحًا:

«لن يغمى عليك، على الأقلّ، إن هو سقى الأرض بدماء الأوغاد!».

عندها، ضغطتْ يد ثائرة على ذراعي، وحرُكتني، وأبعدتني عن الحلقة، وأدخلتني البهو الشاسع النشوان، فحاولت التملُّص من قبضة يده، فإذا أنا العصفور النحيل. وإذا هو النسر المفترس!

ماذا يطلب منّي هذا الضابط الخافق؟ أسقطني من يده على مقعد، وارتفع أمامي يستجوب الزرّ المقفل والأصابع المحتجبة، والشعر المتمرّد!

البلاط تحت قدميّ وقدميه، يرقص...

والمقعد يرقص، والجدار يرقص، والثريا المتدلّية فوق الرؤوس، وأطر الصور ترقص. لن أتحرّك.

الأسطوانة تعربد، تعربد، وتعزل في القاعة ستاراً بين كل راقصين استلّت خيوطه من كلّ ثوب ملّ التهدّل على خصر، ومن كلّ قميص أبيض تحرّر من السترة السوداء. فجمعت أطراف ثوبي وتفقّدتُ الزرّ المقيّد عند الرقبة. وغرزت أصابعي، أجمع أشتات الخصلات في شعري، التي بدأت تستعدّ للرقص...

وتحرّك الشابّ المرتفع أمامي، وانحنى قليلاً. لا، لن يدعوني إلى فكّ أجزاء جسدي، وإخفاء نهد على صدر نجم. وتعليق قدم على غصن شجرة، وإلصاق الفم، على شفتي القمر، ومزج النشوة في تراطم نيران جهنم، وإنقاذ أمنية مصلوبة على خشبة وعود فاضلة تنخرها السنون.

«هنا غوغاء...».

قصدت بملاحظتي هذه صدّ هجمات اللحن المتتابعة، الدامية على كلّ وعيي وكلّ أحاسيسي.

وغمغم، بعد أن بلورته ملاحظتي كتلة خوف، وألقته على المقعد بجانبي ينازع عواصف ذكريات:

«وهناك غوغاء. هناك... هناك، دماء، ووحول، وموسيقى جامحة، وأصوات تستغيث، ووجوه تشتهي أكل لحومهم!».

وواساني:

«لا تخافي، كنت أشتهي تمزيق لحومهم بهذه الأسنان».

وتآلفت الأنغام العلوية، وتجمّعت، تنحصر في وجهه. وضعتُ أنا في تكشيرته المرعبة، فلاحت لي أسنانه لؤلؤيّة بيضاء صفّر التبغ جوانب الاثنتين الأماميتين منها.

إنّه حيوان في تكشيرته. جبّار. مخيف. لقد أخافني: في أسنانه ينابيع دماء، وعلى شفتيه تناثرت قطع لحم عفن فغل فيها الدود: لحم العدو، أيّ عدو نتصوّره!

أبعدتُ نظري عن فمه، فأدرك مدى أهمّيّة كلماته ووقعها في نفسي. وعرف أنّني خائفة، لأنّني مثله بدأت أرتجف، فتصنّع ضحكة سقيمة، وتلألأت من جديد أسنانه، بيضاء كأسنان طفل في السادسة، ومدّدت يدي أودّ جرف السقم الباسم فوق العفن... فأبعد صدره، وعصر يدي بيده الضخمة، وتركها فاقدة الحركة بجانبي، وخبأ صدره باليد الضخمة، وقال:

«لا. يؤلمني هنا!»

ومات اللحن فجأة، وسكتت همهمة الأقدام. ونادى بعض الحضور بإعادة عزف اللحن، فأصيبت الأسطوانة بنوبة جنونها. وإذا الشاب جامد بجانبي، يضغط بيده على صدره و«هنا» جامدة أيضًا على شفتيه، يدخل منها الهواء إلى فمه بضيق.

ماذا يوجد هنا؟ أيدلّني على موضع القلب؟ أيغازلني بالطريقة المتّبعة، الوضيعة؟ ثم من هو هذا الرجل: ضابط اشترك في حملة تحرّريّة

فاشلة. ما شأني به؟ ها هو القيد الشفّاف يلتفّ حولي: هل هو الآن محروم؟ هل بهاء أيضًا محروم، يشكو جوعه إلى امرأة؟

همست بدلال، أقصد إبعاده عنّي:

«تشتّتني هذه الموسيقى. بضاعة طازجة من الغرب...».

فلم يظهر على وجهه أنّه سمع ما قلت، وتابع:

«سأرجع إلى هناك...».

أخفيت انفعالي بضحكة مرحة، فأمرني زاجرًا:

«لا تضحكي! أرجوك، لا تضحكي! ضحكتك مثيرة، فيها بُحة فجة تقتات من جسدي! إنّها تدعوني إلى...»

انتفضت استفسره:

«إلى ماذا؟».

«إلى تمزيق شفتيك!».

ونبتتْ في الفراغ الراقص، ما بين شفتي وشفتيه، مسكبة أقحوان عبقة. أين الاشمئزاز؟ إنّها الموسيقى، داست القذائف المنطلقة من الأسطوانة السوداء على كلّ ما يعيق انطلاقها: فانتزعتُ الزرّ عن الرقبة، انتشل الصدر من كهف التنسّك!

وحلّ الشاب، بجانبي، ربطة عنقه!

في عواء الأفواه الدامي، في عجلة الأقدام المحرقة، في جراحات الكبت التي تفتّحت في قلب جراحات، أغمضت عينيّ، أتّكئ على

همهمة حزينة انسابت يومًا من شفتي بهاء... تاركةً جسدي شريدًا يقاوم اللهب الملحّ، المستفزّ، في ضيق تنفس الشابّ!

ومثلي هو، أطبق جفنيه، وأراح الرأس المنهوك على حافة المقعد، فاختطفه اللحن، وحلّق به في رقصة خليعة، أنهكته أكثر، وأكثر...

حيث اتّكأت: دعوة إلى السجود، والخنوع!

حيث بقي جسدي: أرغام على العناد، والتحدّي والتحطيم!.

وحيث غاب الشاب: سلطة مطلقة تعاقب. فعليه إذن أن يكون حذرًا في حفر الثقوب على رقبة، وصدر، ورأس كلّ عدوّ مسخ!

تمتمت، في خشوعي: «أنت بطل!»

فانتفض، في تأهُّبه للضغط على الزناد: «ماذا؟».

وأجبته، في مقاومة جسدي للقذائف الهائجة: «لماذا لا تلبس ثياب الضبّاط؟».

ففرك يديه، وضحك. ضحك بانفعال يثير بدوره حنقي وسخر مجيبًا:

«أنت أيضاً تغريك الثياب العسكريَّة الزاهية؟» وضحك... ضحك... يجمع النظرات في ركننا، فاستنتجت هذه منتصرة: «في الركن انسجام!».

انسجام... انسجـ...

والتهمت الأنغام الكاسرة الحاجز الجديد.

ثم ارتدّت مقهورة، تاركة في ركننا أشلاء إيقاع منتظم: صدى نشيد حماسي يلفح ذاكرة الشابّ المستغرق في هذيانه الواعي:

«كان عالم طفولتي المثالي حزامًا جلديًّا يحاصر خصري، ويرقص فوق الحزام مسدّس ذكي، ماهر. كالأسد هو في عرينه، يتربّص كلّ مزاحم على السلطة، كلّ سالب للحقّ فيرديه بلمحة عين عبرة مشوّهة، تختطف أنفاس كلّ غاصب، سافل.

كانت الحروف الهجائيّة في أوّل كتاب اشتريته، تصاميم مختلفة لبذلة ضابط واحد قهّار. وكان كأس الحليب الذي أكره جرعه في الصباح نقطة دم، تنمّي جسد من سيلبس البذلة الفخمة. وكانت لعبي التي أملكها تثير في أخي شهوة التسلُّط والغزو، فيسرقها... فلا أنتبه إلى اختفائها، ولا أكترث حتى لتأرجحها بعد أيّام، بين يديه. لماذا؟».

وردّدت بعده: «لماذا؟ لماذا؟».

«لأنّني أدركت أنّه يخاف السطو على المسدّس الصغير الأحمر، وهو الذي ينام بيني وبينه في فراش واحد. ولاحقتني البذلة الزاهية... البذلة الزاهية...، البذلة...».

أغضبتني أحلامه، حين تجسّمت أمامي أحلام بهاء ترقص بين سقف القاعة الراقص وأرضها الراقصة: كلّهم يعيشون في الأحلام، كلّهم في اليقظة يحلمون.

جمعت نظراتي عن خصره، وأرسلتها إلى الأسطوانة السوداء، ثم سحبت القفّازات: ساجنة أناملي... فظلّ هو بعيدًا، يتحسّس خطورة الحملة التي جهّزتها ضدّه.

وما ماجت على فمه دعوة خجلة إلى مراقصته حتى عاودني شعور الاشمئزاز.

وخلع سترته... فجمعت جسدي، وكدَّسته في زاوية المقعد.

فصُعق:

«أنت. أنت أيضًا لا ترينني رجلاً، بدون بذلة زاهية؟ أنا. أنا لست رجلاً؟ أعرف. أعرف أنَّه يجب، يجب أن ألبس ثياب الضبّاط لتكتمل رجولتي...».

وقفت. فانقضَّ على ذراعي مستغيثًا:

«خمس دقائق... أو عشر دقائق فقط... فقط... وأعود إليك رجلاً».

قذفت يدي على صدره، أبعده عنّي، فتراخى المقعد يتأوَّه:

«لا يؤلمني هنا!».

وفي جمود دهشتي. وفي إغماضة عينيه، يتَّقي انسكاب البؤس من جبهته فيهما، انهمكت يداه في فتح قميصه الأبيض وحسره عن ندبة حمراء، تنتفض!

«حدِّقي هنا... هنا...».

لا، لم أحدِّق قطّ، إنَّما استقرَّيت للحظات في إثر الجرح الحيّ. وأقفلت ضربات الموسيقى في وجهي كلّ منفذ للتراجع، وإذا أنا أتوغَّل في حرش الشعيرات السوداء المتناثرة حول الندبة. وإذا الندبة بحيرة قيح في موسم الجفاف، وإذا أقدام الراقصين صواريخ منطلقة عاجزة عن

تهديم السقف. وإذا آهات الشابّ تفرض عليّ، بل تهدّدني بالعقاب إن أنا لم أنزع قطعة لحم سليمة من صدري، وألصقها فوق الجرح: فلا يتأوّه!

وأسرع متكبِّرًا، ينشر يده على الجرح!

وأسرع، أكثر وأكثر، مخذولاً يحشر يده الأخرى بجانب يدي التي يلتفّ حول معصمها سوار فضّيّ، يلمع.

عندها، حدَّقت فقط في وجهه...

على وجهه ظلال قارورة عطر، وثوب مخمليّ، وكأس طافحة، وحذاء مفضفض.

حرَّكت يدي، أنوي إبعادها عن يده، فتمسَّكت أصابعه بالسوار الفضّيّ، وجمَّدتها.

وبان اللون في عينيه، وإذا هو يستحوذ منّي عطفًا.

عطفًا؟ والموسيقى تحتّني، وتحتّني على فرم الجسد وغليه في أتّون العبير حولي.

فشرح:

«جُرحت في إحدى المعارك واستشرت أحد الأطباء، فأجرى لي علاجًا سريعًا، لم يقتل فكرة الألم في نفسي. الجرح يؤلمني. يؤلمني. يؤلمني...».

وجرّب تحطيم السوار انتقامًا على زندي. لكن سرعان ما لانت قبضته وناغت المعدن اللمّاع، وأكمل:

« يقلقني هذا الجرح. إنَّه يقتلني. حاولت نزعه: شققته برأس سكين حادّ، فارتطم رأس السكين بشيء صلب يتوارى في قعر حفرة الدم. إنَّها رصاصة، أليس كذلك؟ ».

في عينيه نار تلتهم الكلمات، والأماني، وقذائف « التشا تشا » و« المامبو » و« الروك أندرول »، وكل عفاريت الدنيا.

وفي محاولتي إخماد القذائف، ساعدتها لتكبر، وتقوى، وتدمّر، وأنا أسأله: « كيف جُرحت؟ ».

فضحك، وسررت لنجاحي في تخفيف عذابه، ودفن رأسه بين أصابع يديه يهمل سؤالي. ثم غمغم: « جُرحت في المعركة. والآن حاولت نزع الجرح عن جسدي، فحشوت المسدس يومًا برصاصتين وتساءلت: كيف سأنزعه؟ أأطلق عليه النار، فيطير عن كتفي؟ ».

وتابع قائلاً:

« لا، لم ترقني الفكرة، لأنَّ الرصاصة إذا تعمَّقت واخترقت الرئتين قتلتني، وأنا لا أريد أن أموت. أريد نزع الجرح فقط. وأدنيت المعدن من جرحي، أقوم بتجربة أوَّليَّة. فهدأ الجرح، وسكن الألم فيه. كيف هدأ؟ لماذا سكن؟ لقد تغلغلت البرودة فيه، فانطفأ اللهيب وقبضت على مفتاح السرّ... ».

هزَّ يدي بعنف، يقبض مختالاً على السوار الفضّيّ، فتأوَّهتُ وهو يضحك متابعًا: « ومنذ ذلك الحين وأنا أداوي ألمي بالبرودة. ولا أستعمل غير المسدس، ومسدس محشو برصاصتين ».

واستعطفني: «أرجوك!».

حملقتُ في صدره، ماذا يريد؟

«أبتهل إليك!».

ارتجفت.

«لا أحمل الآن مسدّسًا، اخلعي سوارك الفضّيّ هذا. هيا، اخلعيه، قرِّبيه من الجرح».

شددت يدي، أحاول التملُّص من يده. فألحّ:

«أنت أيقظت الألم النائم فيه، لماذا سألتني عن المعركة؟ هيّا قرِّبي يدك من صدري».

يرعبني هذا الجبّار. مددت يدي، والأنغام الوحشة تعضّ إصبعًا، وتأكل ظفرًا، وتقطع شرايين، ثم تربطها بأعناق كلّ الحاضرين. وإذا طلبه يخرج من درب الأنغام أحمر يشوي، وإذا أصابعي قوالب ثلج... فزمجر الضابط الخافق:

«أصابعك!».

ومررت بأصابعي على الجرح، فهدّدني: «عجّلي! عجّلي!».

هل آلمته؟ هل عجزت عن لمسه؟ هل ضلَّت قوالب الثلج طريقها إلى ركم الجمر المهملة في الحرش الأسود؟ وهل في الحقيقة كان جرحه يتلظّى، وتتصاعد منه سحائب دخان؟

لا أدري. لا أدري، كل ما أعيه أنَّه أفرغ ألمه في معصمي وغرز جوانب السوار باللحم، فتأوّهت، وأنَنْت، وأغمضت عينيّ، ثمّ فتحتهما، لأراه يبتعد...

فانسحبت من القاعة إلى السيّارة، إلى البيت، تاركة خلفي أمّي وأختي والأسطوانة المجنونة، وتلاحقني لوحات حمراء تلمع في النور، وجثّة قرصان يهوديّ، وبذلة ضابط زاهية، وخيم تعجّ بالأطفال!

لم تنم يدي. ولم تتركني أصغي لتوبيخ أمّي القاسي، وسخريّة أختي التافهة.

يدي...

يدي ساحة جريمة كبرى، تحوم حولها نظرات روّاد العمّ سام متفرّجة، دارسة، مستفهمة، كسيرة.

تؤلمني هذه المعالم الزرقاء فيها. وتبعث هذه الخطوط الحمراء أمامي على المائدة: قبّعة منصوبة على صولجان زمرّد، وحذاء جندي عادي، ضائع في حقل دماء موحل، وراية ممزّقة مدفونة في مزبلة خيانة دوليّة فاحشة!

أمّا بهاء...

فبهاء يقسو في تجنّيه على آمالي الشادية، في يوم هجرانه الرابع.

أشتاق، أنا، إلى الانجراف في اندفاعات خواطره، وأسمو عن إصغائي الأبله، لأحاديث المنفضة والكرسي ولغط الروّاد.

فإلى متى سأعود. وأعود. وأعود. وأعود... إلى هذا المكان لأنتظر هذا الشخص، ولأفني معه دقائق عقيمة النتائج، ثمَّ أتركه لأنزوي في البيت، أطرّز عودة إليه عبقة، في اليوم التالي، وعودة أعبق، وأعبق للأيّام الآتية الباقية؟

هل أنا أعمل؟ هل أملأ الفراغ؟ هل أهيِّئ مستقبلاً؟

وتبسّمت للأسئلة، وليدة الوجع المبرّح في يدي، فانزاحت عن عينيَّ سحابة هموم داكنة، وامتصصت قطرات من القدح المنتظر.

القدح ينتظر صابراً.

نقدت الكرسون النحيل نصف ليرة، واندفعت كعاصفة هوجاء أصطدم بالمثقّفين المتسكّعين على أرصفة الشارع الجامعي.

أنا اليوم أرهب الوقوف بين الجدر المتماسكة، لهذا لن أعود باكرة إلى بيتنا. ونبتت في رأسي فكرة مسلّية: أن أراقب عيون الناس. وراقبت الزرقاء منها. والسوداء والعسليّة... أفتِّش عن الخوف، والملل، والاستعباد.. فإذا هي كلّها تلمع في أنوار ثقة فيّاضة. عندها، انتابتني رغبة جنونيَّة: هي أن أوقف المارّة على جانبي الطريق، أجاذبهم حديثًا بسيطًا، فأشعر بأنَّني منهم، وبأنَّهم يتحسَّسون كثافة وجودي.

سأستوقف هذه المرأة.

لكن، توقَّفت قلقة: هل أعطيت الكرسون ثمن قدح القهوة؟ أعطيته أم لا؟ أقفلت باب غرفتي أم لا؟ أستوقف هذه المرأة أم؟

تؤلمني يدي. ثقلت أجفاني. جررت جسدي إلى الفراش.

إلى متى سأعود، وأعود إلى العمّ سام، وأرضح لمشيئة بهاء في حضوره، وتغيُّبه؟

سبق لي أن قاومت مشيئة إله:

كان ذلك منذ زمن بعيد... بعيد...

كنت ألعب كعادتي مع رفاقي الصغار في الحديقة. وبالتفاتة خاطفة رأيت حرذونًا يتمشّى على مهل، عند رأس الحائط القريب. كان الفصل حارًّا، وكانت الشمس لا تجمع حرارتها عن أرض الحديقة إلاّ لتختفي وتنام في حضن البحر العميق.

حين رأيت الحرذون تمنَّيت أن أدخل في عينيه الزجاجتين عوداً سميكًا. وسرعان ما تمنَّيت أكثر من ذلك: تمنَّيت قتل الحرذون.

أسرعت، والتقطت حجراً كبيراً، وقلت للحيوان:

«روحك بيدي، أيُّها التافه. أنا قادرة على إبادتك من الوجود. وأنا وحدي التي تملك حقّ العفو عنك، وتركك حرًّا».

وقبل أن أنفِّذ حكمي، سألت صديقي الصغير:

«ألديك اعتراض على قتل هذا المنحوس؟».

فأجابني خائفاً:

«لماذا تقتلينه؟ حرام. لا ترمي الحجر قبل أن أغمض عينيّ. ستذهبين إلى جهنّم، وسيسحقك حرذون بحجر، يوم الحساب».

أغضبني الصغير، فضربته بالحجر على رأسه، فغاص وجهه بالدم، وهربت...

وعدت في الأيَّام الباقية أراقب الحراذين وحيدة، وألاحقها... فأعفو عنها، أو أقتلها. وأمست الحديقة مملكتي.

ودعوت مرَّة والدتي بعد جملة سمعتها تختتم بها حادثة انتحار قصَّتها عليها أختي: «هذا كُتب لها». هذا كُتب لها... وله، ولهم. أجل، دعوتها إِلى الحديقة، واقتربت من الحرذون السجين في القفص، وسألتها:

«هل أقتل هذا الحيوان؟ أم أتركه حرًّا؟».

فهجمت أمِّي على يدي، صارخة:

«أنت مجرمة... مجرمة».

وشدَّتني تحاول إبعادي عن طريق الحيوان، لكنَّني تملَّصت من يدها، قائلة:

«أنا حرَّة.في قتل هذا الحيوان أو تركه حيًّا».

وبعد صفعة على فمي، سحبتني خلفها إِلى البيت وحرمتني أسابيع من إدارة الحكم في مملكتي.

من هو بهاء؟

هل هو قدري؟

ـ ٤ ـ

رفعت الشرشف الحريري عن صدري، إلى رقبتي، إلى وجهي، وأغمضت عينيّ أوشّي في الظلمة ما بين المخدّة ووجهي والشرشف، مسرح لقاء زاهٍ:

سيكون كلّ واحد من روّاد المقهى منهمكًا بإتمام مهمّة. فهذا شابّ يقرأ جريدة الصباح، وأمامه قدح قهوة، وفي فمه سيجارة. الكرسون، كعادته، يحوم حول كلّ مائدة. شابّ آخر، يسند رأسه على يده، يحملق بالمارّة، ويتنهّد عند مرور كلّ فتاة. أما مائدتي ومائدة بهاء المثلّثة الشكل الحمراء، فسأحرص على أن آمر الصبيّ الصغير بتلميعها، وستكون المنفضة في الوسط. وسيبيّن لي بهاء اليوم قسوة انفراده في مرضه، ومدى بؤسه في غيابه عنّي... أمّا أنا فسأبوح له... بماذا؟

وهدمت دعائم مسرحي الوهمي دقّات حادّة متتابعة، أعلن المذيع بعدها: «إليكم موجز الأنباء».

ليُخرس والدي هذا المذياع.

لكنَّ الساعة الآن هي الثامنة والنصف، وقد آن لي أن أغادر هذا الفراش. كما أنَّه يحقّ لوالدي، وهو الذي يملك هذ البيت، وهذا المذياع، وكلّ تلك الثروة، يحقّ له أن يرفع صوت المذياع وأن يصغي له أيَّة ساعة شاء.

وأنا لست أكثر من ضيفة في هذه الغرفة، لاجئة فيها إلى حين.

أمّا المذيع، هذا الصوت الرقراق، فلن يخرس، لأنه يؤدّي وظيفة حكوميَّة لقاء أجر معيَّن.

لتنصبَّ اللعنة على رأس والدي، ورأس المذيع، ورؤوس كلّ المستعمرين!

جلست على حافَة السرير، ورطَّبت معصمي بشفتيّ أطفئ لهيب الألم تحت السوار الفضّيّ. وتركت سريري وتقدَّمت من النافذة، فانعكست صورتي: كومة مشاكل باهتة في زجاج النافذة. وهرولت إلى الحمّام أرتدي ثيابي: ونزلت إلى الشارع أتنشَّق ضوءاً أبهج، وسكونًا أعمق، وحريَّة أرحب. أكره بيتنا. أطمح إلى هجره إلى الأبد.

أعجز في هذا البيت عن تذوُّق الغنى، كما أنَّني لا أتلمَّس أيَّة عاطفة تربطني بسكّانه. عبثًا أحاول كسب ودّهم، أو الانسجام العادي المألوف بين أفراد الأسرة الواحدة. لستُ منهم. أمقتهم.

عزائي أنّني أحبّ.

أحبّ؟ لا. أنا أحنّ إلى الضياع في تراطم الصراع، في حياة بهاء: فآخذ، وأعطي... في حياة بهاء وسائل هامّة تتيح لي فرصة أخلق فيها عناصر حياتيّة مبتكرة. وأنا التي تملك عطاءً وافرًا، مخزونًا.

وفي المقهى:

لم يكن هناك شابّ يقرأ صحيفة ويجرع القهوة. هذا الشابّ الذي يدير لي ظهره يقرأ الصحيفة فقط. أما الذي كان يجب أن يتنهّد عند مرور إحدى الفتيات، فلم يحضر بعد. ومددت يدي، ذات الزند المجروح، واستقرّيت عندها، محاطة بنتائج معطيات شتّى:

جرح حيّ، في صدر ضابط عربيّ.

حنين يتحرّك، وينمو، في جوف جارتنا اليهوديّة الوسخة.

سوار مطعّج في يدي.

منفضة فارغة أمامي.

ورأيت يده... تجثم يد بهاء على كلّ المائدة، فخفق قلبي هلعًا لمرآها. وكدت أنحني وألمسها بشفتيّ وأخشع صاغرة عليها، لو لم يحرّكها ويأمرني بعنف:

«هيا، انزعي لي ورقة من مفكّرتك. أسرعي، سأطيّر بضع كلمات لأخي في العراق. هيا، الزميل ينتظر».

هنيهات عشتها في أذلّ نزاع: بين وجهه الأصفر الذابل، وبين المفكّرة الخضراء في قلب الحقيبة. بين الإسراع في تلبيته، وبين ضرورة التمرُّد على إرغامه الجائر. بين الابتسام له، والترحيب به، وبدء البوح، وبين العبوس، والترفُّع، والجفاء.

وقضيت على أوّل دمعة إخفاق في مهدها. ونزعت له ورقة بيضاء، وورقة ثانية. فسطّر على الأولى «أنجح وسيلة هي حثّ العلماء على تزعُّم الثورة ـ مظاهرة سلميّة أوّلاً». وعرك الورقة الثانية بقبضة يده، فآمنت عندها أنَّ يده قادرة على إيلام جسدي، في هدهدة ناعمة.

لم أرفع نظري عن حذائه المفتوق، وهو يودّع حامل القصاصة الخطيرة: هل هذه هي إرادته، أم إرادة الحزب؟ هل يجني الشعب نتائجها، أم سيستغلّها المستعمرون الشرقيّون؟

«لماذا لا ترحِّبين بي؟».

لم أرفع نظري عن حذائه...

«ألم توحشك غيبتي؟ ألم تسرحي بالفكر، عندما كنت ترمين رأسك على الوسادة، وتحلّقين إليّ متسائلة: أين هو الآن، هل بجانبه امرأة تعدّ له قدح شاي، وتناوله علبة السجاير، وترتِّب له الفراش؟».

إنَّه يستمدّ منّي، ماذا يستمدّ؟ أكلّهم هكذا يستمدُّون بلهجة الأمر، وفي أوقات فراغهم؟

لم أرفع نظري عن الحذاء المفتوق. تشدّني إلى حذائه المفتوق مبادئ اشتراكية سخيفة، يطبِّقها. كما تشدّني إليه كومة ليرات في

خزانة والدي، ملتصقة بعضها ببعض على شكل أحذية فاخرة، أحسن ما استوردته محلاّت «الحذاء الأحمر» و«هاشم» من أوروبا. ويشدّني أكثر وأكثر إلى حذائه ضعف يلحّ في الظهور، ليخفق في كلمة غزل، وليسري في انسكاب عبرات عتاب، وليشدو في عناق راحتين.

وإذا حذاؤه يتحرَّك، ويختبئ في الزاوية بين أرجل الكرسي.

وإذا في صوته انكسار ثائر، وهو يسألني ضاحكًا:

«أنت تراقبين حذائي؟ أنا لا أملك سواه. أمر مضحك، أليس كذلك؟ رويدك، ألا يرضيك أنَّ رئيس وزرائنا ينتعل أفخم أحذية تنتجها مصانع بريطانيا؟ ألا يسيل لعابك شهوة للزواج من وليّ العهد الأنيق عندنا، فيقطف لك وله، كلّ سنة، أكياس دنانير، من أذرع الفلاّحين وصدورهم، فيزرعها على شاطئ الريفيرا وفي ملاهي باريس وفنادق المملكة العجوزة؟».

وسكنت على وجهه خائقة، ليِّنة، مستعطفة. وأرخى أجفانه تهيُّبًا، في سفور الاستجابة على شفتيّ. وعضضت شفتيّ، أؤجِّل دعوتهما. ولبثت صامتة وجلى. ولبث صامتًا متهيِّبًا.

ونقل نظرات العجب، بين وجهي وزندي المتألِّم مستفهمًا فلم أجبه، ولم يسألني عن سبب ازرقاق اللحم تحت السوار الفضِّيّ. وأفهمني بنظرة قاسية أنَّه سيترفَّع عن مداواة أذى إنسان آخر!

انتفضت العروق الزرقاء الناتئة على ظهر يدي. وهاجت الأصابع تنقر جلد المائدة الأحمر متعمِّدة تمزيقه. وانجرفت أصابع بهاء معها، تفرغ نقمة مكبوتة.

يرى بهاء على زندي الأزرق... ماذا يرى؟ يرى يداً خشنة تمتدّ في الظلام. تمتدّ في النور أم في الظلام؟ المهمّ أنّها تمتدّ، تطلقها يقظة أمنية مدنّسة على شفتين غليظتين كريهتين.

وجنّ جنون الخصلات المتمرّدة على الرأس الشامخ المعطّر، وجنّ جنون اليد الخشنة الرابضة على الزند، تهدّد. وجنّ جنون اليقظة المكتملة، في نحيبها من الشفتين الغليظتين تطلب غذاء، وارتدّ الصدر المعطّر مشمئزًّا، والتفّ الخصر هاربًا. وما استدارت الساقان حتى... حتى رعدت اليد الخشنة، وعضّت الزند...

وحمل نظراته على أشلاء عناده، يتودّد إليّ، منقّبًا تحت القصر الأحمر على شفتيّ، عن لون أزرق!

وكنت أنا، مثله، مأخوذة بتتبّع الموكب الزاحف على زندي الأزرق، ماذا أرى؟

وفجأة همهم اللحن، فخبّأت زندي تحت الحقيبة.

دبّ الارتخاء في أوصالي، يدير خواطري في أفلاك معتمة، أبدعتها الهمهمة: عليّ أن أجمع أعضاء جسدي في قالب مستدير واحد، أصهر ذروتي النهدين في الهوّة المنحدرة منهما لتتساوى على صدري الذرى والأودية في ارتفاعها. وألصق الفخذ بالفخذ، والساق بالساق، والقدم بالقدم، معرقلة الحركة فيها. أربط العين باللسان، واللسان بالأذن. ثم أترك الأذن معزفًا لكلّ متفنّن مبتدئ.

صمت، فزُلزل فلك في خاطري، وامّحى أثره.

ثم بُعثتُ في فلك آخر، وهو يستأنف تصفير اللحن الشعبيّ:

غلّفي الجسد، لا تخالفي مشيئتي. احكمي ربط الخمار الأسود على رأسك. أسدلي بيني وبينك ستار الجمود. تحمَّلي بربريَّة جبلتي. لا تئنّي تحت صفعات سخريتي. لا، لن تشكيني للإله، لأنَّني أنا وحدي إلهك. والذي تستحلفينني به رحمة، هو إله إلهك.

وتلفتّ إليَّ من عليائه، واللطخات الزرقاء على زندي تتمنَّى لو أعارها لفتة اهتمام بسيطة، وإن تافهة. لكنَّه تجاوز الزند وانحدر إلى الساقين يحنو عليهما وحدهما ويمرح وينثر الابتسامات.

ودبدب الصوت إلى حنجرتي آتيًا من تكتكات المنبِّه الجارحة الغاصَّة في جوانب غرفتي:

«وهل أمضيت الأيَّام الأربعة سجينًا في غرفتك، مريضاً؟».

وحمل بعينيه من ساقي قطعة لحم، رفرفت أجفانه ضيقًا في حملها. وأجاب، وهو يستريح على وجهي المتقلّص:

«أنا أثير شفقتك!».

وصرخ حانقًا:

«أنت لا تكترثين لغيابي، وتمثّلين الآن في حضوري دور المشفقة، المهتمّة، الولهانة».

وقرّب رأسه من وجهي، يهمس في رجائه:

«قولي إنَّك تهتمّين بي. قولي إنَّك قلقة لغيابي. قولي إنَّك تحتاجين إلى رجل يقاسمك متاعب الحياة... قولي... قولي».

طافت حولي خيرات مزهرة، ونضجت في كياني معطيات جمّة، فتأهَّبتُ للبذل والعطاء. أنا لا أرغب في اللحظة استخدام الكلام وسيلة للإثبات. أودّ أن أتمِّم عملاً ملموساً لأحصل على نتيجة إيجابيَّة تبرهن على أنَّني أهتمّ به، وأقلق لغيابه، وأحتاج إليه هو بالذات.

أنا مستعدّة للزحف خلفه إلى غرفة وحيدة، في أعلى سطح بناية في رأس بيروت، أحطِّم المنبِّه على عزلتي الجافّة، فننام في سرير واحد ونجرع القهوة في فنجان واحد ونقرأ في كتاب واحد.

وأضرم النار في طرف ثوب سيجارته. ووقف، فانتشلت حقيبة يدي عن الزند الأزرق لأقف بجانبه، أنفِّذ مهمّتي في مقاسمته... في مقاسمته حتى الوقوف. فأقعدني، بل شلّني توّاً على الكرسي وهو يقول:

«وهل صوَّر لك خيالك الغرير بأنَّني عانيت عذاب حرمان ملحّ؟ وهل تعتقدين أنَّني فكَّرت بك في سهادي، وأوجاعي ووحدتي؟ هل يجب أن يلاحقني دائماً خيالك أنت... أنت؟ من أنت؟ اسمعي، وقفة خاطفة على البرج، في هذا الصباح.. اسمعي، في هذا الصباح، أشبعتْ فيّ كل جوع. أيعجبك هذا؟».

واختفى.

ـ ٥ ـ

سيأتي بهاء...

لمن إذن زيَّنت الأمنيَّات، وعطَّرتها في سهدي وحيدة مع طيفه؟ سألبس تنَورة بيضاء، وسأربطها عند الخصر بحزام أحمر. وسأسطو على عطر أمّي وأنثر خلف أذني شذًا حالمًا. لا، لن أتأخَّر في اندفاعي إليه، سأشقّ طريقي مسرعة، أقطع أسلاك زمامير السيّارات، وأعطِّل زحف الناس البطيء، وأنجز ترديد جمل حلوة. سأصارحه بها: يقلقني غيابك، يعذّبني اختفاؤك الخاطف كلّ مرَّة في المقهى. أعشق حتى الكرسي الذي تستريح عليه، وحتى المنفضة، وحتى قميصك المخطّط. وأحسد، أحسد السيجارة بين شفتيك، وأحقد على أمّك، وعلى عمّك، وعلى... على المرأة التي تشبع حرمانك بلمحة خاطفة، وبليرات قليلة! لا، لا تلمس حقيبة يدي، تغسل بجلدها يدك الملطّخة بأدران النشوة العابرة. لا تمسح عن عينيك قرفًا يطفئهما. لا، لا تنزع

خرقة من قميصي الأبيض، تستر بها عينيك. كن صريحاً، وكن جريئاً، وكن حرًّا.

لن يأتي. فلماذا أعيد ترديد هذه الأفكار؟

سيأتي...

وإن لم يأت كيف أقضي على قشعريرة الاشمئزاز في يدي، في أنامل يدي اليمنى، التي عصرها في يده اليمنى شابّ من أقربائي صادفته على الطريق في اندفاعي إلى لقائه؟ لو لمحته عن بعد لقفزت إلى الرصيف الآخر، وأنا التي صمَّمت على تجاهل كلّ الكائنات في اندفاعي إلى لقائه. صمَّمت، ولن أسمح لأحد بتغيير اتِّجاهي، أو إعاقة تنفيذ مهامّي، أو تبديل خططي بخطط... صمَّمت، لكنَّ الشَّاب تعلَّق فجأة بيدي وعصرها فشذرته بنظرة ناقمة، وانسحبت بانفعال، وتركته مشدوهاً، وابتعدت. المهمّ أنَّه استوقفني، وسكب في عظامي رعدة ملتهبة. فقرَّبتها من القدح البارد، ثم رفعت القدح، وسكبت على أناملي مياهاً مثلَّجة، فانطفأ اللهب وتخدَّرت الرجفة.

سيأتي، وسيشلّ حركة عيني الرجل الأصلع، الذي يشغل مائدة قريبة.

فهذا الرجل، منذ جئت، يذبّل لي أجفانه، وينحت لي على شفتيه تماثيل ابتسامات عارية. حتى الكرسون النحيل غضب لحركاته المنحطّة. ودارت في رأسه اقتراحات صائبة: لو كان صاحب المقهى لرمى هذا الوقح تحت عجلات الترام في الشارع. لكنَّ الكرسون النحيل

موظَف بسيط في المقهى، وله أولاد يعمل دائبًا لإعداد مستقبلهم. ولكنّني أنا لا أملك حقّ الاختيار بين تركي المقهى، وبين بقائي فيه: مهمّتي الآن انتظار بهاء... كما يقوم بهاء بمهمّة الطالب والمتحزّب. وكما ينفّذ الكرسون أوامر الروّاد. وكما يمدّ المتسوّل يده للمارّة. وكما يبني العمّال العمارة الفخمة. وكما يتربّع رئيس المؤسّسة على مقعده الشاسع. وكما يأخذ الأصلع قسطًا من الراحة، بعد عمل مضنٍ. وتلفتّ، حين رحب الكرسون ببهاء على الباب بضحكة مستبشرة، وبلهجة انتصار، وبصلاة خافتة، يمجّد فيها إلهًا يفرج الضيق، ويبدّد الظلام، وينتشل الإنسان من مهاوٍ خطرة!

لبث بهاء لحظات بجانب الباب، ينقل نظراته بيني وبين الكرسون، وبين الروّاد، ثم شدّ على يد الكرسون يسأله عن صحّته، وعن أولاده، وعن عمله. ثم مشى بجانبه إلى مائدتي. ولم يبتعد النحيل إلاّ حين اطمأنّ على راحتي، وبهجتي، ونجاتي.

تبخّرت الوجوه حولي، وفتحت فمي أتهيّأ للإنشاد، فأعاد بهاء قوالب الوجوه إلى أجساد أصحابها، وأطبق شفتيّ، وابتزّ من عيني تردّدًا، وعدم ثقة، عدم ثقة بنفسي. ترى هل أقفلت الباب أم لا؟ هل ألبس تنّورتي البيضاء أم لا؟ هل... أم... هل هو الذي يقول:

«لماذا أنت هنا؟».

وهزّزت برأسي أسأله:

«وأين يجب أن أكون؟».

فازداد لون عينيه المبهم عمقًا وغرابة. وشاهدت في عينيه المكان الذي يريدني أن أكون فيه: في بيت بناه والده بظلال شجيرات النخيل، حيث لا تدنّسني نظرات رجال غرباء. حيث لا يُسمح للمرأة بمصافحة الرجل، لأنَّ التي تسمح لغير حلالها بلمس يدها، تسمح له بعد ذلك بلمس أيَّة ناحية أخرى في جسدها. حيث لا أغادر البيت بصحبة زمرة من النساء، فأنزلق في الدروب الضيِّقة، تتكسَّر خيوط الشمس مهزومة على عباءتي الفضفاضة، وتتكسَّر أيضًا عليها نظرات الرجال.

أغمض بهاء عينيه، وما فتحهما حتى امَّحت فيهما المشاهد، وظهرت في زواياهما أطياف غضب تعب. فأشعل سيجارة، ونفث دخانها في وجهي، كأنَّه يتمنّى أن يسدل بيني وبين سائر الرجال في المقهى ستارًا يقيني فضول نظراتهم. واستفزَّته حركة يدي، أبعد الغيمة الشفَّافة البيضاء عن وجهي، فصارحني:

«أنت تتعمَّدين اصطياد نظرات هؤلاء الأوغاد. أنت، من أجلهم ترتدين هذه الثياب الضيِّقة، وهذه الأحذية الخفيفة، وتقصِّين هذا الشعر، وتلوِّنين هاتين الشفتين. قولي إنَّك مسخت وجه فتاتنا الشرقيَّة، لتبدي فتاة أجنبيَّة ممسوخة. قولي، لماذا تتردَّدين على هذا المكان؟ لماذا لا تحافظين على أنوثتك؟».

الغبيّ! انكمشت خجلة على الكرسي. إنَّه على حقّ: أرخيت طيَّات أكمام قميصي الأزرق. وأنزلت رجلي الموضوعة فوق رجل. وأوقفت قدمًا على الأرض، بجانب قدم. وأقفلت فتحة الصدر. ورفعت

الخصلات التائهة على جبهتي، أعيدها إلى أخواتها الهادئات على قمّة الرأس. وامتصصت عن الشفتين الظلال الحمراء الفوّاحة، وهو يراقب بانتباه عملية الاستجابة لرغبته، وضعفي، وذلّي بين يديه.

لكنّني انتفضت فجأة أقول:

«وهل تريدني أن أقبع في المطبخ، أنتظر طرقات الخاطبات على الباب؟».

فغلت أذناه في احمرارهما، وأرخى نظراته على «نشرة الجامعة» يتوارى هارباً من الإجابة. فتبسَّمت في خجلي: هذه مرَّة أولى يحمل فيها جريدة غير جريدة الحزب. وخنقت الابتسامة، حين بسطها على المائدة، وأمرني:

«تمعّني في صور الفتيات، أولسن جذّابات، مغريات؟ هذه الشقراء ألمانيَّة، أجل، هي الثانية من اليسار، التي تعرض زيًّا للبحر، والتي تذوب في ثوب السهرة. شهدت مساء أمس حفلة عرض للأزياء قدَّمتها طالبات الجامعة. ثمَّ... أتسمعينني؟ ثم أقيمت حفلة راقصة...».

أجل، أجل أنا أصغي لكلّ ما يقول. رأيت الشقراء، ورأيت الأثواب المبتكرة الثمينة. وفهمت الغاية التي يتوخَّاها من استبداله جريدة الحزب بنشرة الطلاّب الأسبوعيَّة. إنَّه يمتحن عواطفي. فلماذا ينهج هذا الجبان سبلاً متعرِّجة للوصول إلى الغاية؟ فليقل لي أنا أحبّك، أو أنا أكرهك. أنا أشتهيك، أو أنا معجب بك. أنا أحترمك، أو أنا أحتقرك...

«قل!»

نطقتُ حرفيْ هذه الكلمة، واستدركت لنفسي: أخاف أن يغضب بهاء، ويهجرني إلى الأبد لأعود إلى الوحدة، والقلق، والفراغ...

وكأنّني جارية بين يدي المأمون، والقصر ينغل بالجواري الراقصات، العازفات، المنشدات، والخمر تدور في أقداح حفرها أشهر فنّاني الفرس، والشعراء يتربَّعون على الوسائد الحريريَّة، يعلكون أبياتًا ماجنة في هزّة بطن، وانتفاضة نهد، ووجه غلام... والمراكب تخطر على صفحة دجلة، تجمع شمل الأحبَّة، في عناق، وآهات!

هو الخليفة العظيم القهّار، وأنا العبدة المطيعة، أموت من كلمة تلوح على وجه سيِّدي: «اجلدوها، واقطعوا رقبتها!» وأحيا من كلمة أخرى تبدو على شفتيه: «خصّصوا لها غرفة تزيِّنها السجاجيد، والقناديل الذهبيَّة، والأحواض الفسيحة، ولتكن على بابها جاريتان لخدمتها».

له السلطة العليا، ولي التنفيذ السريع، دون قيد أو شرط. إذن، لا بأس إن رقص، وشرب، وعربد، وضاجع امرأة. بينما أسهر ليلي وحيدة وفي الظلام، أنقّب عن وسيلة أمسح فيها الحرمان عن جبهته، وعن أجفانه الفاترة. ثم أيَّة علاقة تربطني به لأغار؟ ومتى كانت المرأة تتدخَّل بأمور الرجل، عندنا؟

ليغضب، فسأبكي. لكنَّ الخجل الذي أيقظه يسيطر عليَّ: من العار أن أبكي. من العار أن أثور. من العار أن أدافع عن فكرتي،

وحقّي. من العار... عيب... عيب... عيب... لأنَّني أنثى أجلس في مقهى.

اختطفت النشرة من يده أحاول تمزيقها بعصبيَّة، وبدا لي مبتذلاً كأيّ رجل لم يتعلَّم، ولم يعاشر، ولم يتحزَّب، وهو يقول:

«رويدك، فأنت تقطَعين قلبي، إذا قطَعت هذه الصورة».

وتفيّت كلماتي على وجهه الفائر:

«أنصحك بحفظ هذه الصورة، تحت زجاجة داخل إطار لتنصبها على جدار غرفتك، أو لتمدًّدها بجانبك على السرير!»

وأثقلت الفكرة شفتيه بالوجل ثم بالتذلّل. وارتفع الذلّ متشبّعًا في أنفه، إلى أجفانه، إلى عينيه. وانحدر إلى يديه: هل هو يغطّي جدران غرفته بصور نساء عاريات؟ هل يستمدّ من الصور لذّة تغنيه عن معاشرة امرأة من لحم ودم؟ وإن هو استمدّ من اللحم والدمّ لذّة، فهل يهاب الاتّصال بامرأة يتوجّها عقل؟

وليتخلّص من ذلّه، همهم اللحن...

فليصمت!

إنَّه يدعوني إلى التعلُّق بحذائه، طالبة منه العفو والمغفرة. أوليس هو إلهًا، إلهي؟ أوليس مغلّفًا جسدي بالقيد الشفّاف مسبّبًا اشمئزازي من سواه، من الرِّجال؟

فليصمت! إنّه يحثّني على العطاء، فماذا يريد؟ أيريد أن أتسلّل إلى غرفته، في وهج نور النهار، لأدقّ المسامير في يديّ، ورجليّ، وما بين نهديّ، لأصلب جسدي على الحائط مكان الصورة؟

صمت. فتبسّمت أواسيه بابتسامة. فتبسّم بدوره شارحًا:

«هكذا أريدك، ناعمة دومًا، حكيمة، قويّة، مستسلمة. يسعد الرجل أن تغمره المرأة ببحر ابتسامات ـ وإن كاذبة ـ تبدّد بها همومه ومآسي حياته!».

فكّرت: هذه نظريّة زائفة أخرى يعيش فيها. وهل يجب أن تمثّل المرأة دومًا أدوارًا ملفّقة: تبتسم، وهي تمقت هذا الرجل. تبتسم له، وهي ترهبه. تبتسم له، وهي تعدّ مؤامرة لقتله؟

وأكمل:

«في حفلة الأمس كانت الابتسامات تترامى حولي رخيصة، كريمة، غزيرة، فتمنّيت لو كانت الابتسامات كائنات ملموسة، أحشو بها جيوبي لساعات الجفاف.

«وندمت، في تسرّب الأنغام الكسلى إلى أذني تسكر سمعي، وإلى عينيّ تحرّك فيهما ظمأ للتمتّع بسحر القدر، وإلى أناملي تدعوها إلى مناغاة الأكتاف العارية ـ ندمت على رفضي دعوات متكرّرة إلى سهرات مماثلة طوال ثلاث سنوات. ونويت في غلالة العطر التي عصبت عينيّ أن أعوّض عن بهجة، ومتعة، وفرفشة السنوات الثلاث. وعلّقت على سترتي، ككلّ زملائي الشبّان، ورقة كتب عليها اسمي. وأسندت

ظهري إلى الحائط، أتذوّق على مهل اهتزاز أغصان البان الملوّنة، بين جذوع السنديان القائمة».

ورفع رأسه، وصحّح قائلاً:

«لا، التشبيه مبهم: كانت الفتيات كسعفات بيضاء نضرة بين جذوع نخلات هرمة. ومشت صوبي حسناء، فاحترت أين ألتجئ، فأنا لا أحسن الرقص، إذا ما تواقحت ودعتني إلى رقصة. المعروف أنَّ الرجل يدعو المرأة إلى مشاركته رقصةً ما. إذن، لن تشذّ هذه الصبيّة عن قواعد الإتيكيت. لكنّني رفعت يدي إلى حيث ظهر اسمي واضحًا: ستعرف من أنا، أنا لا أريدها أن تتعرَّف إلى شخصيّتي. أنا جبان، فلتبتعد عنّي!».

وصمت لحظة مفكّرًا، حزينًا، وأكمل:

«ودنت منّي. فالتصقت بالحائط، ثم زحفت عليه وكمنت خلف حلقة صاخبة أسترق النظر إليها. وفجأة، شدّتني بذراعي حسناء غيرها وقدَّمت لي قدحًا من الويسكي فاخضرّ لوني: أنا لم أذق في حياتي طعم المشروبات الروحيّة. كيف سأذوق محرّمًا؟ ثم كيف سأخيّب أمل امرأة، في لطفها، ورقّتها، ومحاولتها الترفيه عنّي؟».

واستفسرتُ مهتمّة:

«وهل شربت القدح؟».

فتباطأ في إجابته:

«تمنَّيت لو حطَمت القدح على وجهها الثمل، لكنَّني رفعته عن يديها النشوانتين وتركت القاعة ساكبًا الشراب الغالي على حافّة الشبّاك، ومزَّقت اسمي، ورجعت إلى غرفتي! لم أكن مهذّبًا، أليس كذلك؟».

فواسيته:

«بل أنت جبّار تعي ما تريد، وأنت جبان لا تعترف بما تريد».

وانتصبت أغادر المقهى، فرفع رأسه إليَّ ذليلاً:

«هل تتكرَّمين فتلقّنينني دروسًا في الرَّقص؟».

فأدرت له ظهري أغمغم:

«لا، فأنا أيضًا لا أحسن الرقص!».

وأظنّه لم يصدِّق أنَّني لا أحسن الرقص. فهو لا يعلم أنَّني أخجل من مراقصته هو، وأنفر من ذراعيْ رجل غريب سواه تخاصرانني.

- ٦ -

أعطيت، أخيراً، وأخذت.

وفيما أنا أعدّ للبائع في محلّ «مارفيلز» عشرين ليرة، وفيما يضع البائع بين ذراعيّ صندوقًا من الكرتون مربوطًا بشريطة حمراء وبيضاء، غمرني شعور بالتفوُّق، وبالأهمِّيَّة، وبالاعتلاء، على كلّ من لم يعدّ ليرات، ومن لم يضع بائع بين ذراعيه لفائف.

واتّسعت عينا والدتي استغرابًا وأنا أطرح الصندوق على سريري، أقطع الشريطة بالمقصّ وأنشر القشّ على الشراشف والبلاط وأخرج منافض للسجاير، وعلبها، وأصفِّفها على طاولة كتبي.

فغمغمت أمي مبتعدة:

«هذه بدل الكتب، أليس كذلك؟ أنت مجنونة».

لا ألوم والدتي، فهي لا تفهم ما معنى بذل المال في سبيل تجسيم وجود شخص ما بجانبنا. ولن تفهمني أمّي أبداً، إن أنا قصدت شرح فكرتي لها. لا بأس إن كنت مجنونة، حين تقيس عقلي بعقلها.

على طرف كل منفضة بيضاء كمان صُبغ باللون البنّيّ والأخضر، ويربض على غطاء العلبة الخاصة لوضع السجاير كمان كبير، أصغيت له طوال الليل في صمته، أنتظر من لحظة إلى لحظة انفلات أنّة، أو فرحة. وفي الصباح ابتسمت لها، وتمنّيت لها يوماً هنيئاً، وقرّبتها من شفتيّ أطبع على أجسامها الباردة قبلات وجد، من فم قرّر أخيراً العطاء... الوفرة في العطاء.

ونقرت الشقراء على باب الحمّام، تسألني بخبث:

«كيف قضت صديقاتك ليلهنّ، وهل أبدعن في العزف؟».

وفي استسلام رأسي لاندفاع المياه الباردة، أجبتها:

«أقفلي فمك، واهتمّي بشؤونك!».

فضربت باب الحمّام بحذائها، وابتعدت تشكوني إلى الأمّ ثم جاءتني دردشتهما، بكلمات متنافرة:

«أجمل ما فيها عيناها. تذرع الشارع... كلّ... صباح. إنّها في شهرها الثامن... أظنّ أنّها تحمل توأمين... مثقلة... زوجها ضخم...».

لففت المنشفة حول جسدي، واندفعت حافية إلى الشرفة أرى اليهوديّة الحامل فإذا هي على الرصيف، تجرّ أردافها العريضة كبطّة

عجوز نتنة. فبصقت، وهبطت بصقتي حمامة بيضاء، ترفرف فوق البطة الهرمة، فابتعدت فورا، حين زجرتني أمي مؤنبة:

«ألا تخجلين من إهانة أختك؟».

«أخجل؟».

وانكمش وجهي في عبوس حائر. أخجل: عليّ أن أخجل لأنّني أنثى أتردّد على مقهى. عليّ أن أخجل لأنّني شبه عارية على الشرفة. عليّ أن أخجل، لفكرة مدنّسة ـ في رأي أمّي وسائر الناس ـ فكرة ولدتها في خاطري اليهوديّة الحامل، أن أعطي، كما تعطي هي.

لم أجب، وظنّت أمّي أنّني مهذّبة أقرّ بغلطي. وانتصبتُ أمام المرآة في غرفتي، أتفقّد هذا الجسد.

ماذا ينقصني عن اليهوديّة، حتى استُغِلّ نضجها، وأزهر، وحمل، وسيعطي ثمرًا ناضجًا بعد أيّام؟

أسقطتُ المنشفة الكبيرة، بين قدمي، واعتليت على ركامها، وقرّبت شفتيّ من أديم المرآة، وأغمضت عينيّ، أرسم صورة لقدّي في مرحلة الاستعداد للعطاء. أنا أريد أن أمارس حقّي. أريد أن أعطي طفلاً، بعد أن فشلت في العمل والدراسة.

لكنّني، أحتاج إلى رجل للحصول على طفل. فهل سأتقيأ مرّات عديدة على حافّة الشبّاك ـ كالزميلة السوريّة ـ في زواجي من رجل غير بهاء، فيكون ذلك ثمنًا للطفل: للعطاء الذي سأصنعه بيدي، بيدي هذه التي شلّتها مصافحة رجل غريب؟

وإن تحقّق حلمي، وكان الطفل لي ولبهاء، فهل سيرضى بتهيئته لمحاربة اليهود مثلاً، بدل مناصرة الشيوعيّة؟

ابتعدت عن المرآة.

وارتميت على السرير: هل أنا أحلم، أحلم في يقظتي؟

أنا في العشرين من عمري، ألم يحن الوقت؟ لو أخبرت أمّي، أو بهاء، لزمجرا: ألا تخجلين؟ ما هذه الأفكار المدنّسة؟

وهرولت تائهة إلى «العمّ سام»، فألفيت بهاء غارقًا بين سطور جريدة الحزب السوداء، فجلست على المقعد بجوار الحائط صامتة، أسترق إلى وجهه نظرات دارسة: لم يردّ على تحيّتي الوجلى، ولم يحمّل نفسه عناء الالتفات إليّ، ولم يختلج في عروق يديه الزرقاوين النافرتين أيّ شعور بالفرح، أو الضيق.

يشعرني صمته بالخجل: من العار أن تتردّد الفتاة على مقهى. من العار أن تعمل مع الرجال. من العار أن تقصّ أكمام ثوبها. من العار ألاّ تغلّف ساقيها بالجوارب السوداء. من العار أن تدخّن. من العار أن تحدّث الرجال!

إنّه يراني كومة عار على الكرسي، ولهذا هو لن يتكلّم.

فليتكلّم، علّه يغسل بعباراته شعور العار عن فكري.

وليستطلع منّي أسباب الحيرة على وجهي، فنبني أنا وهو وكرًا بسيطًا، دافئًا، أحقّق له فيه آماله. وأحقّق فيه التجربة الكبرى: أنا أعطي، إذن: أنا أحيا!

لكنَّه صامت.

فليهمهم لحنه المعتاد، إذا شاء.

إنَّه صامت. فليتحرَّك، وليلطّخ جسدي بالبقع الحمراء والزرقاء، فينقذني من صفعات صمته.

إنَّه صامت.

وكالمعجزة هجمتْ من الشارع إلى المقهى سيِّدة أميركيَّة تجرّ بيدها طفلاً في الثانية من عمره. فشهقت، ونزع بهاء انتباهه عن السطور السوداء، وسألني حانقًا:

«ما بك، أيَّة حيَّة لدغتك؟».

وأشرت إلى الطفل فرحة:

«هذا الطفل مع أمّه، أوَليس هو فرحة حياتها وحياة زوجها؟».

فما كان منه إلاّ أن طوى الصحيفة بين راحتيه حذرًا، كأنَّ جريدة الحزب طفل عمره أسابيع قليلة. وسألني مازحًا:

«وهل تهتمِّين كثيراً بهذه المخلوقات الدخيلة على حياة الأمّ والأب؟».

ليته ظلَّ صامتًا.

وكأنَّه خاف على طراوة جسد الجريدة الأحمر اليانع، فخبَّأها في جيبه، وشرح بقساوة:

«هذه المخلوقات الصغيرة علقات تمتصّ دماء الأبوين لتنمو، هي، وتذوي حياتهما».

خفت!

فقال يثير شفقتي:

«كلّ رجل، في سعيه لربط حياته بحياة امرأة، لن يرضى بأن ينجب هو من لحمه ودمه مزاحمًا يسلبه عطف المرأة، وحنانها، ورعايتها».

وبدأ وجهي يصفرّ. وتسرَّب الاصفرار منّي إليه، فازداد لون عينيه الأحمر حدَّة، وهيجانًا:

«اسمعي! لن تغضبي. سأبيِّن لك مضارّ هذه المخلوقات الطفيليّة: إذا دخل الأب إلى البيت تسرع الأمّ آمرة مهدّدة: لا، أغلق الباب على مهل. لا، لا تحدث ضجّة، الطفل نائم. لا، اخلع حذاءيك، انتبه، الطفل منحرف الصحّة. لا، لا تتركه يولول، هزَّه بين ذراعيك. لا، لا تلمسني، الطفل يناديني، هذا موعد تهيئة حليبه. لا، هيِّئ القهوة بنفسك، واجرعها وحيداً في المطبخ. لا، لن أتمكَّن من مصاحبتك إلى زيارة الأهل، فالأفضل للطفل أن يستريح».

تمنَّيت لو كنتُ أحتضن طفلاً بين يديّ فأرميه جانباً للشيطان، يشقّق السقف بصراخه، وأغمر رأس بهاء بين ذراعيّ وصدري، وأزيل عن جوانب عينيه هذا الذلّ، وهذا الحرمان، وهذا التعطُّش للانسياق في يمّ محبّة عميق، عميق، لا قعر له.

وأحنيت رأسي رهبة، ولم أجب.

وتفقّد بهاء الجريدة في جيبه، ووقف فتعلّقت نظراتي في لمعة حذائه الجديد، ونامت عنده. تحرّكت قدماه، فتمرمغت نظراتي على مواطئهما، تستعطفهما العودة إلى الجلوس، فاستجابتا، وسألني بهاء:

«هل أذهب، أم أبقى؟».

هل أنا أملك بهاء؟ هل عليّ أن أساعده على الاختيار: بين البقاء أو الذهاب، بين إبعاده عن الحزب، أو معاونته في حبك الثورة لتغيير نظام الحكم في بلاده؟ بين تلقينه محبّة الأطفال أو حثّه على مقتهم أكثر وأكثر؟

وأُصبت بعدوى الصمت، فلم أجب.

قال:

«أجيبي!».

في صمتي قرّرت: ليختر بنفسه فيكون حرًّا، وأكون معجبة به.

تحرّك، فمددت يدي مستغيثة:

«لا، لا تذهب!».

فضحك مستخفًّا، يسحق نظراتي على الأرض بحذائه. وابتعد... وراحتاي القاحلتان منشورتان على المائدة: لا بهاء، لا طفل، لا عمل، لا جامعة. مهازل، مهازل، مهازل...

- ٧ -

سحبتني الشقراء إلى الشرفة بينما السمراء تتصفّح مجلة «العلوم» في الصالون. فهمست في أذني حذرة:

«أين تناولت طعام الغداء؟».

أجبتها مستغربة:

«اشتريتُ سندويتش التهمته في الشارع. لماذا؟».

وفي انسحاب اللون الأحمر رويداً، رويداً من وجنتيها ارتجف مبرد الأظافر بين أصابعها فتشبّثت به، ودسّت في أذني تفاصيل المؤامرة التي أعدّها والدي، ساعة الغداء، وهو يحدّق في مكاني الخالي، حول المائدة:

«أنا الذي سأصنع مستقبلها. كفاها استخفافاً بي».

هززت كتفي وحاولت الابتعاد، لأنني أعرف أنّ أختي شريط تسجيل يلتقط كلّ صوت ويوصل كلّ شتيمة، أو مديح أو إطراء، أو نصيحة، إلى صاحبها. لكنّ الأخت شدّتني بخصلات شعري التي بدأت تنمو، وأفهمتني دامعة العينين، أنّ الوالد كان جدّيًّا في سعيه لمجابهتي.

فكّرت: يسعى والدي إلى تحطيم آمالي. وأسعى أنا إلى تحقيق هذه الآمال.

وربّتُّ على كتف الأخت، أواسيها:

«لن يصمد طويلاً في وجهي. لا، أعني أنّه لن يجابهني. وأنت كما ترينه يتحاشى مجادلتي، ومجالستي، والتحدُّث إليّ».

وأسلمتها إلى المبرد، تجمّل به الأصابع التي شوَتها شمس الشاطئ. ودفعت باب غرفة والدتي، واقتربت من سريرها، فارتعدت. وزجرتني:

«أهكذا ستفنين حياتك في الشوارع؟».

وقفت، فأثار إعجابي قميص نوم شفّاف، يتهدّل على جسد بدأ يذوي. وخطرت في رأسي إحدى أفكاري المتجدِّدة: أن ألبس قميصًا شفّافًا، وأنام.

وتابعت أمّي:

«لا تروقنا تصرُّفاتك. ويجب، نعم، يجب أن تعلمي أخيرًا أنّنا قرّرنا...».

أوَليس جسدي أحقّ بالقميص الشفّاف الأبيض، من جسدها هي؟ حين لفظت: قرِّرنا، فتَّشتُ عن عينيها البليدتين، وردَّدتُ بعدها: «قرِّرنا... قرَّرنا».

وأعادت بعدي ترديد الكلمة: «قرَّرنا... قرَّرنا...».

وعجزت، في اكفهرار الغضب المتدفِّق من عينيّ، عن النطق. ورجعت مخذولة تبدِّل موضوع حديثها بعبارة ساخرة:

«لن يرضى بك أيّ رجل، زوجة له».

وتعلَّقتُ بقميص نومها الثمين، وأجبتها باللهجة الساخرة نفسها:

«سيقبلني مرغمًا، وأنا في قميص نوم شفّاف. وسيموت منتحرًا، تحت قدميّ، وأنا عارية».

فأصلحت وقفتها، وانحنت تلتقط «الروب دي شامبر»، وتقدَّمت منِّي، تربط الزنّار على خصرها، فأوقفتها بعيدة:

«وهل صوَّر لكما جهلكما الطاغي ـ أنت والوالد ـ بأنَّني سأتيح لكما حقّ تهيئة مستقبلي؟ وهل تعتقدان أنَّني أقبل الزواج من أيّ رجل تشتريانه لي؟».

وصفعتني للمرَّة الثانية، هذه السنة.

فاستدرت هاربة إلى غرفتي، أكتم رغبة مجرمة في أن أعيد لها الصفعة، في أن أُدمي وجهها!

أنا مرتبكة. مرّت بضع ساعات على دوراني في جوانب الغرفة.

كان بهاء يمزح، هذا الصباح. لكن ألا يدرك خطورة هذا المزاح؟

وصعق قائلاً:

«لينا...».

هذه هي المرّة الأولى التي يناديني فيها باسمي مجرَّدًا، بدل ضمير المخاطب. وكانت مناداته منطلقة من عالم ضائع، مظلم، مضطهد يحطّم أغلاله، ينشد غوثًا.

وأصغيت إليه، أرعى ضعف الطفل فيه:

«هل تمارسين السباحة؟».

أغضبني سؤاله، فكيف يتجاهل هذا النمرود؟ زرع بذور العار في رأسي: من العار أن أفتح أزرار قميصي. من العار أن أصافح يدًا غير يد حلالي. من العار أن أبتسم لرجل غير عزيز على قلبي. من العار... ألا يدري أيضًا أنّه من العار أن أخلع ثيابي، وأتمدّد على الرّمال، أصدّ باشمئزازي نظرات الرجال الناهشة؟

ألا يدري أيضًا أنّه من عدم التهذيب مقاطعة فتاة في محاولتها التكلّم؟ ماذا يريد؟ أنا ثائرة اليوم.

وقاطعني:

«جذبتني، في أول صيف قضيته في بيروت، مياه شاطئكم الوادعة. وأغرتني الألوان المتنافرة لأثواب استحمام الحسناوات

المطروحات بإهمال على الرمل الأبيض، يتحدَّين كلّ القوى: السماء، والأرض، والبحر، والرجال».

وتابع:

«ولكنْ، ما إن وقفت بسروال البحر على الشاطئ، حتى خجلت، بل كدت أموت خجلاً، وأنا أعتقد أنَّ عيون كلَّ الناس حولي تراقبني، وتدلّ عليَّ. جاهدت لأتمكَّن من الغطس في الماء وأتوارى إلى الأبد عن الأعين، لكنَّني تسمّرت مكاني حين خُيِّل إليَّ أنَّ الناس كلّهم يرتدون ثيابهم، إلاَّ أنا: هذا الرجل يستحمّ بطقمه الجديد. هذه المرأة ترتدي ثوبًا للسهرة. هذا الطفل ينتعل حذاءه. وأنا عارٍ بينهم: عارٍ حتى من ثوب الاستحمام».

عصفت بي رجفة هول. وكأنَّه تنبّه إلى خطورة اعترافه، فسألني:

«هل يجب أن أمرّ على صالون الحلاقة، قبل ذهابي...».

فقاطعته:

«إلى أين؟ إلى أين ستذهب؟ إلى البحر؟».

فأجاب ببطء:

«لا، إلى موعد!».

فكَّرت، وأنا ورقة بيضاء في حريق هائل: يودّ أن يثبت رجولته. يودّ أن يغطِّي حفر الكبت في نفسه!

وذهب.

وتفقّدتُ طرقات بيروت، أسعى في أثر مستقبلي.

بهاء يصنع مستقبلي.

والوالد يصنع مستقبلي.

وأنا أكافح لإعداد مستقبلي.

ففي طريق أيّ مستقبل سأسير؟

عدت إلى غرفة أمّي، بعد أن اجتمعت العائلة في الصالون، واختطفتُ قميصها الأبيض الشفّاف وأسدلته على جسدي الخمري، فتلألأ اليانع، مغرياً في الضوء الشاحب، الهارب من مصباح الشارع. وألصقت شفتيّ بالمرآة، احتفل بأولى تجربة للبس الحرير، بدل بيجامة الكتّان، واستنشاق العطر بدل شمّ روائح الجفاف، والتفكير بالمستقبل بدل تمحيص الآراء المكتسبة.

وتمدَّدتُ على السرير، وأنا واثقة من أنَّ جاري يحوم حول شبّاكي المغلق، يستنكر انتشار الظلمة في غرفتي مستغرباً.

ورفعت المرآة الصغيرة المستديرة بيدي، فواجهتني فيها شفتاي المعتزّتان بامتلائهما. ثمَّ أطلّت عينان تتعثّران في حلكة اسودادهما، فدفعت المرآة إلى البلاط، وهببت كجنيّة بيضاء، أحوم أمام المرآة الكبيرة، أقابل بين قوامي وقوام اليهوديَّة الحامل:

هذه اليهوديَّة تحمل عدوًّا سفّاحًا، وأحمل أنا في رأسي مآسي انعزال شعب، وجهله، وفترة تمرُّده.

تُعدّ هي مستقبل أمّة منبوذة، وأعدّ أنا في رأسي أوهام لقاء.

تفرغ هي من دمها كلّ يوم قطرة دم فاسد في عروق كافر بالإنسانيَّة، وتمرّ أيّامي أنا رتيبة، موجعة، عقيمة.

وتاه وعيي، في صورة قدّي المتضخّم، يتفوّق على كل قدٍّ في عطائه!

ثم أسرعت، أعيد الشفّاف إلى درج خزانة والدتي، وأتكوَّم على مقعد بين أفراد العائلة أصغي لتوافههم. فلم يرفع الوالد رأسه عن صحيفته المسائيَّة. ولم تردّ الأمّ على تحيّتي. وتبسّمت لي السمراء مشجِّعة.

حرَّكت شفتي، لأعكّر هذا الصمت الخانق، متجاهلة خصامي مع أمّي. سأستفهمها عن كيفية إشباع رغبة شابّ، على ساحة البرج! في وقفة خاطفة على ساحة البرج، وفي الصباح؟

ثم أطبقتهما، مترفِّعة عن الاستعانة بعقل آخر لحلّ مشاكلي.

تضغط أقدام الصمت على رقبتي، تحاول زهق روحي. ليتني أنزع أسنان الأمّ الناصعة. ليتني أمزِّق صحيفة الوالد المفروشة على ركبتيه. ليتني أشدّ بشعر الشقراء، الغافي على ظهرها، فيتكلَّموا. لن أطيق صمتهم، ولن أنسحب مقهورة. سأبقى مصغية في الصمت لأنفاس مستقبلي الذي يحيكانه.

يعبّ الوالد حفنة من دخان، ثم يكمِّل استمداده صفة الوليّ الجبّار من العناوين السياسيَّة الخطيرة في جريدة المساء، يكمِّل حبْك مصيري.

وفي تنحنحه، يستلهم السقف بدعًا مبتكرة يحقّ لصاحب الأولاد تطبيقها، راحت الأمّ تهدهده بابتساماتها واعدة، حانية، موافقة.

أمّا الشقراء الناعمة الأفكار، الفاترة النظرات، السهلة الانقياد، فهي تنفرد وحيدة مع تمنّياتها في قعر صندوق مخملي تصفّف فيه عقودًا وأساور ذهبيّة. والسمراء تراقبني.

إنّهم صامتون، يجترّون أفكارهم خفيةً عنّي.

أبعد الوالد الصحيفة عن وجهه، فلمع إطار نظّارتيه الذهبي فتبسّمت، أقابل بين المال المهدور حول زجاجتين، وبين الحاجة الضروريّة لثمن حذاء.

وددت لو تقدّمت بخطى متّزنة من هذا الرجل، أطحن زجاج نظّارتيه بأصابعي ذرّات مسنّنة، أبذرها في عينيه، وأنزع من بين يديه هذه التي يستمدّ منها طغيانًا وغرورًا، وأخفي هذه الأدوات الثمينة التي يتّكئ عليها ليواجه الناس بحضورها المترف، فيكسب احترامهم: سأمرمغ أخشاب الجوز، والطراريح النادرة بالأوحال. وسأملأ الزهريات بأوساخهم التي يخفونها في علبة ألومنيوم مقفلة، في المطبخ. وسأقطع حذاءه بالسكّين وأُجبره على انتعال حذاء مفتوق لسواه، وسأنزله من الطابق الثاني وأزجّه في غرفة حقيرة، وفي حيّ شعبي. أو سأصلبه في غرفة على أحد السطوح!

عندها، سيدرك حقيقته: رجل تافه، عاجز عن حبْك المصائر؟

وحاك الوالد انفه، فجمعت الأم أطراف ثوبها وغادرت المكان. ووجَّه الوالد نظرة ماكرة إلى السماء وهو يتبع زوجته. ثم تشجَع مرسلا النظرة ذاتها إليَّ، فهجمت أجمّدها بنظرة متدية، فماتت نظرته في مهدها فوق رأس الأخت، وتساقطت أجفانه تمسح الأرض في طريقها إلى لقاء الأمّ...

إنَّه يصرّ على حبْك مصيري في صمت.

وانسحبت بدوري إلى سريري. تعذِّبني أمّي: يعذُبني انغلاق باب غرفتها، وانطفاء النور فيها، كلّ مساء. بينما أمضي ليلي أنا مع طيف بهاء في الظلام. هي تعيش في الحقيقة. هي: هذا الوجود العادي. وأعيش أنا في تمنّيات زائفة، وأنا خزّان العواطف الواعية النضرة!

فرفع بهاء رأسه عن أوراقه التي يستشيرها للمرَّة الأخيرة قبل خوضه معركة الامتحانات النهائيَّة. وابتلع كلّ وجهي بلفتة بليدة، وفهم أنَّني ضائعة أتهيَّأ للعصف، والتحطيم، والعناد. فعجّل يستمدّ من ضعفي، ورجفتي، وتلعثمي قوّة واهية يهدم بها في لحظات صروحا جبّارة للإنسانيَّة، بنيتها في ليال طويلة... طويلة... ونهارات قلقة، لامتناهية في رعبها وحلكتها:

«قولي ماذا تريدين؟».

أشعلت لهجته الزاخرة الغضب في رأسي، فحاولت أن أشرح له خشيتي وخوفي من هجرانه لي يومًا، لأعود إلى الوحدة والفراغ والقلق، مع أشلاء ذكريات تركها لي: الاشمئزاز في جسدي، العار في فكري، الفناء في الصمت...

«قولي؟».

إنَّه يصفعني بهذا الأمر!

«قولي؟».

وارتعش فم الطفل في وجهه المنفعل، فتعلّقت عيناي بأثر المرض الجلدي، الوراثي على خدّه الأيسر. فغلّت عيناه ضيقا بنظراتي الآكلة من أثر الوباء على خدّه، وغمغم:

«لا بأس. لا بأس. العائلة المالكة وحدها، ورجال الإقطاع وحدهم، هم الذين لا يصابون بهذا الوباء. هذه «حبّة بغداد» تؤلم قليلا، ثم تترك آثارها...

لا تحدِّقي بخدّي، هذه هي جرثومة المستنقعات، والأوساخ، والإهمال، والفقر».

في رعبي، رميت نظراتي على الأرض فأسرع يرفعها:

«فشلت المظاهرات، وزجّت الحكومة منظّميها في سجون رطبة، مقابركم أصلح منها للاستنشاق... وهم يحاكمون أخي!».

وكأنّني أنا المسؤولة عن إخفاق الحركة التحرُّريَّة، حتى قال مؤنِّبًا:

«تعجبك هذه النتيجة، وأنت تفكِّرين بمبادئنا. لتعجبك، لتعجب كلّ محبِّي الاستعمار. سيأتي هذا اليوم. ستسمعين؟ وأنت مجروفة بتيّار لذّة، في فراش زوج... ستسمعين حقائق، تسمُّونها أساطير سننال بها مبتغانا».

«بهاء، أنت تهذي!».

«لا، أنصحك بالابتعاد عنِّي. واعلمي أنّني سأسحق بقدمي كل من يعترض سبيلي في سعيي إلى غايتي. سأقتلك. سأقتل والدي. سأقتل رئيس الوزراء، سأقتل ملايين البشر، لأحقِّق أهداف مستقبلي».

بدأ وجوده يذوب أمامي، وأنا أراقب ذوبانه، وحولي بعض الزبائن.

«ماذا تريدين؟ ومن أنت حتى تريدي؟ ما هي العلاقة التي تربطني بك؟ هل أنا أعرفك؟ أين التقيت بك؟ من أنت؟ امرأة في مقهى. هذا مضحك! مؤسف!».

فركت عينيّ، أهو يحلم في يقظته، أم أنا أستعرض حلماً في نومي؟ وجوده يذوب. وأنا مستعدّة للعطاء، فأمنح هذا الوجود من عندي حياة. هذا الوجود المتألّم، المبعثر، الكاذب، يستمرّ في ذوبانه.

وبينما كان يشعل سيجارته، كنت أتمنّى لو أنجح في العويل. إنَّه يذوب. يذوب أمامي، ويرتفع مكانه صنم كبير، يسمُّونه كبرياء: كبريائي.

وجود يذوب، وصنم يرتفع.

مددت يدي أنتزع السيجارة من يده: السيجارة تسهّل عمليّة الذوبان. مددت يدي. سأملأ المقهى عويلاً: «بهاء، حطّم الصنم. لا تبنِ من حطامك كبريائي»، فلم يعزف في حنجرتي صوت واحد، وهو يختطف كعادته لذّة من ساقيّ، يدلّيها على أجفانه ليعيد مضغها بعينيه ساعات الحرمان!

وانتصب ينوي التبخّر نهائيًّا، من حياتي. لا، سيضمحلّ وجودي أنا، حين يبتعد.

فتشبّثت به، مخنوقة الصوت:

«لن تقنعني بأنّني لا شيء، بأنّني مجرّد صورة لامرأة تشتهيها، بأنّني كاللفافة بين أصابعك ترميها حيث شئت، بأنّني حشرة فوق الكرسي، بأنّني ميّتة. هل أنا ميّتة؟».

رمى سيجارته، وداس عليها بحذائه، وأجاب:

«لست فوضويًّا مثلك. لي قيود أسرتي. لي مبادئ الحزب. لي أهداف مستقبلي. ولست ضعيفًا، لست حيوانًا أعيش للمرأة ولذاتي: فتحيا هذه، وتلك، حياة التفكُّك، حياة الحريّة ـ كما تسمّينها... كنت أتلهّى!».

كذّاب.

التهبت حروف الكلمة في خاطري، ولاحت لي مذابة في دمعي، فلهذا لم تصل إلى شفتيّ. ونقلت نظري بين وجوه الحضور، فإذا هم بين ساخر، ومشفق، وناقم.

فهل حسبت حسابًا للترفُّع والكرامة، فلم أتشبَّث به، مرتمية بين ذراعيه مستغيثة؟

إنَّها يده.

يا ليده كيف بدت حمراء في وهج النار المشتعلة، على رأس عود الثقاب:

كانت يده قريبة من فمي، وعنقي. رأيتها فخُيِّل إليَّ أنَّ سائلاً أحمر يتقطّر مَن تحت أظافرها البيضاء، ونفذت فوراً رائحة السائل إلى أنفي، فإذا الدم أزرق، صلب. أدنيت أنفي من يده، فأبعدها. وقرّبت يدي من أنفي، فخيِّل إليَّ أنَّ الدماء هي من عروقي التي تجري تحت الجلد، في جسدي!

نهضت متثاقلة، وبهاء مشروع مستقبل ضاع... ضاع... وتبعتني العيون المشفقة، الساخرة الناقمة. واندفعت إلى الطريق، أغوص في الضجيج والزحام.

وأسندت ظهري على عمود الكهرباء، عند محطَة الترام، وبكيت!

بكيت. بكيت ساعات طويلة، قضيتها مسندة إلى عمود الكهرباء، دون أن أحاول تجفيف دمعي بمنديل. وكان المارّة يراقبونني باستغراب. وكنت عاجزة عن كبت حاجتي الطبيعيَّة للبكاء. وبكيت، إلى أن حسبت أنّ ألمي قد استنفد كلّ قطرة سائل في جسدي، وأنَّ الدموع أمست دماء!

مسحت عينيّ بمنديلي الأبيض، فتأكَّدت من أنَّ لون السائل بلون الماء، فكففت عن ذرف دموعي وتنفّست بجهد وأنا ألمح امرأة تلبس ثوب الحداد، تخطو صوبي بحذر، وفي خطواتها رطوبة الدمع وجفافه في المآقي. اقتربت من العمود وهمست في أذني:

«كفّي عن البكاء، لن ينفعك البكاء. أهو شابّ، أم عجوز؟ إنَّه شابّ. في صمتك أعرف أنَّه شابّ. لأنَّ الشباب فقط يموتون. وأنا أيضاً فقدت شابًّا: إنَّه ولدي. بكيته عشر سنوات، فلم يعد! لا، كفّي عن البكاء فلن يعود! لن يعود. لن يعود. شحّ بصري ولم يعد. كثرت التجعّدات على وجنتيّ، ولم يعد. لن يعيده البكاء... كفّي عن البكاء».

استغرقتُ أكثر وأكثر في عاصفة بكائي ولم أنبس بكلمة فابتعدت المرأة، ورأيت للمرّة الأخيرة الثياب السوداء تنحشر في الترام المزدحم، فمضغت شفتيّ بنهم، أحاول السيطرة على النقمة النابتة فجأة فيهما: فإلى أين سأزحف بعد اليوم، كحشرة رخوة، على الأرصفة؟

إلى أين؟ إلى أين . . . إلى . . . أين؟

خطرت ببالي فكرة، نفّذتها فوراً: أغمضت عينيَّ واندفعت كالسهم بين السيّارة المتأهّبة للسير، وبين الترام المتهادي على المحطّة . . . أسرع الترام، اندفعت كالسهم، بين السيّارة المتأهّبة للسير، وبين الترام. تحرَّكت عجلات السيّارة: صرخ الناس. دوَّت صفَّارة الشرطي. اندفع رجل يسحبني بثيابي إلى الوراء. أوقف السائق سيّارته. نزل عن مقعده. اخترق الزحمة وفي قبضة يده وعيد، وعلى فمه القذر شتيمة هائلة:

«ساقطة! أنت ساقطة، أهذه طريقتك في ابتزاز المال؟ ساقطة، وهل تعتقدين أنَّني سأدفع «ديّتك» إذا قطعت دواليب السيّارة رقبتك؟ أنت ساقطة! سا . . .».

تملّصت من يد الرجل وأدرت ظهري للسائق، واختفيت في الطريق المتفرّع من الشارع الرئيسي إلى الجهة اليمنى، وتهالكت على عتبة إحدى البنايات، ودفنت رأسي بين يديّ، وعدت إلى البكاء.

هذه محاولة فاشلة أيضًا، في القضاء على حياتي: أنا جيفة لا تموت!

لماذا، لماذا غيَّرت رأيي بسرعة؟ لماذا، في اللحظة التي تلت لحظة تصميمي على الانتحار، أيقظت وعيي وتمهّلت مُسمّرة في منتصف المسافة بين الترام والسيّارة لأجتاز الطريق بأمان إلى الرصيف الآخر، مفسحةً بذلك للرجل مجالاً، يسحبني فيه بثيابي، يساعدني على النجاة؟

رفعت رأسي، فأخافني عمق السكون، وانغلاق نوافذ البيوت، وصدى الضوضاء الضاجّة في الساحات الرئيسيَّة. وتعثَّرت نظراتي بسيجارة مشتعلة عند حافّة الرصيف.

عن العتبة انطلق كلّ انتباهي، واستقرّ على عقب السيجارة، وهو يذوي شيئًا فشيئًا، بجانب قشرة موز.

نسيت من أنا، ماذا فعلت؟ إلى أين سأسير؟ وتجمَّعت قواي عند عقب السيجارة رغبة ملحّة: لإحراق شيء ما، وعصره بين الأصابع، وإبادته.

وإذا السكون يزداد ثقلاً ومرارة. وإذا أنا أسمع وقع أقدام تقترب: تقوى، ثم تخفّ، ثم تضمحلّ. وإذا النار تأكل على مهل بقايا السيجارة البيضاء، ولا يفصلني عنها إلا طريق أسود ضيِّق، فنهضت متثاقلة...

شعرت بارتخاء في جسدي، ثم دارت أشباح البنايات الرماديَّة في ظلام الطريق، وكدت أقع، لو لم أتشبَّث بكلّ انتباهي، بالوهج الأحمر عند قشرة الموز!

يجب أن أقرِّبها من أنفي، فأروي كياني بخدرها وأنعشه بدفئها. ثم حين أمضغها سأقضي على الفكرة المجرمة التي ولَدها بهاء في خاطري.

يجب أن أصل إلى الرصيف المقابل.

أغمضت عينيّ، فتحتهما متهيِّئة لابتلاع المسافة التي تفصلني عن عقب السيجارة بخطوة واحدة.

فإذا رجل يدور عند الزاوية في أوّل الطريق، ويتوغّل في الظلام، يدندن لحنًا غريبًا شائعًا، ويملأ رئتيه بالهواء الرطب.

راقبته بانتباه، ثمّ فتّشت عن عقب السيجارة، فإذا هو على بعد مترين منه تقريبًا. الرجل يتابع توغّله، ورأسه محلّق في الفضاء. هو يتوغّل... اقترب... اقترب. داس بقايا السيجارة، فاختفى اللون الأبيض، وخمد الوهج الأحمر!

فأسرعت في إثر الرجل، أنوي ضرب وجهه بقدمي، فأثبت لنفسي أنّني لا زلت أحيا!

لكنّني توقّفت مخذولة بعد أن أضعت أثر الرجل.

ورجعت إلى البيت، كأنّني مجبرة على العودة إلى البيت. دائمًا يجب أن أعود إلى البيت. أنا أنام في هذا البيت. أن آكل في هذا البيت. أن أستحمّ في هذا البيت. أن يُحبك مصيري في هذا البيت...

ليلى بعلبكي

الأسلوب وحده كافٍ لأن يجعل لكتاب **أنا أحيا** قيمة ليست لأيّ كتاب غيره في الأدب العربي ـ قديمه وحديثه. إنّه لأسلوب جديد، فريد.

ميخائيل نعيمة

ليلى بعلبكي امرأة تكبّدتْ مشقّة الكتابة؛ وهذا شيء رهيبٌ عندنا، حيث يمارسون على المرأة ضغطًا خانقًا. وينبغي الخروج من هذا. وأحيانًا يحصل الخروج بالأدب، كما حدث لليلى بعلبكي..

كاتب ياسين

قصّة غضّة، عفويّة، فيها غنائيّة لفظيّة رائعة تُدْنيها من غنائيّة الشعر.. لقد استطاعت ليلى بعلبكي أن تتخطّى الخوف من اللغة أو عليها، وأن تفصح عن حاجة حقيقيّة، ببراءة لم يُفسدها التهويل وادّعاء التفلسف.

جبرا إبراهيم جبرا

ليلى بعلبكي تخرج من كهوف الظلام التي عاشت فيها دهورًا إلى ساحة الحرِّيَّة. فلستَ تدري تلك الشرارات المتطايرة في كلّ صوب... أهي من الشمس المطلّة عليها، أمْ من الصدر الذي تمزّقه لتدخل الشمس إلى أعماقه؟

توفيق يوسف عوّاد

10€00

ISBN: 978-9953-89-146-0

دار الآداب

هاتف ٨٦١١٣٣ - ٨٠٣٧٧٨

ص.ب ١١٢٣-٤١٢٣ بيروت